قانــون سليمـــان

قانون سليمان

رواية

هشام حامد

قــانــون سليمـان

روايـــــة

اسم الكاتب : هشام حامــد

تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية للنشروالتوزيع

تصميم الغلاف: عبدالرحمن عثمان

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى

رقم الإيداع: ١٣٤٨٦ / ٢٠١٨

طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

المكتبة العربية للنشر والتوزيع

Arabic Library

Facebook.com/arabiclibrary2017

جميع الحقوق محفوظة

(١)

وُلِد (سليمان عبد المنتقم) في (مدينة المندرة)، ذات الملعب الكبير، الواقع في ضاحيتها الشرقية، والمُسمَّى بملعب (عبد الأمين الشيوعي)، كما أنها تمتاز بحدائق نادرة، وقصور عتيقة، وآثار سحيقة.

و(أمُّ سليمان) هي (دلال عبد القاهر ديْلم)، صغرى شقيقاتها. في سنوات مراهقتها، كانت تعتني بشعرها الأحمر الحريري، تغسله بماء بارد، ثمّ تدهنه بزيت جوز الهند، وتغوص بأصابِعها في كثافته الرَّخوة كأنها تتحسَّسُ جسدها العنبري. وفي المرآة المربعة؛ تنظر لوجهها المستدير، كأن جبينها الصغير جُزّ من الشمس عند إشراقها، وحين ترى حاجبيها الأَدْكَنَيْنِ المستقيمين؛ تتبسم بشفتين رقيقتين فينفلق عن أسنانها نور هادئ يزيدها حسنًا، لا يُسمع لأنفاسها حس، ولا يُرى لأنفها الأشم حركة، فوجهها كوردة بيضاء صافية، وعنقها القصير الأملسُ يعكس عيشها الكريم، وما يحويه قلبُها المطمئن، تضفر شعرها جدائلَ وتغطيه بمنديل أبيض، فتفلت من تحته خصلات ناعمة داكنة الحمرة، تطبّق جفنيها وتفتحهما، وترى في المرآة عينيها البنيتين الواسعتين مزينتين برموش سوداء لامعة، ربما كانت واحدة من اللائي يندر تواجدهن في المندرة؛ لأنها تملك سرًّا عجيبًا، فرغم هذا الجمال، لا يترك جسمها الناضج أثرًا شهوانيًّا في نفوس الرجال، وكانت تعيش مع أمها وأخواتها البنات الثلاث في بيت واسع بالقرب من ضفة النهر، والدها (عبدالقاهر) هو آخر ذكر في (سلالة ديْلم)، كان يرعى شئون أسرته ويوفر لهم سُبُلَ الحياة الآمنة من تجارة يسيرةٍ في العطارة، وبعد زواج بناته الثلاث اللائي يكبرن (دلال)، وافته المنية؛ فباعت زوجته دكانَ العطارة، وادخرت ثمنه بمكتب البريد. ولما كان الزمن يمرُّ؛ خشيت الموت قبل زواج صغرى بناتها، فحولت رصيدها من المال باسمها وكان مبلغًا كبيرًا، ولما بلغت دلال، تسع عشرة سنة، تقدم (فهيم عبد المنتقم)

للزواج منها وكان في الثلاثين، وو افقت أم دلال عليه، فهو موظف حكومي، كما أن عائلة عبد المنتقم معروفة بسلالتها الشديدة البأس والسلطان.

- يا أستاذ فهيم، أنا مو افقة على زواجك من دلال، ولكن لا بد أن يأتي أهلك معك في الزيارة القادمة.

وفهيم عبد المنتقم عاش مَزْهُوًّا بعائلته القوية، ذات التاريخ المشرف. ويُذكر اثنان من أبنائها البواسل في كتب التاريخ؛ فالأول شارك في الإطاحة بفاروق الأول ملك مصر، والآخر كان من المخططين لحرب أكتوبر. وفي المندرة شارع باسمه، وغالبية أبناء العائلة يحملون شهادات علمية عليا، ويعملون في القطاع الحكومي سواء داخل البلاد أم خارجها، لكن فهيم كان يدخن الحشيش ويشرب الخمر ويتعاطى البرشام، ويدخل قصرَ العائلةِ الكبيرَ المطلَّ على النهر، يترنَّحُ ويبول في أرجائه، وكلما احتاج المال، استغل مكانة عائلته في الاقتراض، وكان الناس يستاؤون منه ويبلغون أمه، وحين نهرته شتمها وكاد يضربها، ولما علم إخوته، عزلوه في بيت قديم بحارة (سيدي جلال الدين)، ورغم تحذير أزواج بناتها منه، ارتضت به أم دلال زوجًا لابنتها، وحين يسألونها في حيرة، تجيبهم:

- لنا كل الشرف بنسب عائلة عبد المنتقم.

- إنه عار عليهم.

- موظف حكومي، ويملك بيتًا، أنتم تغارون منه.

وقبل إتمام الزيجة بوقت قليل، وقفت إحدى سيارات عائلة عبدالمنتقم أمام بيت ديلم، وترجلت عنها (ثريا هانم أم فهيم)، وتقدمت بطلب دلال للزواج من ابنها ورحلت سريعًا، ولما تحدثت معه أم دلال في شأن مقتنيات الزواج:

- يا حماتي سأكون لك ابنا بارًّا وزوجًا حميدًا لدلال، لا تخشي أبدا، لا داعي لصرف المال، جهزتُ البيت بالمقتنيات اللازمة وخزنتُ أطعمة كثيرة. وكانت ليلة الزفاف شديدة الحرارة، ولم يحضر أخوات دلال ولا أزواجهن، قعدت وحيدة أمام المرآة، وزينت نفسها، وارتدت فستانًا أبيض، ومع فهيم حضرت أمه في

سيارة العائلة وأخذاها، وعند ناصية حارة سيدي جلال الدين أنزلتهما ثريا هانم وقالت:

- فهيم، أنت أصغر أبنائي كنت رحيمة بك دائما، من فضلك يا بني كن إنسانًا في حياتك الجديدة.

واكتشفت دلال أنها تدخل بيتًا عَطِنًا، تعبث الفئران في تجاويفه، عقدت حاجبيها تستفهم، ومع تجاهله استشعرت أن قدميها تتأرجحان من الرهبة، ولما نظرت لوجهه الأسمر ورأسه الأصلع ذي الجلد المشدود اللامع، والحاجبين الخفيفَيْ الشعر، والشارب الرفيع، والشفتين الضخمتين، والعنق الطويل ذي الحنجرة البارزة والأوردة الزرقاء؛ استشعرت أن حياتها المقبلة غُمةٌ ومَهانةٌ. ولما ضمها لجسده الطويل المفتول، طلبت أن يمهلها ساعة واحدة، فتنظف البيت وترتبه وتعد طعاما، فوجئت به يشدها بقسوة وينزع ملابسها، ورغم خوفها وبكائها لم يتراجع عما يفعله ولم يهدأ حتى أنهى ما يريد، نامت ليلتها تفكر فيما يحدث لحياتها وكيف أنها نُقلت من الرخاء إلى الضيق والمهانة، لكنها كذّبت نفسها مؤقتًا واستسلمت لنوم غير مريح، ومع الصباح وبينما تستحم في دورة مياه آسنة، سمعته:

- يا بنت ديْلم، أسرعي وإلا كسرت الباب وبصقت عليكِ!

(٢)

كانت السماء دائرةً زرقاء، وحافتها البعيدة دمويةً قاتمة، يحف نورُها الشاحب بجبين دلال المتصلبة في منتصف سطح البيت وتناجي:

- أغثني يا ربي.

وقد أهينت دلال وعانت كثيرًا منذ زواجها بفهيم، وهو الذي بعد زواجه منها بوقت قليل أُوقف عن العمل بعد أن ثبتت عليه الرشوة، فقعد في البيت يصرف من مدخرات زوجته حتى نَفِدَتْ، ولم يخجل قط وهو يراها تستدين لتطعمه، والأشد إيلامًا أنه كان يضيق ذرعًا بها حين تفشل في توفير الطعام والسجائر؛ فيطردها وتحمل طفلتها الأولى (نور)، وفي وضح النهار وأمام القاعدات على أبواب البيوت يشدها من شعرها، ويلقيها في طين الحارة ويطعنها بقدميه في وجهها فحطم أسنانها وشج جبينها وأصاب ذراعها بكسر مُعقّد، المرأة الوحيدة في الحارة التي كانت تنهره هي (بديعة رستم)، حتى أنها صفعتهُ على وجهه وحذرته بتحرير محضر ضده في قسم الشرطة، وحين حاول الرد عليها، اكتشف أنه قد يفتك به رجالٌ ينقصهم إشارة منها، غير أن بديعة قليلة الظهور، فكان وإن تراجع ما ينفك إلا ويطرد زوجته، لا بدائل أمامها غير العمل، خاصة بعد أن أنجبت طفلها الثاني (إبراهيم)، كما أن أمها واراها التراب منذ زمن، وبيع بيتُها، وأخذ فهيم نصيبها وصرفه على الحشيش والخمر والبرشام، ويمر الزمن عليها خائفة منه، تعيش على الاستدانة حتى ملّ الناس منها وأوصدت الأبواب بوجهها، فذهبت لإخوته تبكي، أمرتها حماتها ثريا هانم بالذهاب إلى المستشفى العام ومقابلة مديرها وتخبره أنها من طرفها، وبلا تثبيت إداري قبلها المدير واشتغلت عاملة نظافة، وصرفت لها إدارة المستشفى راتبًا شهريًّا، واستقرت الحال نسبيًّا، فتُقدم لزوجها نصف راتبها، وتصرف الباقي على ولدها و ابنتها التي أصبحت في صفها الثاني بالمدرسة، وكانت

تأخذ من طعام المستشفى كي تطعمهما، ثم حملت للمرة الثالثة، وأثناء عملها جاءتها آلام الوضع وخرج طفلها الثالث من رحمها، وفي نفس اليوم حكمت المحكمة الإدارية لزوجها بالعودة لوظيفته، وقيل أن ذلك حدث بناءً على أمر أمه، وهي التي أحبت الرضيع حبًّا عظيمًا، فمنذ رأته يمص في إبهامه، توسمت فيه البطولة والعظمة، انسابت دموعها وهي تقبل فمه الصغير، وتفحصته بعينيها الضيقتين، وسألت:

- ما رأيك يا دلال؟
- فيم يا سيدتي؟
- أن يحمل هذا البطل اسم (سليمان)؟
- حاضر ومن عيني.
- هل سميتموه قبلا؟
- لا يا سيدتي.
- إذن فهو (سليمان)، وسيكون (أعظم أبطال عائلة عبد المنتقم).
- الأمر لك يا سيدتي.
- وسأربيه أنا.
- تحت أمرك وفي خدمتك يا سيدتي.

واحتضنت ثريا حفيدها، وعاش معها سنواته الأولى، كانت سنوات رغد تظلل فيها بحنان جدته السمحة الكريمة، ومن شدة حبها له؛ أصدرت أمرًا لجميع أبنائها بالعطف على أبناء أخيهم العاقّ فهيم، في التو وقفت سيارة تحمل أثاثًا قيّمًا للبيت القديم في حارة جلال الدين وأواني جديدة وخزين أطعمة، و أقفاصَ طيورٍ متنوعة كي ترُبَّى على السطح، وفواكه طازَجة تدخل البيت يوميًّا مع الطعام الدافئ الشهي الآتي من بيت عائلة عبد المنتقم، وتم فرش البيت وتخزين العفش القديم بالطابق الأول، وعُبّئ الدولاب بملابس جديدة، وحتى تهدأ عاصفة الذل أكثر؛ أمرت ثريا أن تقعد دلال عن العمل وتهتم بتربية أبنائها، وهناك في حديقة القصر المليئة

بأشجار فواكه مالت أغصانها وصافحت النهر، تحت شجرة غنّاء تقعد ثريا ابنة الستين سنة على كرسي فخم، وترتدي عباءة سماوية، وتغطي رأسها ورقبتها بخمارٍ حريري أخضر، وتلمع أساور الذهب الثقيلة في رسغيها، وتشق أسهم النور الماسي المنبعثة من خواتمها ظل الشجرة، وينصع وجهها بالرضا والحس الآمن نحو الحياة، تستند بذقنها الدائري على إبهامها، وتضع سبابتها على طرفِ خدِّها الكرزيِّ، وتشاهد حفيدها (سليمان) الذي بلغ سبع سنين، يلهو في فرحةٍ، تنظره وتتبسم، وتتأمل سطح النهر وهو يعكس سماء الشتاء حين تصفو في الضحى، سبحت بفكرها في دلال ديْلم وكيف ستفرح، حين تفاجئها بدهان البيت باللون الأبيض، وأنها وضعت في البنك رصيدًا كبيرًا باسم حفيدها (سليمان)، لا يُصرف منه قرش حتى يبلغ رشده، لكنها؛ وحين هدأ الهواء وسكن حفيف الشجر، انقبض قلبها بعنف، فلما استفاقت من فكرها، اكتشفت أن (سليمان) اختفى، وكأن سكينًا باردًا تطعنها في صدرها حين نادت بصوتها المرتعش على الطفل ولم يجبها، رفعت رأسها فوجدت السماء تلبَّدت بغيوم دكناء، بحثت في صدرها عن شهقة، فإذا به مكتومٌ كأنه تحول لكتلة معدِنية أثقلت رعبها وغرست قدميها في الأرض، وقفت تلوي عنقها في كل النواحي، وتصرخ:

- (سليمان).. (سليمان)..

تمزقت أحبال صوتها من كثرة النداءات، ولما رأت حركة مريبة في ماء الضفة، اعتقدت أن الطفل سقط هناك ويحاول النجاة، انهمر المطر وهي تسعى صوب النهر، ولما وصلت؛ اخترق الماء شبحان أسودان سدّا عليها الأفق، وقبل أن تنطق بحرف شدها الشبحان من ذراعيها فأغشي عليها، خلف الفروع المائلة كان قاربٌ صغير ينزوي و يمسك بمجدافيه شبحٌ ثالث، على عمق غير بعيد غاص الشبحان القويان يمسكان بالمرأة، ولما وصلوا للقارب رفعاها وسبح القارب مختبئًا في الأفرع المائلة، ويشتد هطول المطر ويخلع أحدهم غطاء وجهه ويكمم الطفل، ظل القارب يسير قرابة الثلاث ساعات، حتى أصبحت المندرة ترى من بعيد كحجر ضخم مفتّتِ

الطرف وتنحدر حصواته نحو النهر، وبينما يصب الغمام مطره الثقيل، انبثق نور الشمس الذهبي، واخترق كل الفراغات المتاحة في طريقه حتى وصلت بؤرة منه لحضن شجرة رطب، اتخذه هذا التشكيل العصابي ساترًا لتنفيذ جريمتهم، وينكشف وجه (سليمان) فيصرخ حين يري الطين لطخ وجه جدته، وكانت ملقاة تحت أقدام ثلاثة رجال تصدر حناجرهم حشرجات وحشية، ويزفرون بخارًا كريهًا، ألقى بجسده في حضنها وناداها كي تستيقظ، امتدت يد عريضة تختبئ تحت قفازٍ جلديٍّ أسودَ ورفعته من فوقها، واستخرج أحدهم ساطورًا مسنونًا و بتر يدها فانفجر الدم في وجهه، حاول (سليمان) الوصول لجدته فصفعه أحدهم ليُكِبَّه أرضا، فلم يَرَ الساطور ينحر كفها الآخر، لكنه سمع وسوسة الأساور تخلع من ساعديها، ثم أحس بيد ترفعه، وكان آخرَ ما رآه من جدته وجه أخرس وجسد بلا كفَّين ودمٌ يسيل، ناداها:

- جدتي.. جدتي..

كمموه ثانيًا، وكان تغيُّظُ صدورهم كافيا؛ ليدرك ببصيرته الطفولية أنه في قبضة وحوش آدمية، استلب هؤلاء المجرمون أساورَ المرأة، ثم بتروا أصابع كفيّها وطَوَّحوها في النهر وأخذوا خواتمها الماسية، وزيادة في إشباع غريزتهم الإجرامية؛ غرس أحدهم خنجرًا رفيع السن في فخذها، وكانت علتهم في عدم قتلها أنهم لصوص وليسوا بقتلة، وقفوا يتفكرون؛ ثم شق أحدهم عباءتها من صدرها حتى قدميها، ثم انفجرت عن حنجرته ضحكة طويلة، قهقه زميلاه حين عثر على ضالته، فكانت ترتدي عقدا ذهبيًا وتخفيه تحت عباءتها، أخذوه ولم يكتفوا بما فعلوا، فلما راودتهم أنفسهم عن اغتصابها في الطين والدم لم يترددوا، ثم حددوا مدقًّا يسيرون فيه صوب الطريق الإسفلتي، حملوا (سليمان) وتحركوا تدفعهم سعادتهم بما غنموا للمضي نحو الإسفلت الذي يلمع من بعيد، وتسقط على الأرض هدّة سماوية جبارة، ورغم ذلك كانت ضمائرهم موقنةً بأحقيتهم فيما فعلوا، تجاذبوا أطراف حديث عن أنهم كانوا مُكلَّفين بخطف الطفل وتسليمه حسب الاتفاق؛ لكن

السماء منحتهم هذه المرأة ليأخذوا مصوغاتها كتعويض عن حرمانهم من ملذات الدنيا، وكلما تناوبوا على حمل (سليمان) تزحلق أحدهم وانكب على وجهه في الطين حتى تحول الثلاثة لأشباح طينية، وتوارت الشمس ثانيًا فقد اجتاح السماءَ غيمٌ عظيمٌ، بدت الحقول خرساء غامضة، وكأن كل شيء بلا رُوْح، ولا يُسمع غير صفير مرعب ولا يتحرك غير هؤلاء المجرمين و(سليمان)، اقترب منهم سور أسود، تقدموا نحوه غير عابئين، حتى إذا ما انتهوا إليه صمتوا هُنَيْهَةً متربصين، ثم انطلقت ضحكاتهم عاليًا، فكان هذا السواد أعوادًا متلاصقة لنبات الذرة، امتص الغيم الأدكن لونها الأخضر فخضعت منكفئة الرؤوس، وعند الإسفلت انتظروا بقية النهار حتى أتت سيارة مُتفق على موعدها ولونها من قِبل طبيب جراحة اسمه (صفوت عبد العال)، وحين وصلت ألقوا فيها الطفل وأخذوا من السائق حقيبةً سوداء معبأة بالمال، ولما اطمأنوا أن المبلغ كما اتفق عليه؛ وقبل أن يرتد إليهم طرفهم؛ انطلقت السيارة، في دفئها ومن شدة الصراخ والخوف خارت قوى الطفل فقعد ساكتًا حتى نام، وتسرع السيارة في ظلام أخرس، لا شيء يكشف الطريق غير كشافَيْها الضعيفين.

أبطأت بالقرب من ملعب عبد الأمين الشيوعي ثم وقفت تعطي إشارات. على مبعدة من الملعب كوخٌ أسمنتي، كان يُستخدم كاستراحة لموظفي محطة القطار في أزمنة غابرة، لكنه الآن خاوٍ ومنسي، كانت تختبئ فيه الممرضة (فاتن هنري)، غير مبالية بالخفافيش والزواحف القاتلة، ولما رأت ضوء السيارة أسرعت تحمل حقيبة، ولما ركبت حقنت الطفل بمادة مخدِّرة لتكون بمأمنٍ من صراخه، ثم انطلقت السيارة نحو شارع الدوران بالمندرة، وصلت عند عمارة في ستة طوابق، وبالشقة رقم ستة بالطابق الثاني قام الجراح صفوت عبد العال بسرقة كلية (سليمان) اليُمنى، وينفعل بشدة ويسب ويلعن حين انقطع التيار الكهربي فلم يأخذ الكلية اليسرى بعد، أتت الممرضة بكشاف ضعيف، نظرت للجرّاح فإذا بقباب العرق بارزة في جبينه، وكانت عيناه حمراوين من شدة الغضب، وجعل يتمتم:

- حكومة قذرة.

ولم تمضِ دقائق وعاد التيار الكهربي، لكنه انقطع ثانيا، وتجمدت الممرضة في مكانها؛ إذ انفجر دويٌ عنيفٌ اهتزت له العمارة، وتشنج الجرّاح حين سمع انفجارًا أعنف من سابقه، وقف الاثنان في حيرة وتوتر، يسمعان هرولةً في الشارع وصرخات تفيد أن حريقًا هائلًا شبّ، طل الطبيب من النافذة ليستعلم؛ فاصطدمت أذناه بأزيز هيلوكبتر تحوم في سماء المندرة التي تصبّ مطرًا عنيفًا، نظر أسفل فساعده ضوء ألسنة النار أن يرى أشباح رجال أشداء يقفون بانتظام ويتحدث أحدهم في لا سلكي، فاستشعر وكأن حربًا ضروسًا وقعت فجأة في المدينة، أجبره الارتباك على فتح باب العيادة فإذا بأناس يسرعون للأسفل، يرون النار تسد عليهم طريق الخروج فيعودون تارة أخرى، وامتلأ سلم العمارة بالمرعوبين من الحريق الهائل، ومن الهيلوكبتر، ومن الغرباء الأشداء، وتعلو صرخات استغاثة، وتتناثر كلمات:

- البدروم هو مصدر الحريق.

في ضوء الكشاف، جلس الجراح ينظر لجسد (سليمان) وجرحه ينزف، ترتعش يداه وهو يشعل سيجارةً وينتفض صدره من التفكير، ثم هبّ و اقفا وزعق:

- إن السماء تحمي هذا الطفل، لن أكمل ما بدأته.

وأمر الممرضة أن تضيء كل الكشافات في العيادة حتى يغلق الجُرْحَ قبل أن يموت الطفل، ثم تذكر سُلمًا آخر يمكّنه من النزول بعيدًا عن الحريق، نزل بسرعة ثم توجه نحو السيارة، قدم للسائق ورقة بالإنجليزية وصرخ فيه بالذهاب فورًا إلى المستشفى وأن يقدم الورقة لممرضة بعينها، وفي توترٍ شديدٍ أكد عليه أن يُحذّر الممرضة من التقاعس أو السهو في فصيلة الدم المطلوبة، وعليه أن يعود بسرعة ومعه كشافات جديدة فهو بحاجة للنور، ويتساءل السائق:

- أين كليتا الطفل؟

- إن السماء تحميه، أتوسل إليك أسرع قبل أن يدمرنا الله.
ارتعب السائق لما سمعه، وفي دقائق ذهب وعاد بأكياس دم وكشافات، وشرع صفوت عبد العال يمد (سليمان) بالدم ويخيط الجرح في آن واحد، ويتعجب من بقائه على قيد الحياة حتى الآن، وفكر أن يعيد الكلية اليمنى، لكنه خشي أن يتعطل قلبه، وتستاء الممرضة منه؛ وهي ترى دموعه تنساب حين حمل الطفل، وأصر على التصرف بنفسه خشية أن يلقيه السائق في النهر، وأخذت الممرضة الكلية وأعطتها للسائق فترك لها حقيبة مملوءة بالمال ثم أعطاها ملفًّا بنوعية الأعضاء المطلوبة ورحل، ومع قرب الفجر كان صفوت عبد العال يبكي نادمًا، قاد سيارته مباشرة نحو ملعب عبد الأمين الشيوعي وعنده طرفه وضع (سليمان) برفق، وكان يهمس دامعا:

- ما اسمك يا بني؟ ومن أي عائلة أنت، أنا آسف..

ولما كان أزيز الهيلوكبتر يتلاشى، نظر للسماء فوجدها صفّت مطرها وطلّت نجومها وهدأ الكون، استدار يضرب السيارة بقدمه ضربات متتالية ويصرخ، وهو لا يعلم أن فوهة مسدس كانت بانتظاره، فبعد خروجه من العيادة، اتصلت الممرضة فاتن هنري عبر الهاتف الأرضي بمسؤول تلقي الأعضاء وتصديرها، وأخبرته بما حدث، وأنها غير مسؤولة عن تصرف صفوت عبد العال، ولا تعلم أين ذهب بالطفل، تمتم المسؤول أنه سيتصرف، وعليها ألا تقلق فلن يجيء نهارٌ جديدٌ على هذا الجرّاح، ولما كان صفوت في حالة من البكاء والندم قرر أخذ الطفل ومعالجته في عيادته الأخرى بالقاهرة، وحين انحنى ليحمله اخترقت الرصاصة رأسه فسقط ميتا، ولم يكتفِ قاتله بذلك، فأخذه في سيارته الفخمة حتى يتولى تشريحه جرّاح آخر ويُستفاد من أعضائه السليمة أو تُباع جثته كاملة، أخذ القاتل جثة صفوت ونسي (سليمان)، وقبل شروق الشمس بدقائق، كانت بديعة رستم ذاهبة إلى مزرعة الدواجن القريبة من الملعب، وحين لاحظت أن كلابًا تتجمع في دائرة دون نباح، وتجحظ أعينها في شراسة كأنها تحرس جسمًا مُقدَّسًا، ولما اقتربت

هَشَّتْ عليها، فتراجعت كأنها تفسح لها مجال الرؤية، تعثرت أنفاسها قليلا و انتابها شعور بالريبة، مشت مُتوجسةً حتى رأته، ضربت صدرها بعنف وشهقت:

- (سليمان)!

برقت عيناها حين لاحظت أن بطنه مغلفة بالدم، ولأنها تعيش على ما يسكن في قلبها من عطاءٍ عظيمٍ تتحسس به دروب الحياة فتكسر نتوءاتها القاسية وتستمر؛ رفضت أن تتركه، سيطرت على أنفاسها ولم تدمع، اقتربت منه وتحسست عنقه فأدركته حيًّا، حملته وسعت:

- مالك يا (سليمان)؟! ماذا أصابك يا حبيبي؟!

ويسمع عامل المزرعة دقًّا عنيفًا على الباب، فتح يزعق، رآها فتعجب لوجهها المربد وصوتها الحاد:

- هيا معي للمستشفى، الولد يموت!

حمله وأسرع وكانت خلفه تسعى، وعند باب المستشفى تركه بين يديها وهَرْوَلَ يحكي للناس عما حصل، في سرعة إعصار انتشر الخبر حتى وصل لقصر عائلة عبد المنتقم، من أمام القصر العملاق تحركت خمس سيارات على متونها أبناء ثريا، وهم أربعة ذكور و أنثى واحدة، ويفسح الناس الطريق لأنهم يعرفون سطوتهم ومكانتهم الرفيعة، وبينما كانت الممرضة تأخذ (سليمان) من بديعة وتسأل عن سبب جرحه بهذه الطريقة البشعة، اقتحمت السيارات الخمس المستشفى، يزعق كبير أبناء ثريا ليعرف أين المرأة التي جاءت تحمل طفلا، أمسك أحدهم بياقة جلباب بديعة وصرخ فيها: "أين عثرت على (سليمان)؟"، وقبل أن يصفعها دفعته بيديها:

- تضرب امرأة يا ابن عبد المنتقم؟

- أتوسل إليك؟ أين أمي؟

الآن انفجر بكاء بديعة، فقد رأت ببصيرتها أن ثريا هانم تعرضت لكارثة فادحة، ويشتد بكاؤها وهي تتصور (فهيم) يعود لتعذيب زوجته وأولاده، وتُحوقل وينقبض قلبها حتى بكى الجميع، مسحت دموعها وأخبرتهم بما رأت وفعلت،

انطلقوا نحو ملعب عبد الأمين الشيوعي، وعادت بديعة لحارة جلال الدين، كل تفكيرها في دلال ديلم وماذا ستفعل لو أن ثريا ماتت، على ناصية الحارة كانت دلال تحمل جوال زبالة، رأتها بديعة فسألتها عن أين كانت منذ الصباح؟، أخبرتها أنها كانت تنظف البيت وتهيئه لاستقبال ثريا هانم فقد وعدتها بزيارتها اليوم، صحبتها في الطريق تسمعها تتكلم بحلو الكلام عن ثريا هانم وعن كرمِها ولولاها لذاقت من فهيم الأمَرَّيْن، تخفي بديعة توترَها وتتنهد ثم تسألها عن آخر مرة رأت (سليمان)، أخبرتها أنها تراه يوميا فلولاه ما أشفقت ثريا عليها، وحين وصلتا عند صندوق الزبالة أجهشت بديعة وارتفع نحيبها ولطمت خديها:

- آه يا دلال، ملعونة هي الحياة الدنيا وما فيها.

- ماذا يا ست بديعة؟

- آه يا مسكينة.

تسارعت دقات عنيفة في قلب دلال وارتعشت ركبتاها وخطف الدُّوارُ ثباتها، ولم تقدر على الوقوف فقعدت، ابتلعت ريقها الجاف وسألت:

- ماذا حصل يا ست بديعة؟

اعتذرت لها وقبلت رأسها وطلبت منها الذهاب حالًا للمستشفى، توسلت إليها لتعرف السبب، صرخت فيها بتنفيذ طلبها دون سؤال، هَرْوَلَتْ باتجاه المستشفى، كأن الوجوه والجدران والأبواب انعدمت من الدنيا، الموجود الوحيد في عينيها باب المستشفى، تجري بسرعة وقلبها كاد يتوقف، وحين وصلت عند المستشفى لم تَدْرِ لماذا نادت:

- (سليمان)..(سليمان)..(سليمان)...

كان دمٌ يسيل على فخذيها لم تحسه، وصرخت تشد عنقها لأعلى تنادي على ولدها، ومن قسوة النداء والرعب سقطت أرضا، عرفها أحد العاملين فجاء بسرعة.

- أين ولدي؟

-اهدئي يا دلال، ولدك بخير.

نظرت لوجهه فأحسته يتلاشى في الفضاء، وشعرت بروحها تنام مختبئة في جسدها، فأدرك أنها في إغماءة، وُضعت بحجرة الاستقبال حيث كان (سليمان) نائمًا، وبينما يفحصها الطبيب عرف أنها كانت حبلى وسقطت، وكانت عائلة عبد المنتقم أجرت الاتصالات بكبار المسؤولين في الشرطة، وكان من السهل التعرف على سيارة الجرّاح صفوت عبد العال، وباتصال أحد الضباط بمدير المستشفى عرف أن (سليمان) تعرض لسرقة كليته لكنه سيعيش، ويصرخ كبير أبناء ثريا حين أخبره الضابط بما حدث للطفل:

- في ستين داهية هو وأمه وأبوه القذر، أين أمي يا حضرة الضابط؟

صدر أمرٌ فوريٌّ بإيقاف مرور السيارات من الطريق المحاذي لملعب عبد الأمين الشيوعي، وبالفحص الأوّلي اكتشف الضباط أن سيارة صفوت لم تمر بعد الملعب و إنما هناك آثار عجلات سيارة أخرى في الطين الذي جف، وبتتبع الآثار اكتُشف أنه لا أثر لشيء، فامتداد هذا الطريق إسفلتي نظيف ومن الصعب تحديد مثل هذا الأثر، وتم توزيع قوة عساكر ومخبرين وضباط ومعهم أبناء ثريا أيضًا، وجعلوا يفتشون المنطقة تفتيشا دقيقا، حتى عثر عليها أحد العساكر، وقف مبهوتًا عاجزًا عن الحركة، فاضطر مناداة رؤسائه من موقعه، أمر كبير الضباط كل القوة الشرطية أن تصنع ساترًا بشريًّا لحماية جسد المرأة العاري، فقد أطبق الجنون على أدمغة أبنائها، يصرخون لما رأوا أمهم الكريمة السمحة عارية مبتورة اليدين وملطخة بكدمات خبيثة، تحسس أحد الضباط عنقها فشهق:

- ثريا هانم حية.

أخرج كبير أبنائها مسدسه وصوبه في وجه الساتر البشري وصرخ فيهم أن يفسحوا، ويُصر الضابط على منعهم من تنفيذ طلبه، يضغط الابن على الزناد فتنطلق رصاصة على إثرها فتح ممرا له، في طرفة عين كان على ركبتيه بجوارها ينتحب ويلطم:

- أمي، من فعل بك هذا؟ كلميني.

انقض على أحد الضباط وصرخ:

- أقسم بشرف أمي وشرف عائلة عبد المنتقم لأمزقنكم جميعا لو فشلتم في القبض على المجرم قبل مجيء الليل.

خلع كل أبنائها سُتراتهم وغطوها حتى حضرت سيارة الإسعاف، ونُقلت ثريا إلى مستشفى خاصة بمدينة الإسكندرية، وعينت لها حراسة مشددة، صدر أمرٌ من وزير الداخلية لكل أقسام الشرطة بتعقب الجناة، و انتشر الخبر في البلاد عن بكرة أبيها، وتخطى حدودها، بعد القبض على المجرمين الغرباء عن المندرة، اعترفوا أنهم كانوا مُكلَّفين من قبل الجرّاح صفوت عبد العال بخطف طفل فيما بين الخامسة والعاشرة من العمر مقابل مبلغ من المال، وبسؤالهم عن اختيارهم (سليمان) عبد المنتقم بالتحديد، أجاب أحدهم أنهم غرباء وحضروا لمقابلة صفوت فأخبرهم بالمطلوب وكلما أسرعوا كانت مكافأتهم كبيرة.

- وكيف عرفتم صفوت عبد العال؟

- في السجن.

- ولم كان مسجونا؟

- كان يحرر شيكات بدون رصيد.

- وكيف عرفتم؟

- المساجين كتب مفتوحة لبعضهم يا سعادة المستشار.. (وكيل النيابة).

- كيف خطفتم (سليمان) وجدتَه؟

ويتحدث أحدهم في أريحية، ويوضح أنه بعد دراستهم للمندرة جيدا، وجدوا النسوة حريصات على أبنائهن، فقرروا العودة من حيث جاؤوا، فربما حصلوا على ضالتهم في مكان آخر، وأخبروا صفوت أنهم سيعودون بعد مدة، لكنه أغواهم بالمكافأة الضخمة، فما كان منهم إلا البحث الدقيق في بيوت الأثرياء وكانت نتيجة التفتيش العثور على قصر ثريا هانم، حيث يسهل خطف (سليمان) أثناء وجوده

بالقرب من النهر، و أقروا أنهم كانوا بصدد خطف الطفل فقط، لكن حين رأوا بريق أساور ثريا، أخذوها ولا يعلمون من هي.

- من أين عثرتم على القارب؟

- قمنا بتأجيره.

وتسقط من فم المحقق كلمات أشعلت بريق الحياة في أعينهم:

- أبشروا بالمؤبد فقط، ثريا هانم لم تمت.

ويُحبس الثلاثة على ذمة التحقيق لحين العثور على صفوت عبد العال، و كانت بقع دمه عند الملعب بمثابة الشك الكبير في مقتله، كما أنه لم يُعثر عليه، وتقول زوجته حين استدعيت من القاهرة للتحقيق:

- لم يعد صفوت منذ فترة، كل ما عرفته أن حريقًا هائلًا شبَّ في العمارة التي بها عيادته هنا في المندرة.

- لم كان يحرر شيكات بدون رصيد؟

- اسأله هو.

وكان طبيعيا ألا يعثروا عليه، فقد تقطع جسده ونهبت أعضاؤه، وسافرت إلى (بريشتينا عاصمة كوسوفو) كي تباع، وبينما يفتش ضباط الشرطة عنه، كانت عظامه تنصهر في بانيو معدني، فقد صب عليها مسؤول تصدير أعضاء أجساد المصريين (حمض الكبريتيك)، وستمر أزمنة طويلة في البحث عن صفوت عبد العال الذي انتهى من الوجود، ولن يلتفت أحد لمُصدّر أعضاء البشر، الأحمر الشعر الذي يعرف باسم (الباحث الاستراتيجي) ويتبدل كل سنة بغيره، ولا يلتفت أحد أنه لا نتائج لهذه الأبحاث ولا ثمرة منها، غير استمرار البحث وتقديم الاحترام للباحث وفتح كل أبواب الدولة له، لا سيما إنه أشقرُ غربي اللغة، ومن الدعائم المتينة في الحياة المهنية لذلك الاستراتيجي: تجنيد الممرضات الجميلات في البحث عن الأطباء غير الأَكْفاء خصوصًا أصحابَ العجزِ المادي أو النفسية المعقدة، ومن أهم الممرضات في ذلك الشأن، الممرضة فاتن هنري بمستشفى المندرة العام، وكانت

تلك العملية الفاشلة بمثابة تهديد لحياتها المهنية كواحدة من ضمن تنظيم دولي، فبعد وصول (سليمان) للمستشفى و أثناء فترة علاجه، كانت ترتعب لو عرفها وأخبر أحدا، ولما رآها ولم يبدر منه ما يقضي أنه عرفها، جعلت تنظر لعينيه و تعصر ذاكرتها لتتأكد من الدقيقة التي حقنته فيها بالمخدر فتدرك أنه كان في نوم عميق، وكثيرًا ما تظاهرت بحزنها من أجله، ترقبه في فراشه، وتقدم لأمه خدماتٍ كثيرةً كملاءة نظيفة وأدوية وأطعمة، ولما تعافى وعاد مع أمه للحارة، عاش بكلية واحدة، وعاشت أمه في كدرٍ عظيم، فقد اجتمعت عائلة عبد المنتقم وقررت عدم رجوع (سليمان) للقصر وإعطاء أخيهم فهيم مبلغًا من المال كميراثه عن أمه وأخذوا منه توقيعه، فشرع فورًا، وصار يستمتع بممارسة صنوف العَرْبَدَة، فيذهب يوميًّا لملهى (زنجو)، ويتجرع الخمور ويبعثر المال على أجساد الراقصات وكان إخوته أعلنوا مسبقا أنهم برآءُ منه، وغير مسؤولين عن مال يقترضه من أحد، و أذيع نبأ أنهم تبرؤوا نهائيا من ذريته خاصة (سليمان) ذلك الذي كان سببًا فيما حدث لأمهم المحبوبة، التي قرر الأطباء بقاءها في المستشفى الخاص فترة طويلة، وبعد عودة دلال منكسرة الخاطر، لم تمض شهور وفصل زوجها من وظيفته نهائيا، فلم تجد سبيلًا غير العودة للعمل، ومر عليها الزمن بين ليالي شقاء بالمستشفى و أيام مطرودة من البيت تتلقاها بديعة رستم بقلب حنون وتعطف عليها وعلى (سليمان)، وحتى حين مرضت بالسل الرئوي و أُقيلت من عملها، لم يمتنع فهيم عن ضربها وطردها، ولما قضى على ماله، باع أثاث البيت و أتى بالعفش القديم، وتبكي وحيدة وتئن من شعورها بالضيق، وتمر عليها أزمنة بالغة التعقيد، فتنظر لأولادها وتتبسم غصبا، وفي ليلةٍ، حَمَلَها الأسى على الخروج هائمة، استقرت أمام دكان (ياقوت الأحمر) سنّان السكاكين.

- ماذا تريدين يا دلال؟

تحدثت عن حاجتها للعمل كي تتمكن من الصرف على أولادها.

يبصق ويتظاهر بالحزن لأجلها ويتساءل مستنكرا:

- هذه هي عائلة عبد المنتقم! يتركون عيالهم يموتون جوعا. ويتماهى متفكرا بعمق في إيجاد حل لها، ثم يضحك بمكر و يعرض عليها أن تمنع أولادها عن المدرسة فلا داعي لذلك.

- و أين يذهبون؟ على الأقل المدرسة تصرف تغذية يسيرة، وفيها يقضون غالب الوقت.

- أنت على صواب.

كان يحدثها ويتأمل وجهها الشاحب وعينيها المنكسرتين وجسدها الذابل، فلاحظ أنها ما تزالُ تحتفظ بشيء من جمالها القديم، ولما راودته نفسه عنها لم يرحمها، ثم وقف عند باب دكانه كأنه يأمرها بالانصراف ووعدها عند مجيء أحد الأثرياء سيتوسط لها كي يقبلها خادمةً عنده، وتركته تتمشى في السوق ولما قابلتها بديعة:

- أين كنتِ؟ الوقت تأخر.

- أولادي جوعى.

- طيب، تعالي.

وأعطتها دجاجة وخبزًا ووعاءً مليئًا بالخضروات وحذرتها من الوقوف بين يدي (ياقوت) تارة أخرى.

- حاضر.

لكنها، ومع بزوغ الشمس سارت نحو دكان ياقوت، أخبرها أنه عثر على مهنة رائعة، خدامة في قصرزنجو.

- ما رأيك؟

سألته عن موعد العمل فأجابها من الآن وأعطاها العنوان، عادت لبيتها بسرعة و أيقظت (سليمان) وصحبته معها، وفي الطريق نحو النهر كانت نسائم الصبح تسلم على وجه الصبي فيبتهج ويتبسم ويمسك بيدها، وهو لا يعلم الهوان الذي ينتظر أمه، ولما دقت باب القصر:

- من؟

- أنا يا سيدي.

- من أنتِ؟

وترتبك وتندم بشدة لأنها صحبت ولدها معها، لكنها اضطرت أسفًا أن تنطق بكلمة ستُبكي (سليمان) سنين طويلة، ستبكيه حتى بعد أن يكون رجلا عنيدا وشديد البأس والسلطان، إذ أجابت سؤال الرجل بصوت مجروح وكأن الخجل يفنيها من الوجود:

- أنا الخدامة يا سيدي.

- أي خدامة؟

- أرسلني ياقوت.

- لم أطلب منه شيء كهذا، لكن لا بأس.

وتنساب الأيام عليها كسواطير حادة، تمزق لحمها الواهن وعظامَها الرِّخْوةَ وهي تُهان في قصر زنجو، وامتنع ابنها الكبير إبراهيم عن المدرسة، وكان يهرُب من البيت ويغيب شهورًا ثم يعود في صراع دائم مع أبيه، وفي مرة اعتدى عليه بالضرب ونشبت بينهما مشاجرة، يسب أباه وينعته بالديوث، ولما بلغ الغضب من فهيم مرحلة خطيرة حمل السكين وطعنه بها، فحرر محضرًا في قسم الشرطة ضد أبيه وهرب، قبضت الشرطة على فهيم وحُبس شهور، ولما خرج كان إبراهيم قد تشرد تمامًا، وتمر الأيام في صراع بينهما، حتى اعتاد الناس على ذلك، أما نور الابنة الكبرى فكانت تخبئ أحزانها وتحنو على (سليمان)، وكلما أحسته يكتم أنينًا تبسمت في وجهه وقالت:

- اضحك لأجلي.

(٣)

ومع بلوغه العاشرة؛ أحال (سليمان) ذاكرته الأولى بئرًا، وألقى فيها بمسودات العبث الحاصل فيه، وقد كان مراهقو حارة جلال الدين من ضمن جراحه النفسية، فإذا أرادوا أن يَتفكّهوا؛ اغتالوا شخصه وجسمه.

مبنى قديم ومهجور، ومتاخم للحارة؛ قيل إنه كان في أزمنة المماليك مقرًّا لشيخ البلد، وبمنتصف فنائه مسلة فرعونية مكسورة الطرف، وأُشيع أنها اخترقت الأرض وقتلت بعض العَسَسِ (الجنود)، وأصابت الجميع بلعنة فأصبح مهجورًا، مساحته الكبيرة أسيرة أربعة أسوار كانت عالية وعريضة، تآكلت أطر افها بفعل السنين ومُلئت بفتحات متباينة الاتساع والهيئة، ويدخل منها أطفال يبولون على المسلة ويتغوطون في زو ايا الفناء، وإن لم يُنفّذ ما يشاع أن الحكومة ستهدم هذا البناء القديم، وتبني مؤسسة حكومية فقد يعيش للأبد، ويحاذيه صف من المباني التي تقع بالناحية المقابلة للحارة، وتفصل بينهما مساحة كبيرة من الأرض، كانت تستغل في عهد الملك فاروق كسينما صيفية، لكنها الآن مكدَّسة بالقمامة، المرة الوحيدة التي نُظفت و أقيم بها حفلًا صاخبًا، كانت بأمر رئيس البلدية، وكان هذا الحفل لأن الرئيس الر ابع للبلاد أدى اليمين الدستورية لتوليه الحكم للمرة الأولى، لم يفت على الحفل أيام وعادت تلك الرقعة كسابق عهدها، تلقى فيها الزبالة ويحتلها مطر الشتاء فتؤول منبع أمراض.

في الزُرقة الأخيرة للنهار، ينادي أحد المراهقين (سليمان)، فلا يلبيه، ويقف بريئًا أمام بيته، يُشار إليه بما يقضي أنهم سوف يعذبونه حين يجدونه في أي مكان، ينقبض قلبه، بفمٍ مطبق الشفتين وعينين دامعتين ينظر للسماء كالذي يستغيث، يفاجأ بشاب في الثامنة عشرة؛ يقدم له كرة بلاستيكية، ويخبره أن فناء المبنى القديم فارغ وعليه اللعب والاستمتاع وألا يخشى أحدًا، فينظر إليه (سليمان)

مستعطفًا، فيمسك بيده ويتكلم بجدية أنه سيحميه، فيبتهج صدره الصغير ويقشعر جسدُه حين يتخيل أقدامه تركل الكرة، فيبتسم للشاب ويطيعه، ولا تمضي دقيقة على تواجده هناك ويختفي الشاب، ويترك وراءه صدى ضحكاته الشامتة، فيحاصره مراهقو الحارة، ويمزقون ملابسه ويجرحون جسده، ويقذفونه في بَهْو المبنى، الذي محيطه دائرة رمادية متينة الأحجار، وتفوت من ثقوبها أشعّة شمس المغيب، ومع هبوط ظلام الليل في بطء مريب، يتجمعون حول جسده بوجوه حاقدة، مشدودة الأفواه، يتقاطر منها اللعاب الحامض، فيبكي ويستنجد معتقدًا أن دموعه ستخلق فيهم الرحمة، ومن فرط فجورهم؛ لا يتركونه دون أن يتأكدوا أنهم حفروا فيه آثار عبث ومجون واغتصاب مهين، ويجرونه من شَعْره، فيُقاوم، فيضربونه بالأقدام، ويطعنه بعضهم بأسنان مسامير صَدِئة، ويقذفونه في زاوية البَهْوِ المُظلم، ويخلعون ملابسه البالية، ويتمتعون برؤية الدم وهو يسيل من أنفه وفمه، وما خلفته أسنان المسامير من رتوش دموية في بطنه وفخذيه وتنساب دموعه لتحفر في خديه قنوات الانتقام، وتعبئ ذاكرته أفعالهم فيه، وبينما يمسح دموعه يتمزق ضميره من الحسرة، ويرتعش جسده من الاغتصاب والجوع والأسف، ولأنه يرفض رؤية أمه المريضة تغسل ملابسه المبتلة ببولهم القذر، يرتديها فتخنقه رائحتها الخبيثة، فيتدثر بالظلمة، ويسير مُنكبَّ الوجه كأنه يُخفي عارا مشينا، وتدفع الفطرة قدميه للذهاب إلى المسجد، ومع ارتفاع أذان العشاء، وفي دورة المياه ينظف جسده، ويغسل ملابسه، وتدمع عيناه في صمت وهو يمرر الماء على شعره البني الناعم، ويتحسس جبينه اللطيفَ المنحني الجانبين والمناسب لاستدارة الوجه والرأس، ويزيل آثار الدم من الحاجبين الرشيقين الناعمين، ويلمس عينيه الواسعتين المكللتين برموش طويلة، والمعبأتين بحدقتين عسليتين، وينظف أنفه المستقيم ذا الفتحتين المتناسقتين، ويمضمض فمه الصغير المزين بأسنان شفافة البياض، ويغسل صدره المربع والمنسجم مع أعضاء الجسد، ويحاول أن يتبين سر ما يحدث، فيمتنع فجأة عن التفكر والبكاء، ويقعد في دورة المياه بانتظار جفاف

ملابسه، وبعد يأس، وشعور بالبرد ورغبة في النوم والنسيان، يعود مبتلاً، ولا يسأله أحد من آله عن شيء، إلا أخته نور، تحتضنه وتمسح على رأسه وتتبسم بعينيها الدامعتين.

- لماذا تدمعين يا نور؟

- لا شيء.

و(سليمان): لا علاقة لذكائه الجمّ بعبث أقرانه وما لا يعنيه، فهو مغرم بخصوصيته الذاتية، وما يخبئه في حافظة ذكرياته، وله قدره باهرة علي قراءة تفكير الآخرين؛ وما يخفون من شعور نحوه، كان يتمنى عكس السوء الماكر المحيط به وما تلمسه فراسته الخطيرة فيمن حوله، ولا يجد، ومن أسباب خضوعه للتعايش المهين، ذلك الحدث المؤسف الذي وقع بالمسجد، فبعد واحدة من نوبات الاعتداء عليه، ولما انتهى من تنظيف جسده وملابسه، ودخل صحن المسجد؛ رأى جاره (الحاج بدير العدوي)، والد واحد من عصبة المراهقين، كان يستند بظهره على جدار المسجد ويمدد رجليه، وأصابع يده تُحرّك حبات المسبحة، ويتسابق لسانه مع نبضات قلبه في ذكر ربه، أشرق وجه (سليمان) و اقترب منه، وبوجه مُشفق وعين دامعة، أخبره بما يفعله ابنه وأصحابه، شدّ بدير جبينه، فتحول وجهه لكتلة عظمية وشديدة الغضب، وتلاشى احترامه للمسجد ونسي المسبحة والتسابيح، فصفعه على وجهه ثم جره حتى الباب، وطرده وهو يشتم ساخطا، ومع توسلات (سليمان) أن يرحمه؛ اشتدت قسوة الآخر، ودفعه لينكب على وجهه في قمامة يرميها الناس جوار المسجد، وحين اعتدل، كانت بصقة بدير المخاطية اللاذعة ملتصقة بفمه!

- اخرس، تتحدث عن النجاسة في بيت الله، اذهب وفتّش عنها في بيتكم، المندرة كلها تعرف أباك فهيم السكران الذي جلب العار لعائلة عبد المنتقم، وأمك دلال خدامة زنجو.

منذ تلك الدقيقة أدرك (سليمان)؛ أنه مهما عاش لن يعثر بسهولة على من يرد إنسانيته التي تنهب، ومع الأيام تتكشف له الحقائق، فيرى الدنيا لا تتسع لجسده أو حتى لقلبه، وتتنكر مشاعره الرقيقة لمجريات الأمور؛ فيوقن أن معتقده الجميل عن الحياة يذهب سدى، وكان يتحسر على الأيام السعيدة التي عاشها مع جدته، فقد كان يعتقد أنه يملك الأرض، وتلك الآفاق حوله ملعباً لا نهاية له، وكانت فصول العام تمر عليه فتعبئ رو ائحها في صدره، وتترسب ألوان ثمارها في كيانه، لكن وجدانه الآن ارتد معكوسًا؛ ورسم من حياته القديمة خطًا موازيًا ليجابه العبث الدنيء المُمَارَس فيه، ويبذل ما بوسعه لتجنب مراهقي حارة سيدي جلال الدين، وفي كثير من أيام الصيف؛ كان يترك أخته نور ويخرج عصرًا للعب، وكان قد ابتكر طريقة لَهْو؛ لينأى عن مضايقات التغامز عليه، فيجلس فوق سطح البيت مرتديًا قميصًا رماديًا باليًا، وبنطلونًا مرقّعًا، ويتأمل الأفق الأزرق متمنيًا أن تسافر روحه للسماء البعيدة؛ وبعد الشعور بالخيبة، تحط بصيرته أرضًا، ويهيئ من خياله كرة لَعِب، يحملها بيديه السمراوين القويتين، ويخرج من بيته حافيًا، يسير في سعادة مضطربة نحو المساحة الشاغرة خلف الحارة، وهناك يلعب، فينافس فريقا وهميًا؛ ويختار لمنافسيه أسماء أشهر اللاعبين الذين شاهدهم في تلفاز المقهى، وينافسهم ويغلبهم، ثم يصافحهم، ويتحسس وجهه فيجد العرق التقط ذرات التراب المتطاير، فيقعد على نتوء حجري عتيق موهمًا نفسه أنه طاولة الراحة، وعلى شفتيه أمارات عطش شديد، ويمسح عرقه الطيني بأكمام قميصه، ومع دقائق الغروب يرى عربة البلدية قد جاءت، ويفرغ العمال منها قمامات المدينة ثم يشعلونها، وينتشر الدخان، ويحتك بقصبته الهو ائية، ويخنق رئتيه، ويصيبه بالسعال، ومع زحف الليل تغرق المدينة في ظلام هُلامي، لا يضيئه غيرُ بؤر الزبالة المشتعلة، ريثما تُضاء لمبات الأعمدة فتبعث ضوءًا باهتًا، وينبثق من بعض الدكاكين والمقاهي ضوء أصفر شاحب، ومصدره لمبات قديمة كساها برازُ

الحشرات بغطاء من الصعب محوه إلا بغسل اللمبات وهذا أمر كاد أن يكون مستحيلًا، وحين يسأل عمال البلدية عن سبب حرق القمامة يُجاب:

- لطرد البعوض والذباب.
- وتكون مصدرا للنور.

يقترب من الزبالة المشتعلة؛ وتُعجبه منها جمرات صلبة، فيتبسم حين يكتشف أنها منبع ألسنة اللهب؛ ويلتفت بصره لعصا دهنية الطرف، ومُزجاة لم تأت عليها النار، فيتناولها، فتلسعه حرارتها، ويقبض على حفنات تراب ويقذفها عليها حتى تبرد، ويتلمسها مُختبراً، ويحملها ويعبث بها في القمامة، ويُزيح شيئًا من غطائها الناري، فيصطدم طرف العصا بالجمرات المتقدة، ويقلبها يمينا ويسارا، وتلمس السخونة بَشَرَةَ صدره، فيشعر بيدٍ خطافية تخز بقلبه، فيرتاب، ويُبطئ من حركة العصا، وكان يفعل ذلك لغرامه برؤية كتل النار تترنح على جنبيها، كأنه يعذب الذين استأصلوا طفولته، ولا يدري أن جزيئات الزبالة المشتعلة التي ينفضها الهواء الساخن العكر تلتصق بجلده الرطب.

يلوي عنقه حتى تتمكن عيناه من زاوية رؤية أكبر، يتأمل العالم حوله؛ فالبيوت في هذا الظلام كأنها عمالقة سوداء، وأسطحها كجماجم بأفواه ضخمة ومفتوحة صوب السماء، ولما تضاء مصابيحُ ضعيفةٌ في أجو افها، تبرز نو افذها كعيون صفراء تتأمله، وعلى الأسطح ظلال أناس يحملون أطعمة للطيور المحبوسة في الأقفاص والعشش، وآخرون يتسلّلون للسرقة، ويفرون كقرود تتعلق بأعمدة الكهرباء، ويتأمل الآفاق فيحس النجوم كأحلامٍ فضية مطموسة، تبعث بإشارات مذبذبة، ويستشعر السماء تقترب في سرعة مذهلة نحو الأرض، ويسعد معتقدًا أن النجوم قد تتساقط ثم تنطبق السماء على الأرض، ويخيب رجاؤه، فيومئ أرضًا، ويرى فئران تنظر للزبالة المشتعلة بعيون حائرة، وتخرج من أفواهها صرخات واهنة، كأنها تندب حظها في ذلك الليل المُحبِط، فقد أشعل الناس القمامة وأهلكوا مصدر رزقها، لكنها لا تيأس، فتستبدل حيرتها بالهرولة نحو جدران

البيوت، وتفتش عن أضعف الأماكن في أخشاب أبوابها، وبعد محاولات مستميتة تغرس أسنانها حتى تفتح ممرات كافية لاقتحام المكان، فتشارك سكانه في الطعام ولو كان مخفيا في صناديقَ محكَمة الإغلاق، ويضحك حين تخترق جدران البيوت أهازيج هلع تصدر من حناجر الناس، وتخترق مسامعه صرخات فئران وقعت حبيسة المصايد، وأخرى تطاردها القطط الجائعة بعيونها الماسية، يستاء من رائحة جسده الباعثة علي الغثيان، وتخور معدته فتتذكره بالجوع، يتوقف عن العبث في الزبالة المشتعلة، ويترك النار والعصا، و أثناء عودته يتسمر قبالة المقهى الذي يكشف ضوؤه عن رجال أتعبهم الكَدْحُ في أعمالهم، فيجلسون فُرادى وجماعات، ويتسربل بعضهم بالجلابيب والكوفيات، ويضعون على رؤوسهم طواقيَ بدت كقطع صخور جوفاء نُحتت علي رؤوسهم المكدودة، وينتعلون أحذية يغلفها طين يابس، ويلوّحون لبعضهم بأيدٍ خشنة ومشققة الأظافر، ولا يُرى من وجوههم المُرهَقة إلاّ البقع التي طالتها حفنة ضوء، وفي إعياء يُحركون جفونهم التي أثقلها التدبر، وينظرون جوارهم حيث تعلو أصوات شباب؛ يعقدون مقارنات على ما يرتدونه من ملابس حديثة، وعلى مقربة رجالٌ متفاوتو الأعمار ويرتدون القمصان والبناطيل؛ ويلوحون بأيديهم في ضيق وعنجهية، ويزفرون دخان السجائر وهم يفخرون بوظائفهم الحكومية وبعلمهم بالغيب السياسي، وتعلو أصوات بعضهم حين يدب فيهم خلافٌ عنيفٌ، ثم يقرر أحدهم أن السياسة ابتليت بالجهلة، وأن أدمغة البشر قد اختلت، وانحرفت الحياة عن مسارها الصحيح مع تواجد الشباب الرقيع، ويقرر أحدهم بصوت ألمعي:

- ألا ترون أن رئيس بلادنا العظيم يقرر الديمقراطية في خطبه، ماذا لو كان قتل في حادثة المنصة؟ ألم تسمعوه يؤكد أنه لا بد من إبرام صلح مع إخوتنا العرب، بعد قطيعة دامت طويلا، أنتم جهلة!

يقترب من المقهى، فيرى الأبخرة تتصاعد من القدور الموضوعة على الموقد الغازي الذي في أقصى الركن بعمق المقهى، وعلى الطاولة الأسمنتية يرص العامل

الأكواب على الصواني، ويلقمها بالسكر، ثم يصب فيها الماء الساخن، فتتناثر روائح المشروبات، ويحمل النادل الصينية ثم يتنقل بانسيابية مدروسة، ويفرّق الأكواب علي الجالسين، فيستقبلونه وهم يفركون أيديهم مستبشرين؛ كأنهم يتناولون منه ترياق الحياة الأبدية، وفي وصلة راحة من الحديث المعتاد ولعب النرد، يُرسل البعض النادل إلى البقالة الضيقة والمجاورة للمقهى؛ ويغيب دقائق ثم يجيئهم بخبز أفرنجي ومعلبات ويشرعون في تناول الطعام، وتستعطفهم عينا (سليمان) ليطعموه بلقمة، ولما تجاهلوه، توغل في الحارة بقدمين متعبتين، واستشعر جدران بيوتها كأنها تلقي بشوائب بطون ساكنيها، فتستدعي ذاكرته إيماءات النساء اللائي يتجمعن أمام أبواب البيوت في الأيام المشمسة، ويشعر في همسهن بوسوسةٍ لئيمة، وحين تتأوه أكبرهن سنًّا، تبتهج النسوة ويسبحن بحمد ربهن، ثم يعدن للوسوسة، فيرفع حاجبيه متعجبًا من تناقضهن الحاد والمنفر، ويتسلل نحوهن متظاهرًا بالبحث عن حجر صغير يستعمله في اللعب، ويقارن بين نظراتهم المضطربة، ورائحة العداء الفواحة منهن، والطريقة التي تعامله بديعة رستم، تلك التي أنقذته قديما، وقد رأى منها آيات كرم، وإيماءات عطف وإشفاق وحنان صادق؛ فأحبها حبا كبيرا!

(٤)

(شارع النطرون)!

أهم الشوارع التجارية بالمندرة، وكاد أن يكون مستقيما، وطوله ثلاثة أرباع كيلو متر، ويتفاوت عرضه ما بين العشرة الأمتار والخمسة عشر مترًا، ويتفرع من جانبيه حواريَ وأزقة، ولأن أغلب الذين أشرفوا على رصفه، لم يهتموا بدراسة قشرته ولا بطبيعة أتربته، كان على المطر أن ينام في حفره المبعثَرة، ثم يغور تحت الإسفلت ويضعفه بمرور الزمن، فيتشقق الإسفلت ثم يتفتت ويؤول لأحجار كربونية، يعجنها مطر الشتاء فيتحوّل لشارع طيني، ومن ثم يرصف تارة أخرى، والبيوت المصطفة على جانبيه متقاربة المساحات ولون الطلاء الظاهر في الأصفر الجيري، وبالإضافة لمحلات العطارة والبقالة والمطاعم القديمة، يوجد به متاجر الأجهزة الحديثة والمقتنيات المنزلية الثمينة، ويستاء أصحابها بشدة حين يقام سوق السبت الأسبوعي، فيخبئون البضائع القيمة، ويسدلون الستائر على الفاترينات حتى ينتهي الزحام، ويشتكون بشكل دوري:

- ألم يجدوا غير شارع النطرون ليقيموا سوق المندرة الأسبوعي؟!

أما دكان منتجات الألبان الشهير، فلا يستاء صاحبه من سوق السبت؛ لأنه يغلق دكانه في هذا اليوم، ويُعرف هذا الرجل باسم (مانو)، وقد أشيع عنه أن يغلق دكانه يوم السبت لأنه يخشى الزحام والباعة الغرباء، لكن الحقيقة أنه يقضي مع عائلته إجازتهم الأسبوعية.

وأما في الغرب من الشارع ثلثا مساحة البلدة، وتتوزع في حارات متباينة المساحات وشوارع متقاطعة، بيوتها أسمنتية بُنيت في أربعينيات القرن العشرين، وتتخللها حدائق ضاربة في القدم، وتنتهي بضفة نهر تحاذيها عمارات شاهقة أنشئت حديثًا، وبعض قصور، وإن كانت مغلقة

ومهجورة فإنها وتدية التمركز، وأما الثلث الأخير من المندرة فيقع شرق الشارع، وتستكين فيه بضع مبانٍ قديمة وبيوت جديدة، غالبا ما ارتفعت لخمس طوابق، وقد اقتنى أصحابها التلفاز والهاتف الأرضي، وحارة سيدي جلال الدين متفرعة منه؛ وهي أقدم الحارات في المندرة، وينتهي صف بيوتها الأيمن ببيت مساحته التقريبية مائة متر، ويرتفع في طابقين، وبُني من طوب محروق شديد المتانة، وعُزّزت جدرانه من الخارج بطبقة أسمنتية طُليت بجير لونه سماوي، وكأن جوفه حين يزفر؛ يحتج ثائرًا على الطلاء، فبدا كورقة هائلة متآكلة الأطراف، ولم تسلم واجهته من خدوش حادة وكلمات بذيئة نحتت أسفلها، ويتوزع في الواجهة أربعة شبابيك لا تُفتح ليلاً أو نهاراً؛ كأن سكان البيت مخلوقات تكره النور، والحقيقة أن النوافذ مغلقة لخوفٌ ظاهري من رواد المقهى القابع على ناصية زُقاق متفرّع من الحارة، فعيونهم تتلصّص على البعيد والقريب وتقتنص النسوة، وفي هذا البيت تعيش بديعة رستم، وأختها الكبرى العقيم، تغار منها لكونها امرأة ولودًا، وكما تخشى من فتنة تصيب زوجها فيسقط أسيرًا لجمالها؛ من أجل هذا عاملتها بسوء وقطعت صلة الرحم، وعندما مات والدهما باعت نصيبها في بيته لبديعة، وهو الآن بيتٌ خاوٍ ويسميه الناس (بيت بديعة).

نفس الشيء فعله أقاربها لأمها خاصة نسوة العائلة، فقاطعنها خوفًا على أزواجهن من جمالها، ومع مرور الوقت بُني حائط كراهية متين، لكنها عاشت مرفوعةَ الرأس تقاوم أنين الوحدة، أما عائلة والدها؛ فتعود أصولها لمدينة (دمياط)، وحكت أمها أن أباها جاء إلى المندرة في شبابه لاستلام عمله كفراش في البلدية، وانقطع عن أهله نهائيًا، وكانت على الدوام ترى وجه أبيها كبحر حزن، وحين تسأله يُرَبّتُ على كتفها في حُنُوّ، وظل كذلك إلى أن ماتت زوجته وعاش وحيدًا بعد زواج ابنتيه، حتى قتله الحزن، فالشخص الوحيد الذي أبكى هذا الرجل الذي عاش كاليتيم كانت هي، أمّا زوجها الحلاق الشهير (عبد السميع نمرود)؛ فمن عائلة ركيكة الحال، وجلها ضعفاء ويرتاحون للعيش المنعزل، وحين

أتمت الخامسة والثلاثين، قُتل هذا الزوج وهو يفض مشاجرة، حيث جاءته ضربة عنيفة بموسٍ حادة قطعت شريانه السباتي ومزقت قصبته الهوائية، وترك وراءه ثلاث بنات وولدًا اسمه (نصر الله)، وميراثًا مقبولًا من النقد، احتفظت به في البنك واستخدمت أرباحه في مساعدتها على العيش، وتقدم للزواج منها بعض الرجال، وكلهم طلبوها كزوجة ثانية ورفضتهم، لأنها تفضل الموت على مشاركة امرأة في رجل مهما كان ثراؤه، وانتصرت في حربها ضد الذين حاولوا النيلَ من جسدها بلا زواج، وأجبرتهم على الانزواء كذئاب مجروحة، وكلما حاربها أنين الوَحدة يغلب هدوؤها النفسي؛ حيث تعمد إلى المرآة تمتع عينيها بلذة النظر لمفاتنها، وتستخدم الملقاط في نزع الشعيرات الدقيقة من وجهها.

ومر الزمن عليها غير تعبة ولا مُفكرة في شيء إلا في الذي تنتظره ولا تعرفه، وعاشت ترعى أبناءها وأصرت على تزويج بناتها الثلاث برجال يتحملون صعوبات الحياة، وبقي الولد، وقد عجزت سنوها السبع والأربعون عن مجابهة جمالها، فلم تفقد من رونقها شيئًا يُذكر، فجسدها لأنثى نموذجية، فلا ترهّل في خصرها ولا تيبّس في ردفيها، وحتى التجاعيد الطفيفة المكوّمة بحياء تحت جفنيها زادتها جاذبية، فتظهر يافعة وناضجة، وخداها وردتان حمراوان مزينان بشفتين رفيعتين وقرمزيتين ورطبتين، وإذا ما لمعتا فكأنهما تعكسان ضوء اللهيب في صدرها المرصّع بثديين لم يتهدلا، وعيناها واسعتان بنيتا الحدقة ومشبعتان بالدهاء، ويظللهما رموش سوداء تبدو مجزوزة ومشبَّعة بالكحل، ويعلوهما حاجبان خفيفان أملسان، وشعرُها الكثيف ينبلج من عصابة رأسها فيسترسل على ظهرها كخيوط الحرير الأسود.

واللافت للإثارة أذناها الصغيرتان؛ فهما دهنيتان ومزينتان بقرط ذهبي وهّاج، ويتدلى طرفاهما السفليان الناعمان والأبيضان كقطعتي ثلج تناجيان الظمآن، وعلى الدوام تستعمل الحناء ودهان الأظافر ولا تظهر في بشرتها البيضاء أية سطور زمنية، وتشع يداها وقدماها نضارة تثبت أن جسدها كنزٌ وثمار طازَجة

بحاجة لمن يجنيها، وأمر طبيعي أن يُقدم لها كثيرون قرابين التوسل سعياً لإرضائها، غير أن تلك القرابين لا تأتي إلا عن بُعد، فلا يجوز لرجل أيًّا كانت مكانته في الحارة أو غيرها أن يتجسّر ويقترب منها، وليس لثمة خوف منها، إنما انكماشًا من حسها الذكي المُريب، ولهذا ينصاع الجميع للتظاهر باحترامها، إلا إذا اقتربت هي بغرض تحقيق نفعٍ مستدامٍ، ويعمل ولدها (نصر الله نمرود) حلّاق رجالٍ، وقد تعلم المهنة من أبيه، وقد ورث عنه دكاناً مؤجراً بشارع النطرون، والدكان في بيت مرتفع لخمسة طوابق، ورغم قدمه دهنت واجهته حديثاً بالأخضر الجملي، وحده المطل على الشارع عريض، وطابقه الأرضي مجزأٌ لأربعة دكاكين، ولأن الشارع تجاري وكلما جد جديد، فإن المؤجرين سرعان ما يبدلون أنشطتهم، ويهيئون دكاكينهم، ويقدمون لمالك العقار ما يرضيه من مال وهدايا، إلا دكانًا يجاور بوابة البيت الحديدية، وتعلق على بابه الخشبي اللَّزِج يافطة زرقاء مكتوب عليها بخط أحمر قبيح: (نمرود للحلاقة)، وهو مؤجر منذ زمن بعيد ببضع جنيهات، وثمة محاولات وطرق عدة نفذها مالك العقار لطرد نصر الله منه، لكنه ما يزال يكتفي بالمثول أمام بديعة، لينتزع منها وعدًا بإخلاء الدكان أو تصليح التالف فيه، كتبديل اليافطة الحقيرة، وتجهيزه من الداخل بالمرايا البلجيكية، وتحويله لكوافير أنيق يليق بالبيت المزخرف، ورفع قيمة الإيجار كما فعل أقرانه، وإن لم يفعل يرحل بزبائنه، ويذكرها ببيتها الذي ورثته عن أبيها وكيف لم ينتقل ابنها إليه.

- صعب على ابني ترْك هذا الدكان، فقد تربّى فيه ولا يعرف غيره، ليس عشمي في شهم مثلك أن يفعل بنا هكذا!

وتخبره أن الدكان مؤجرٌ وفق القانون، كما أن البيت الذي ورثته عن أبيها متهالك، وإن أحضرت عمالا لتجهيز طابقه الأرضي؛ سينهار وتحدث كارثة، وتعده أنه حين يُفرج الله عليها ويرزقها ستبحث عن بديل!

(٥)

في شمال المندرة؛ يسير النهر هادئًا وحنونًا، ولها ثلاث مداخل، أهمها المدخل الجنوبي، فقد وصل صيته أقصى مغارب الأرض ومشارقها، وسبب ذلك: (ملهى زنجو) و(ضريح مسعود الحبشي)، وزنجو؛ اسمه الحقيقي (جارم زيدان)، ولد وشب في بيت من حجر الجير بأحد الأزقة الرطبة بحي الباطنية بالقاهرة، وكان والداه فقيرين ويحصلان على رزقهما من بيع قراطيس السكر، ولم يكمل إخوته التعليم لرسوبهم المتكرر؛ فاشتغلوا ببيع الخضروات، أما هو؛ فتحمل الفاقة التي تربى فيها، لأن دخل والديه؛ بالكاد يطعم الأبناء الخمسة عشر، ففي صحن بيت شديدِ الضيق وعلى حصير خُوص، يتزاحمون ويتكالبون بملابس بالية وينهشون لقمَ الخبز، ويتصارعون على طبق الغموس الوحيد.

بهذه اللُقَيْمات اليومية وصبر دؤوب استطاع أن يترقى في التعليم حتى التحق بكلية الحقوق، وهناك أرغمته نشأته المعدمة على المقارنة بين فقراء الباطنية والنمط المعيشي لقرنائه الأثرياء في جامعة القاهرة، فآمن أن وجه الحياة الناعم يظهر فقط مع الثراء المادي، فاستاء من والديه وتمرد عليهما، وأنكر عيشتهما وعايرهما بالفقر، وبعد رؤيته لقصور تجار الحشيش والأفيون في الأحياء الراقية، راقبهم فأدرك أن الباطنية هي مُسْتَنْقَعُ استثماراتهم، فتدفق حسده واحتج حقده اللئيم، ونقّب عن الحل الأمثل ليرتقي في الدنيا منزلًا، وجنح خياله نحو العصامية والتفوق الدراسي، فربما يصير أستاذًا في القانون، وتجاهل امتعاضه المذل من جيوبه الخاوية، وبذل جهودًا مضنية في المذاكرة لكنه كان يجتاز الامتحانات بصعوبة، وفي صفه الأخير بالجامعة قرر العمل في المحاماة على أن يبرع فيها ويحقق طموحه، لكنه وقع أسيرًا في غرام زميلته (راقية علوي)، وهي من أسرة ثرية تعيش في حي المعادي، فتمنى الفوز بها في إطار فطرة الحب السمحة، غير أن نفسه

اللحوحة وشعوره بالضآلة والعجز، كانت أسبابًا ليفشل في الحفاظ على غرامه في ظل الفقر، فدفعه السخط الدفين لابتداع شجاعة وهمية؛ وعقد اتفاقًا مع أحد تجار الحشيش في الباطنية، بمقتضاه يكون وسيطًا في نقل كمية حشيش محدودة لإحدى المدن النائية، واشترط على التاجر عدم خوض هذه المغامرة ثانيًا، ثم انزوى قلقًا، ومعتقدًا أنه سيرفض أو سيضعه تحت الاختبار، أو سيبلغ عنه الشرطة، لكن التاجر استغل شبابه وهيئته المبهَمة، ووسامته الفريدة، فعيناه واسعتان طويلتا الرموش، وصافيتا البياض، وشديدتا سواد الحدقة، وخداه مستديران في امتصاص ضئيل وحمرة رجولة، وأذناه صغيرتان يحُفّ بهما شعرُه الأسود الداكن، ورأسه الضخم لا يظهر تربيعها فشعره يكسوها ويرفرف مع أدنى نسمة، وفمه صغير بشفتين باسمتين وأسنان واضحة البياض، وعنقه ملفوف في خشونة، وصدره عريض وبطنه نحيف ومتسق مع رجلين طويلتين؛ فتأمله تاجر الحشيش، وتفحص قميصَه الأبيض الركيك، وبنطلونه النبيتي، وحذاءه الرخيص، وقال في خشونة:

- هل تدري شيئًا يا جارم؟

- ماذا؟

- لولا أني أعرفك يا ابن زيدان لذبحتك وأطعمتك لكلابي.

- أنا...

- من حقك أن تكسب بعض المال ومن حقي قتلك لو راودك خداعي.

وكانت المهمة توصيل الحشيش وبرشام مخدر لأحد الملاهي المشبوهة في الإسكندرية، مقابل الحصول على مبلغ كبير، وبعدها ارتقب تهديدًا من التاجر، لكنه فوجئ به يخبره أنه تحت الأمر لو أراد تكرار العملية، ولما تخرج؛ صارح فتاته بالحب، وحدثها عن طموحه في المحاماة، وبدورها عشقت وسامته وجرأته، وقدمته لأبيها الذي تباهى بكفاحه في بناء مجده وتكوين ثروته و انتقاله من حياة البؤس والجهل للرفاهية، و أبدى مو افقته على الزواج منها، طالما ينتوي التفوق في

المحاماة، واشترط عليه العيش في فيلا العائلة بحي المعادي، فكاد قلبه يتوقف من السعادة وهو يشتري بكل ماله مصاغًا ذهبيًا لحبيبته، واستأجر له صهره شقةً صغيرة ليعمل في المحاماة، وازداد إصراره على تحقيق الثراء السريع، فكان يقبل بالقضايا المشبوهة، وينال أحكامًا ترضي زبائنه واغتنم أموالا كثيرة، وأنجبت زوجته ابنة جميلة سماها (برلنتا)، وعاش مبتهجًا، ومع بلوغه أربعًا وثلاثين سنة، طلبت منه زوجته أن يشتري لها فيلا وسيارة ويسجلهما باسمها، وقد فعل، واختزن لنفسه مبلغًا لا بأس به في البنك، وقبل أن يتم الخامسة والثلاثين بشهر واحد، أصابته نكبة مريرة، فتزامنًا مع سياسة الانفتاح في البلاد، وتغيير التوجه المالي للدولة من الاشتراكية إلى الرأسمالية، وحين لبى دعوة أحد عملائه المفسدين، قُبض عليه عاريًا في شقة تدار للدعارة وكان يدخن الحشيش، وتم حبسه سنة واحدة وإيقافه مؤقتًا عن المحاماة، ولم تزره زوجته خلال فترة حبسه، وحين خرج منعته من دخول الفيلا وطالبته بالطلاق، فاستعطفها وذكرها بحبه وما اشتراه لها، فرفضت نهائيًا، وحذرته من إخوتها الذين واكبوا التوجه الرأسمالي وأنشؤوا مشاريع كبيرة، وبات في مقدروهم الكثير من القرارات النافذة، وتجنبًا لإحراجه أمام ابنته الوحيدة، ذهب للمبيت في شقة المحاماة، لكنه اكتشف أنها أجرت لأناس غيره، فعاد للباطنية، وقرر استغلال ما بقي من مدخراته في بناء مجدٍ كبير، ولما بحث عن التاجر الذي تعامل معه قديمًا، علم أنه ذُبح في مجزرة بين تجار الحشيش، ولأنه يعرف أن صاحب (مصمط النصر) المشهور في الباطنية وقلعة الكبش، هذا الشيخ الطاعن في السن، والبادي أمام الناس تقيًا ورعًا، (المعلّم أنور خدّام الإمام)، وما هو إلا تاجر حشيش، وكان يوكله في بعض القضايا، وكنوع من التمويه، تقدم للزواج من ابنته الأرملة، لكنه فوجئ بالرفض، فعاود المحاولة متسائلا عن السبب، فكشف أنور خدام الإمام الحقيقة وقال:

- أيها المحامي، هل أعجبك السجن؟ لن أزوجك بنتي، أنت تريد شيئًا آخر.

- نعم؟

- المسألة بسيطة، هات كل ما تملك من مال.

- لماذا؟

- لتكون واحدًا من شركائي.

- فيم؟

- في الحشيش.

- ماذا تقول؟

- ما سمعت.

ولم يمضِ أسبوع، وكانت مدخراته بين يدي أنور خدام الإمام، وكل فتره كان يطمئن أن أرباحه في زيادة، ثم قرر خوض مغامرة، فالتمس من أنور الاشتراك في عملية آمنة، فتفحصه مليًّا ثم أومأ قبولًا، وفي الموعد المحدد وكان شتاءً، ذهب برفقة رجلين إلى مدينة المندرة، حيث يقام احتفالٌ دينيٌ ضخمٌ بمولد مسعود الحبشي، ويكون موقع الاحتفال في مدخل المندرة الجنوبي، المحاذي لأرض زراعية تتخللها رقع بور تحوي آثارًا مهملة، وبعدها بمسافة قصيرة يقع ضريح مسعود الحبشي، ويستمر الاحتفال لمدة شهر وقد تزيد، وهناك انبهر من سهولة تمرير المخدرات في هذه الاحتفالات الصاخبة، وحين تراءى لسمعه أن نابليون بونابرت حضر هذا المولد في زمن غزوه لمصر، وغنى ورقص، أطلق استهزاءه في ضحكة مجلجلة، ثم اقتحم حشدًا يتمايل مع نقر الدف وأنين الناي وخشخشة الرق، وصاح:

- لابد أن نابليون كان شيعيا، آه منك أيها النابليون البلطجي. وقرر استغلال تلك المنطقة، وشجعه تاجر الباطنية، وسمح له بزيارة المندرة والتجول فيها، ولما كانت شونة الغلال المتاخمة لمدخل المندرة الجنوبي معروضة للبيع في مزاد علني، وباستغلال جزء من أرباحه في الحشيش، وبالاتفاق مع مسؤول المزاد أصبحتْ ملكه، وفي وقت قليل استخرج كل التراخيص اللازمة و اقتطع نصف المساحة و أنشأ ملهى ليليًا، و انتقى من اسمه الحقيقي ثلاثة أحرف وأضاف إليهم

حرف الواو وأطلق على نفسه وعلى ملهاه اسم زنجو، ويسعفه الحظ بالمزيد من الثراء، فبعد تولي الرئيس الرابع الحكم، صب المسؤولون جل اهتماماتهم على السياحة، خصيصًا في الأماكن المُستحقة كالمندرة، وكأنه كان يتحين الفرصة لذلك، فمن أرباح الحشيش والملهى أنشأ فندقًا صغيرًا، وشجعه كبار المسؤولين في وزارة السياحة، خاصة إن المندرة بها الكثير من الآثار والحدائق النادرة، ولتفعيل السياحة فيها لا بد من عوامل جذب، كفندق جيدٍ، ومطعم راقٍ، وملهى يوفر صالة رقصٍ ومشروبات روحية كالخمور بمختلف أنواعها، وقد وفر زنجو كل هذا، وذاع صيته، وأصبحت علاقته جيدة بمسؤولين كبار في وزارة السياحة وبعض رجال الأمن، وزيادة في نيل ثقة الحكومة أنشأ أسوارا حول الآثار المشتتة في المندرة، ودهن أسوار الحدائق النادرة بالأخضر المموّه، وأنشأ فيها مصاطب أسمنتية، وزينها بالمصابيح الصغيرة الملونة، ووضع صناديق قمامة، وعين عاملًا يختص بتنظيفها دوريًا، فشكره الموظفون المختصون بالسياحة والآثار، وبلغوا صنيعه الراقي للمسؤولين، ومع الوقت بدأت وفود السياح تأتي هناك، ولم يقتصر ربحه على ما يتحصل من بيع الخمر والحشيش لمدمني المندرة ومريدي مسعود الحبشي، بل امتد نشاطه خارج الدولة، فكان يتصل بشركات السياحة لجلب الوفود الأجنبية لملهاه وفندقه في المندرة الرقراقة، واشترى قصرًا قديمًا على ضفة النهر بالمندرة، وأدخل عليه تصليحات فأصبح كجوهرة ساحرة تضيء الضفة، ولما أصدرت الحكومة قرارًا بوقف الاحتفال بمولد مسعود الحبشي، واستخدامه كأثر ديني قيم، انقض على الفرصة وحوّل توقف الاحتفال لصالحه، فطلب من موظف هيئة الآثار في المندرة أن ينتدبه مشرفًا على هذا الضريح، ويتعجب المسؤول من طلبه، فيبلغه أن المقصد خير، فلا بد من حراسة الضريح من التخريب لحين عودة الاحتفال، كما أنه لا مانع من حراسته مدى الحياة، وأمام بسمةٍ آمرة، وهديةٍ متواضعةٍ استجاب المسؤول، وكان هدف زنجو تخزين الحشيش في الضريح، والانفراد به كمزار قابع في أرض خضراء، رؤيته تبعث على الانتشاء والتفكّه النادر، وبهذه الطريقة نال رضا

المسؤولين وأمّن مخدراته، ولم يضيّع وقتًا ليثبت حسن نيته، فحين أتاه موظف حكومي اسمه (بهاء الرومي) يطلب عملا في الملهى أو الفندق.

- لم؟

- أنت تعلم يا سعادة البيه أن راتب الموظفين في مصر لا يكفي، أرجوك اقبلني.

عينه حارسًا ليليًّا للضريح مقابل راتبٍ مجزٍ، وتوالت اتصالاته بأكثر من مسؤول في جلب السائحين لمثل هذه المناطق الأثرية والمحاطة بالخضرة من كل جانب، ونال شيئًا من مراده، وكان يؤكد على بهاء أن يكون يقظًا وحذرًا، ولما كانت المندرة في أقصى الجنوب الغربي للدلتا، وتنعزل عن الصخب والزحام وتمتاز بطيبها وجمالها الخلاب، ومع تواجد الملهى والفندق والخدمة الممتازة، وفد إليها بعض شخصيات مشهورة من مصر والوطن العربي، ومن ثم انتشر الصيت لأبعد ما تخيل زنجو، ففي الربيع وبعض أيام الصيف تأتيه شخصيات مصرية وعربية، و في الخريف والشتاء يفد إليه الأجانب من دول عدة، ثم جاءه اتصال من شركةِ سياحة يقضي بوصول وفدٍ سياحيٍّ على درجة خيالية من الثراء والسلطان، وقد اختار هذا الوفد المندرة، وأرسل زنجو مبلغًا كبيرًا لشركة السياحة كإكرامية، وكان يعتقد أن الوفد السياحي الأجنبي لا بد أن يصحبهم مرشدٌ يتحدث بلغتهم كالوفود التي سبقتهم، لكنه أخفى تعجبه حين رآهم اثني عشر ذَكَرًا، تتفاوت أعمارهم بين العشرين والخمسة والثلاثين سنة، وفيهم من يتحدث بالعربية، وبعد يومين من مكوثهم في الفندق، وفي جِلْسة تعارف، عرف أنهم أناس رفيعو المستوى، لكن الذي لفت نظره أكثر الفرنسي (جون ماكسيم) الذي يملك مصانع أسلحة، فتبسم كالذي عثر على كنز، وبطريقةٍ تقريريةٍ طلبوا منه توفير رقعةٍ نادرةٍ وباهرةِ الجمال وإلا رحلوا، فتعجب وتبسم وأومأ طربا وقبولًا، وذهب بصحبتهم إلى الضريح، ووقف يتأمل إيماءاتهم الأنثوية، فاستشعر فيهم شذوذًا، فتحدث مع العربي فعرف أنهم يريدون الاختلاء بأنفسهم، فسأله بالتواء ذي مغزى:

- هل كنتم تعرفون ضريح مسعود الحبشي؟

- يعرفه أهم واحد فينا، (جوزيف فريمان).

- كيف؟

- من إعلاناتك.

- لم أعلن عن مسعود الحبشي، ولكني...

وقدم له العربي حقيبة مملوءة بالدولار الأمريكي، وهو يقول:

- المهم عندنا الآن الاسترخاء والمتعة، في ضريح مسعود أو غيره.

- كم هذا المبلغ؟

- مائة ألف دولار.

لوى وجهه وقال ساخرًا:

- الدولار في أيامنا لا يباري الجنيه يا سيدي.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن المائة ألف ينقصها عشرون.

- لك ما تشاء وأكثر، فسوف نقضي عندك الشتاء كاملا.

سأله عن سبب اختيارهم للمندرة، فالأرض متسعة أمامهم، فتكلم عن زيارتهم لأماكن عديدة في العالم، وأنهم يريدون أرضا بِكرًا، وأبلغه أنهم اطلعوا على إعلانها في مطار القاهرة، ثم قدم له كاميرا فوتوغرافيا وطلب منه تصوير أماكن بحسب الخريطة الأثرية للمندرة، حتى إذا ما عادوا لبلادهم؛ عرضوا الصور على أقاربهم وأصحابهم بزعم أنهم قاموا بذلك، ثم قال:

- أتقِن عملك.

وقبل أن يتحرك زنجو لحقه بالكلام:

- هل يوجد هنا نساء جميلات؟

- أكيد.

- ما أعنيه نساء جميلات حقًا.

- يوجد.
- صورهن إذن.
- كيف؟
- بالكاميرا.
- أفهمك، ولكن كيف تريد صورهن.
- يُفضل قطعًا أن تكنّ عاريات وغير معروفات بالرذيلة، وكل شيء له ثمن.
- كيف أفعل؟
- لا تقل هذا يا رجل!
- ولم أفعل؟
- أسئلتك كثيرة!
- اعذرني فالأمر غريب.
- صاحبنا جوزيف فريمان يريد هذا، وكذلك لو سئلنا عن أسباب أسفارنا الكثيرة نعرض على أصحابنا وذوينا صور النساء من شتى بقاع الأرض ونتظاهر بكوننا نستمتع بهن، لكني لا أخفيك سرًّا، فجوزيف فريمان هو صاحب الفكرة ونصيحتي لك أن تستفيد منه بقدر ما استطعت.

وأخذ زنجو الكاميرا، وأمر (بهاء) بحراستهم، وقدم له مبلغًا كبيرًا وأمره ألا يسهو عنهم دقيقة واحدة، وليس من شأنه ما يفعلون؛ فإن رآهم يتجرعون خمورًا، أو يدخنون حشيشًا، أو يمضغون أفيونًا، أو ينامون عرايا، فهم أحرار تماما، والتزم بهاء بالتعليمات، وفرح بما يقدم له من قطع ملابس وقنينات عطور وسجائر ومخدرات وأوراق نقدية، وبعد أن اطمأن الشواذ تماما فتحوا آخر حقائبهم وكانت تحتوي على أجهزة فيديو وشرائط أفلام، وطلبوا من زنجو توفير التلفاز اللازم، وأعطوه مبلغًا كبيرًا، وبدوره نفذ مطلبهم، ولما شاهد معهم فيلمًا إباحيًا، استشفوا منه رغبة الحصول على جهاز فيديو، فأمدوه بما يريد وأكثر، وكان هذا أمرا معجزًا.

(٦)

بالقرب من محل نمرود للحلاقة، يقبع دكان سنّ السكاكين، وصاحبه ياقوت؛ وفي الغالب يبيت فيه، ويدخن الحشيش ويشرب الخمر، وحين انتصف الليل و انقطع التيار الكهربي، وقف متعرقًا في جوف الدكان المظلم، وكالذي يندب حظه:

- سحقا للذين يغشون الحشيش.

وكلما تمايل وتخبط في الجدران، تمالك جسده في صعوبة وعاد يزعق:

- إن الله خلق الحشيش والأفيون والخمر وأجساد النساء للمتعة، لأنه يعلم أن الدنيا بدونهم تصبح قذرة.

وهو في نهاية الأربعينيات من العمر، ومنذ مراهقته وضع لحياته دستورًا واجب التنفيذ، وهيأ من دماغه مغناطيسًا يجذب كل عوامل النعيم الجسدي، ومنذ أنشأ زنجو ملهاه؛ وهو يشتري منه الحشيش والكينا والبيرة، وإذا توفر المال جاء بخمر الجون ووكر، ودعّم مزاجه باستحلاب الأفيون، لكنه حين أصيب بنوبة إفلاس حاد، ولما تاقت دماغه لخابور حشيش؛ تمشى بالقرب من الملهى، و اقترب من أحد حراسه وتهامس معه ليتوسط عند زنجو كي يعطيه قطعة حشيش على سبيل الدين، فهزّ الحارس رأسه بالرفض، فاتشح بالاستسلام ومشي مطاطي الرأس، يلوي رقبته للخلف ككلب أجرب، ومع استلامه التقارير اليومية من الحراس علم زنجو بهذا، فسأل:

- فيم يعمل ياقوت هذا؟

- في سن السكاكين.

- اجمعوا عنه كل المعلومات.

وفي نصف يوم قام أحد عمال الملهى بالمطلوب، وعرف زنجو أن ياقوت مدمن مخدرات ومغرم بالنساء، فبرقت عيناه وتبسّم، واصطحب معه حارسين وذهب لدكان سن السكاكين، فارتعد ياقوت وتأسف كثيرًا، فقد ظن أنه جاء ليعاقبه على جرأته في طلب المكيّفات بالدين، لكنه بهت حين قدم له زنجو طربة حشيش وقرش أفيون وصندوق بيرة وزجاجة جون ووكر، ثم تفحص المساحة الشاغرة في الدكان، فبدت تناسب ما يفكر فيه، ثم انصرف، ويذهل ياقوت، وكادت دقات قلبه تكسر ضلوعه، حين رآه عائدًا بصحبة عامل نجارة يحمل ألواح أبلكاش، ويصدر أمراً بحفر أرفف في الحائط لوضع التلفاز، ومن سطح البيت يأتي صوتُ عاملٍ ثان ويخبره أنه انتهى من تركيب الإريال، ويجيء ثالث بكنبة صالون جلدية ومنضدة ويضعهما قبالة التلفاز، والذي أذهل ياقوت؛ أنه رأى التلفاز من أحدث الموديلات، وكاد يغشى عليه حين رأى جهاز فيديو وأشرطة فيديو، وفي جدية أعطاه زنجو كاميرا تصوير فوتوغرافي ورمى بكلمات مقتضبة:

- ياقوت، أرأيت؟ هل أعجبك كل هذا؟ لكن يا صاحبي لا شيء وضع هنا بالمجان، اسمع، هذه كاميرا، سيعلمك واحد من عمالي كيف تستخدمها.

- لماذا؟

- من أجل مزاجك؟

- لماذا استخدم كاميرا؟

- للتصوير؟ وبالصور تسدد ديونك، ما رأيك؟

- تصوير ماذا؟

- اسمع، أنا أعلم عنك كل شيء، ستصور مومساتك السوقيات، وأماكن أثرية في المندرة، أنت من الآن مهمٌّ يا ياقوت.

- متى أبدأ؟

- ابدأ من الآن، بعد أن يعلمك العامل التصوير ستعرف منه الأماكن التي ستلتقط صورها.

- والمومسات؟

- صورهن جميعًا، أريد نسوة من طراز مطمور، تفهمني؟

- أفهمك يا سعادة البيه.

- والأماكن الأثرية؟

- ياقوت، لا تتعبني، صور أي آثار مبعثرة.

- وبكم أنا مدين لك؟

- لا عليك، أنت مدين وكفي.

ولم تسلم كل من سلمت جسدها لياقوت من عدسة الكاميرا، وبدقة مبالغ فيها كان يصور الأماكن الأثرية البِكر، وفي مواعيد متباعدة يأتيه العامل، ويأخذ الفيلم ويمده بغيره، ويخيب ظنه؛ لأن هذه المسألة كانت بطيئة، ومزاجه في حاجة مستمرة لتموين زنجو، فكان يضطر لشراء الحشيش المغشوش، وذات مرة فوجئ بزنجو يدخل عليه يحمل صورا، كالذي يشجعه ويستحثه على المزيد، ثم جلسا يدخنان الحشيش ويتجرعان البيرة ويتفحصان الصور، ويطلق زنجو ضحكة محشرجة:

- آه يا ابن الملعونة، أنت داهية.

- أتعلم منك يا سعادة البيه، هل أحتفظ بصورة؟

- ليس الآن، لكني أعدك بذلك.

- خدامك.

- آه لو أملك كاميرا الفيديو! أنت لا تجيد سن السكاكين بقدر ما أنت مصور محترف.

- خدامك يا سعادة البيه.

- استمر، فأمامنا الشتاء طويل.

وبهذه الطريقة دعّم زنجو اعتقاد ياقوت في كرم الله! فبتواجد أمثاله من الكرماء ما كان للناس جنة في الأرض، وكان زنجو يحتفظ بهذه الصور ويسلم

بعضها لجوزيف فريمان مقابل مبالغ كبيرة، وفي كل مرة يسأله عن سبب حاجته لها، وأنه يستطيع جلب هذه النسوة بدلا من الصور، لكن فريمان كان يجيبه ببسمة صفراء، ثم تحدث بالإنجليزية وكان العربي يترجم ما يقول:

- أنا شاذ كما يعتقد أمثالك، ولكن يمتعني أيضا رؤية نسوة عاريات حقيقيات لا مزيفات، وطبيعي أن يكون ذلك في أماكن غير معروفة بالبغاء، وكلما رأيت هذا تيقنت من وجهة نظري القائلة: إن كل البشر شواذ.

- ولماذا لا تقوم أنت بذلك؟

- أنا أفعل ذلك إذا تيسر الأمر، لا أخشى شيئًا أبدا، أنا جوزيف فريمان، أنت لا تعرف مع من تتحدث.

ومع الوقت وكلما تفحص زنجو الصور ورأى فيها أنثى أعجبته، أرسل أحد حراسه و ابتز صاحبة الصورة فيستعملها لنفسه ثم يجبرها على ممارسة الدعارة في فندقه وملهاه ويتربح هو، وكان يضحك منتصرًا ويرفع وجهه لأعلى ويشكر السماء مؤمنًا أنها منحته كنزًا لن ينضُب أبدا.

(٧)

في منتصف شارع النطرون، وبجوار بيت بديعة الموروث، يقبع بيت مساحته ثمانون مترًا، يعيش فيه (بهاء الرومي) وزوجته (بسيمة عثمان)، وبناتهما الثلاث، وابن وحيد هو (موسى) المغرم بالكتب بمختلف توجهاتها، وقد تنقل بهاء في أعمال إضافية ليسد عجزًا ماديًا؛ فراتبه من وظيفته الحكومية بالكاد يكفي خبزًا وغموسًا بلا لحم، وحين عرض نفسه على زنجو عينه حارسًا للضريح، فظهرت عليه أمارت نشاط وسعادة بسبب المال الغزير الذي يتقاضاه، وكان يعود قبيل الفجر تُشم منه رائحة الخمر والحشيش، فاعتقدت زوجته أنه تزوج بامرأة ثرية، وكثيرًا ما نشبت بينهما مشاحنات تعرضت فيها للإهانة والضرب، ويؤكد بصوت غليظ أنه يعمل في حراسة ضريح مسعود الحبشي، ويقبض المال من زنجو، وفي تلك الفترة كان موسى في الثانية عشرة من عمره، وكان يحزن لرؤية أبيه على هذا الحال، ويبكي من أجل أمه، ولأنه يحب القراءة؛ كان يشتري الكتب من مصروفه، ويعكف على قراءتها ويحاول نسيان التشاحن اليومي بين والديه، واشتهر بعشقه للقراءة بين أقرانه، وفي ليلة شتاء، ومع اقتراب الساعة من العاشرة، هبت ريح عنيفة، فتخبطت النوافذ والأبواب، وهطلت الأمطار ثقيلة الحبات كأنها برادة حديد خشنة تنحت الأرض، وفي تلك الأيام كان بيتهم طابقًا وحيدًا، ولأن سطحه بلا أسوار؛ كانت مياه الأمطار تنساب على الجدران، ثم تصطدم بنافذة الحجرة التي ينام بها موسى، وتتفتت رزازًا خفيفًا، يحمله الهواء من فراغات النافذة ويرتاح على وجهه، فيتقلب في فراشه ويحاول إكمال نومه، لكن برودة الرزاز وطرقعة المطر أرغمته على الاستيقاظ، ولما همّ بفتح النافذة؛ تراجع حين سمع هبوب الريح العنيف، فاستكان حتى هدأت الريح، وتراءى لسمعه وقع نفرٍ يتسكعون

مخمورين، فطل بوجهه فرأى أجسادهم تتمايل، وتغمغم أفواههم بأصوات مخاطية:

- شتاء حقير.

يطلقون ضحكات ساخرة من الرعد والبرق والصقيع والمطر، ويقعدون في الطين، ويؤكدون أن الخمر لم ولن يهدهم، فأجسادهم فولاذية الأعصاب وحديدية العظام وسميكة الجلود، ويموجون في سيل عارم من الضحكات الهستيرية، وتشاجر اثنان منهم لأن أحدَهم رفض تكملة السهرة بملهى زنجو؛ فشرعا يمزقان ملبسيهما، ثم سقطا يتمرغان في الوحل، واندمج ضحكهما في بكائهما، ولما خارت قواهما تصالحا، ومشيا يتمتمان أنهما سيقضيان سهرة الغد معًا، انتبه موسى على حركة أبيه في الصالة، فانتقل في خفة، وتلصّص عليه من فتحة صغيرة في باب دورة المياه، وكان يحلق شعر لحيته وإبطيه، ويشذب شاربه الرفيع، وفي المرآة تملى بعينيه الضيقتين في وجهه الأسمر بخديه المجوَّفين، ثم صفف شعره الأجعد، وأمعن في حاجبيه الكثيفين، وفمه الصغير، وذقنه المدببة، ثم تعطر بكولونيا الليمون، وانتقل لحجرة نومه، وارتدى المعطف الجلدي القرمزي، والحذاء البني اللامع، ودثَّرَ عنقه بكوفية بنية، وغطى رأسه بطاقية سميكة الفرو، ثم خرج من البيت، وأحس موسى أمه ساهدة حزينة، فوقف في الظلام يترقبها، حتى سمع أنينها فأضاء المصباح.

- موسى؟

- مالك يا أمي؟ هل ذهب أبي لحراسة الضريح؟

- اذهب بعيدا عني.

عاد حجرته يتفكر، وألقى نظرة تأملية على كتبه، ثم أغلق النافذة وارتمى على الفراش، وكلما راوده النوم عانده التفكر في المشاحنات اليومية بين أبويه، فقرأ في واحد من كتبه؛ ليقتحم عوالم سحرية تروع عقله، وتقبض على حسه، فينسى الواقع، ويصدق الصفحات، ويرسم السطور في ذاته، لكن أمام ذهنه

المشتّت، فشلت القراءة أن تنسيه أمه الأَرِقة، وكي يكشف السر الذي يدميها، قرَّرَ الذهاب لمنطقة الملهى والضريح؛ فربما كان أبوه صادقا فيعود ويطمئنها، واتخذ من جدروشرفات البيوت حماية من المطر، وكانت الحفر الصغيرة بشارع النطرون مُلئت بالمياه، وتعكس ضوء لمبات الأعمدة الكهربائية، فتبدو مرايا برتقالية وهاجة، اقشعروأطلق لقدميه العنان، وكلما تزحلق؛ عاد فأكمل السعي حتى بلغ المزلقان الذي يعلن عن نهاية الشارع من الجهة البحْرية، فتروّى ينزله حتى بلغ سَفْحَه، الذي على جانبيه تتبعثرأحجار فرعونية متباينة الأحجام ومهمَلة منذ أمدٍ بعيد، فمر بهدوء من شَرمٍ في السور المحاذي لقضبان القطار، ثم أسرع، ولم تشغله أضواء الملهى، ولا الموسيقى الصاخبة الصادرة عنه، ولا النسوة اللائي أفقدتهن الخمر العقل والحس بالبرد، فكن شبه عاريات يضحكن برقاعة ويترنّحن، ووقف أمام الأرض المقابلة للملهى يتفكر، ثم مشى فيها بضع خطوات، ثم أوقفته ظلمة حالكة، فأحس دقات قلبه تنهك خلايا جسده الصغير، وتذكر عيني أمه الحزينة، فتجاهل الخوف، وقرر الذهاب للضريح، ويرسل البرق بنوره الفضي فيلمح مدقًّا رمليًّا، فسار مُتأنيًا، ورفع وجهه لأعلى فاستبصر السماء كفوّهةٍ مظلمةٍ تشده نحو المجهول الأبدي، فانكب وجهه أرضًا، وإذ يوجه بصره للأمام اصطدم بأحجار هائلة، يتفرق بعضها في كومات هرمية معتمة، ويتشتت كثيرها كتلالٍ حادة الأضلاع، فوقف مأخوذًا ولاهثًا وحيرانَ، لكنه تذكر ما قرأه عن هذه الأحجار فهي مزيجٌ من آثار سحيقة، قيل إن الأرض لفظتها حين ضرب المندرة زلزال قوي في مطلع القرن العشرين، فأصر على المضي، حتى وصل عند ضريح مسعود الحبشي، ورأى في الظلام الأزرق أربعة أسوار عالية، حجرية صلدة، دار حولها فلم ير أباه، فتنهد يتفكر، ثم استدار ليعود، ثم توقّف، فقد التقطت عينُه شعاعَ ضوء أحمر، رفيعًا يخترق سقف الضريح نحو السماء، وبينما يحاول العثور على دقات قلبه، تذوقت أنفه رائحةً ذكرته بالملهى، فانقبض صدره وفكر جديًّا أن يعود، لكن فضول المعرفة سحب قدميه نحو الضريح وفتح بابه الخشبي، وفي ضوء البرق

العظيم رأى والده يقف كالحارس الأمين، ولأن الأمر خطيرٌ كان الرجل من شدة يقظته منتبهاً ليعرف تفاصيل جسد ابنه فشهق على الفور، ونطق بصوت مذبذَب:

- موسى؟

رعدت السماء واصطدمت سحبها السوداء فاشتد الهزيم والبرق، ومن بشاعة الهول الذي استشعره قادمًا؛ رفع موسى وجهه للسماء كأنه يناجيها الرحمة فأحسها تحبس غضبًا يتلوى، ويتقطع غيظاً؛ ويئن مذلولًا كي يؤذن له فينطلق نحو الأرض لينزع روحها، وبضربة مخلب يدمّرها تدميرا، ثم يمسك بأجساد ساكنيها وينفخ فيهم روح الخلد، ثم يلقيهم عرايا في غياهب الذل والخنوع، ويصب عليهم القطران ويسقيهم عذاب الهُون.

وضع يده على فمه كأنه يصدُّ صرخة موت، فالآن بالتحديد تتسرب أخطر الدقائق في حياته، فجحظت عيناه في جَوْفِ الضريح، فرأى قبرًا أصفر القبة، وعلى جدران الضريح تتراصُّ كشافات صغيرة وضعت بزوايا موجهة، تصب أنوارَها الملونة فتفرش الأرض بألوانٍ ضوئيةٍ ناعمة، وتتنقل عيناه في الموجودين بالداخل، فرأى رجالًا، بعضهم عارٍ ومُمَدَّدٌ أرضًا، في وضع مَشين كأفاعي برصاء، وآخرين يتجرعون الخمر ويدخنون الحشيش ويتعاطون الكوكاكين، وغيرهم يتفحصون صورًا ويتمايلون ضاحكين، فتبخر عقل بهاء وانقض عليه الغضب، فأسقط ابنه أرضًا ثم أخذ يركله ويزعق:

- يا ابن الكلب، ما الذي جعلك تأتي هنا؟

ويجيء أحد الشواذ، يتحسس رأس موسى وينهى أباه بلسانٍ ثقيلٍ ولغةٍ فرنسية، فيدفعه بعيداً، فيأتي ثانٍ يأمره بلغة عربية فصحى أن ما يفعله في الطفل لا علاقة له بالإنسانية، ثم أتى ثالث وسحب موسى لجوف الضريح، وتصطدم نقاط الضوء بوجه موسى فتزركشه، فيشعر بروحه تنحصر في عنقه، ويبدأ الشاذ الفرنسي في عرضه على أقرانه، فيمرر أظفاره اللينة على شفتيه، وبينما يزحفون نحو الولد، كانت حدقتا أبيه تمدَّدتا وانتفض قلبه وثار حقده على كل شيءٍ، ويدور

شريط حياته في رأسه فيتذكر أيام الجوع القديمة، والسنين التي مرت في انتظار تحقيق وعود الحكومة برفع أجور الموظَّفين، وأن شعوره بالخدعة في الوطن دفعه للموافقة على هذا العمل الدنيء، فتسخط عيناه وهم يتفحصون الولد كبضاعة متعة، دفعته الأبوة لاستخراج مطواته الحادة وغرسها في عنق أحدهم، فانفجر الدم ولطخ وجوههم، وشد ابنه وخبّأه خلفه، وأشهر سلاحه يتحداهم، ولما صرخوا؛ زعق فيهم:

- من سيتحرك منكم سأمزقه إِرَبًا.

تكوموا ينظرون للدماء يتباكون، ويشعر موسى أنه في أعماق كابوس مميت لكنه كتم بكاءه، ويشده أبوه ويهرول نحو البيت مباشرة، فأدخله وأسرع عائداً إلى الملهى وشرح لصاحبه ما وقع، ولأن زنجو معتادٌ على رؤية القتل منذ صباه في حي الباطنية، لم ينزعج كثيرا، كما أن إدارة الملهى وتجارة الحشيش منعتاه من رد الفعل السريع، ومكنتاه من معالجة هذه المواقف ببرود أعصاب، وإذا ما تعقد الأمر فليس ثمة مشكلة، طالما يتدثر برفيعي المستوى، من أجل هذا طلب منه ألا يخاف، وينبهر بهاء حين يسمعه يقهقه قائلا:

- ذبحتَ شاذًا بجوار مسعود الحبشي، هل تدري شيئًا يا بهاء؟، سيطهره مسعود من نجاسته قبل أن يحاسبه الله.

وبصوته الأجش أمر أربعةً من رجاله، وانتقى منهم قديرًا في اللغو الفلسفي، وأمره بإنهاء الأمر قبل شقشقة الصباح، وحين ذهبوا بصحبة بهاء، كان الشواذ بحالتهم، وفي جدلية عقيمة، تفلسف المُكلّف؛ أن تلك الكارثة سببها تهور القتيل، فكيف يفعل ذلك مع ابن حارسهم الأمين، فذلك الأمر غير جائز، وتلك أمور في بلادنا غير حميدة نسبياً، وبنود الحرية في عقيدة الناس هنا محدودة، وفجر الحضارة لم يجيء هنا بعد، فيزيح بزخارفه العقيدة المستوطنة في جيناتهم، ثم لمعت أسنانُه وهو يبتسم ليطمئن بهاء الرومي، وبينما يرتدون ملابسهم، كان رجال زنجو حفروا قبرًا داخل الضريح، وفيه دُفن القتيل وملابسه، وبعد عودتهم للملهى،

قابلهم زنجو يُهدئ روعهم ويدعي الأسى، وطلب منهم المكوثَ في الفندق لحين عودتهم بلادهم، فأومؤوا موافقين، وفي البيت كان موسى يرتعش ويسعل ويتقيَّأُ، وكلما سألته أمه: ماذا حدث؟؛ علا صراخه حتى بُحَّ صوته، ونظفته وغيّرت ملابسه الطينية، وأعدت له مشروبًا دافئًا، ودثرته جيدا، وظلت جواره تنظر لوجهه الأصفر حتى نام، وحين عاد بهاء، وقبل أن تسأله، صفعها وزعق يتهمها بالإهمال، وكيف تسهو عن ولدها العابث، وبعد يومين استرد موسى عافيته، وقبل ذهابه للمدرسة أخبرها بما رآه في الضريح، فأدركت سر مال زوجها وسخاءه في الصرف، وحديثه عن إنشاء سور لسطح البيت، فاقتنعت وسكتت، وارتضت بالحياة معه، وبعد أن اطمأن زنجو أن الشواذ أصبحوا على متن الطائرة في طريقهم لواشنطن، أجرى اتصالًا بمسؤولٍ أمنيّ في وزارة السياحة، بشأن اختفاء أحد السائحين منذ فترة، وبعد عملية البحث الدقيقة علم أنه غادر البلاد، واعتَقَد أن الأمر انتهى، ولا يعلم أن هؤلاء الشواذ؛ كانوا قد التقوا بأحد الفنادق في لندن، بغرض الحصول على عضوية المحفل الماسوني، لكنهم لم يقبلوا بدعوى أنهم شذوذ، وهذا ما أثار عجبهم وسخريتهم وسخطهم في آن واحد، فتصاحبوا وتنقلوا في الأرض لأجل المتعة، اثنان منهم من شمالي أوربا و يعملان في خارجية بلديهما، وفرنسي تاجر أسلحة، وسبعة ينتمون لعائلات موزعة بين أمريكا الشمالية و إنجلترا والجنوب الأوربي، وهي عائلات على درجة عالية من الثراء والسلطان، ومليونير عربي على صلة قرابة بسياسي بلاده، وأما الأخير فهو الخطر المدمر، إنه الذي لملمهم، وخلّق منهم حزمةً شاذةً لا لها مثيل في الكرة الأرضية، وهو الذي ييسر تنقلهم في العالم، إنه (جوزيف فريمان)؛ الأمريكي ذو العنق الأَرْقَط، والوجه القوقازي، واللسان المشقوق الطرف، والشعر النحاسي والعين المنطفئة، وهو من أحفاد عائلة فريمان، المهيمنة على نسبة كبيرة من تجارة الذهب وتصنيع السلاح في الولايات المتحدة الأمريكية و إنجلترا ودول أوربية، وتتدخل في القرار السياسي لنفس الدول، عن طريق التهديد المختبئ خلف ستارة الاقتصاد العالمي، وهي العائلة التي تُشيع الفوضى في الأرض؛

وأن العالم في طريقه ليصطدم بإعصار مجاعات، وحتى تنشط تجارة أسلحتها بشكلٍ فعّال ومستمر ومربح، يقوم مشايخها بعقد صفقاتٍ بين عصابات الدول الواقعة في الشريط الأرضي الرابط بين الأمريكتين، والمتحزبين دينيًا في الشرق الأوسط، كما أنها تشارك ميدانيًّا في القتل والتدمير، وتخليق الخلل الاجتماعي والأيديولوجي في أدنى وأبعد المناطق في شرق الأرض، وهي عائلة فريدة من نوعها؛ فهي مَن تعلن عن نفسها، وهي أيضًا من تنكر نفسها،

وبهذا استطاعت أن تغرس ازدواجًا فوضويًّا بفلسفة الدماغ الفردي والجمعي في شعوب الدول المسماة بالعالم الثالث.

ولم يعبأ بهاء بجريمته، ولا برد فعلها البشع الذي سيقع في حياته ومن يعول، وكان يخشى أن يمنعه زنجو عن العمل، ويحرمه من الراتب ونفحات المخدرات اليومية، لكنه منحه عملًا جديدًا، هو توضيب السهرات في قصره المطل على النهر، وتلبية رغبات الحضور، لحين معاودة نشاطه في الضريح، ويمر الزمن على هذا الحال، ومما يكتسب؛ يغدق في الصرف على الطعام والملابس، وجهز ابنته الكبرى للزواج وغيّر مقتنيات البيت واشترى التلفاز، وأحضر التليفون الأرضي، وأنشأ طابقًا ثانيًا للبيت، وحين حدث زوجته عن شراء بيت آخر أو بناء طابقٍ ثالث سعدت بذلك كثيراً، لأنها ظنت أن في ذلك تأمينًا لحياة أبنائها؛ وفي نوبة عنجهية تحدث عن علاقته بزنجو، الرجل المُهم في المندرة والبلاد بأسرها، وكان فخوراً وهو يخبرها عن عمله الليلي في قصره، فأومأت بلا مبالاة، حتى لا تسهو فتخبره أن موسى حكى لها ما حدث قديما، وماذا سيفعل لو علم أنها تتبعته لتتأكد أنه بريء من علاقة نسائية أخرى، فلم تبالِ بما يفعله طالما أن عيشتها رغدة، وطالما أنه يعود سالمًا بعد خدمة زنجو، ولكنها في بعض الأحيان كانت تنقبض خوفاً مما سيحدث لو قُتل أو قُبض عليه، فما يزال لديها ابنتان لم تتزوجا، وفضيحة كهذه تؤثر كثيرا في هذا الشأن، ولم يهتم أحدٌ بموسى، بل كان أبوه ناقمًا عليه، فكلما نظر لعينيه، تذكر جريمته في الضريح وآمن أنه سببها الأوحد، والعارف بسر إجرامه، وتبكي

زوجته وبناته وهن يشاهدنه يعنّفه ويعلقه في جدار البيت ويجلده:
- يا كلب، لولم تجئ الضريح ما حدث شيء.

ويتألم موسى، وينتحب ويصرخ بصوت مذبذب:

- أرجوك يا أبي لا تضربني، أقسم إني أحبك، لم أفعل شيئًا.
ونسي هذا الأب ما حفرته ذاكرة ولده من شذوذ وقتل في ضريح مسعود الحبشي، ومن شدة غلّه؛ كان يمزق كتبه ومجلداته، وأحيانا يسكب عليها خمرًا ويحرقها، وأمام النيران يقف موسى مكسوًّا بالجنون الباكي، ويهمس مرارة:
- ماذا أفعل؟

(٨)

وكتم سر أبيه ولم يبادله الكراهية، ومر عليه الزمن عاكفا على كتب يشتريها وأخرى يشحذها، حتى بلغ من العمر السادسة عشرة، وهو ذو قلب رحيم ونفس كريمة، وكذا فهو مرحٌ وخفيف الظل والقدّ، وأحبه أقرانه لسماحة وجهه، فيفرحون في المرات النادرة التي يشاركهم كرة القدم، وكان يسيطر على اللعب، وتنبلج عن قدميه ورأسه براعة تجبر الجميع على مشاهدته وتشجيعه، ثم يغيب عنهم شهورًا، فعشقه الأوحد؛ قراءة الكتب، وكثيرا ما أثنى عليه أمين مكتبة المدرسة، وقد احتوت دماغه ثقافاتٍ متعددةً ومتشعبةً ومطاطيةً، ولما اطلع على تاريخ المندرة وعقد مقارنات بين كتب الدين والتاريخ، اكتشف أن مسعود الحبشي المدفون في الضريح واحد من أحد حاخامات اليهود القدامى، وكان حذرًا في إفشاء معلوماته حتى لا يذمه المؤمنون ببركات مسعود الحبشي الوهمية، وذات مرة حين كان بمكتبة المندرة العامة، حيث يقيم مثقفوها صالونًا أدبيا، سمع أحدهم يلقن الحضور درسًا عن طهارة وقدسية وصوفية مسعود الحبشي العالم المُسلم الصوفي الرباني، وأن الدولة آثمة لأنها أوقفت الاحتفال بمولده، فاحتج عليه بشدة، لكنه فوجئ بأكثرية الحضور يتواطؤون ضد منطقه ومعلوماته، فالتزم السكوت، على أمل أن يعثر على من يصدقه يوما ما، وكان يظن أن بعضهم قد يعايره لو افتضح سر أبيه، لكن المفاجأة طبقت لسانه، حين انزوى به بائع كتب ومثقف مشهور بالمندرة:

- موسى، علمت من موظف السياحة أن أباك تطوع منذ زمن لحراسة هذا الضريح الطاهر، حرام عليك ما تقوله في حق سيدنا مسعود الحبشي.

- أستغفر الله.

ولم يكن بالكئيب المنعزل أو النرجسي المتكبر، وقد أنقذته قراءاته من الغرق في الدمار النفسي، وعاونته البلاغة الفلسفية التي التقط خيوطها من تأملاته في

صفحات الكتب أن يغض الطرف عن تعنف أبيه وطريقة اكتسابه المادي من أجل إطعام آل بيته، طالما أنه لا يملك غير راتبٍ ضعيف من وظيفته الحكومية، وجلب اعتقادًا مؤقتًا أن أباه قد يترك خدمة زنجو حين تلوح أمامه فرصة عمل شريف، ومن ثم تحولت دموعه لتحسّر صامت وإشفاق نحو أبيه، ولكن المال الغزير الذي يتحصل عليه بهاء أنساه فقره القديم، وجمّدت الخمر دماغه ونسي جريمته في الضريح، ويسيطر الضيق عليه حين يجد ولده توغّل في شراء الكتب وتَمَحُّصها كالذي يبحث عن أسرار الكون، واشتد حَنَقه عليه حين سمعه يكرر أقوال المعارضين للرئيس واستهزاءهم من خطبه عن التنمية والاهتمام بالبنية التحتية، والسعي الدؤوب لنيل رضا الولايات المتحدة الأمريكية والالتزام الدائم بمعاهدة كامب ديفيد التي أقرها سلفه، وينهاه عن الخوض في ذلك، والكف عن التكلم في شأن مجلس الشعب و انتخاباته الوشيكة، ثم قطع عنه مصروفه اليومي، فاكتفى بالصمت والاستدانة من أجل الكتب، وحين علم بهاء أن ابنه مدينٌ بالمال اتخذ من ذلك ذريعة لتعذيبه، فعاد من عمله الحكومي وقت الضحى، وركله بقدمه وصفعه على وجهه وزعق:

- أنا بهاء الرومي، يحترمني القوم، فضحتني و أنت في صفك الأول الثانوي، ماذا ستفعل بي حين تدخل الجامعة، لن تعيش في بيتي بعد الآن.

وتترجاه زوجته و ابنتاه بالكف عن تعذيبه، و أنه لا ينبغي عليه طرده في هذه الأيام؛ فالمندرة محتقنة بانتخابات مجلس الشعب، فخيرهن بين طردهن وتركه في البيت، فامتثل موسى، وخرج هائما في الشوارع والميادين الواسعة والحارات الضيقة، يشاهد السرادقات تقام ليخطب مرشحو المجلس، فيسمع من مؤيدي كل مرشح كلمات تنم عن الإصرار التام لنجاح مرشحهم ولو بالقتل، ولما غربت الشمس وقرصه الجوع عاد، وكان أبوه بالمرصاد، عبّأ كثيرا من الكتب في جوال وألقاه بوجهه، وأمره أن يرميها في النهر ثم يعود، يئن موسى ويشيح بوجهه بعيدًا، وخوفًا على أمه وأختيه، فخضع و اقفا أمام البيت، وعندما تغلغل ظلام الليل ورفض بهاء

توسلات ابنه المتجلد من البرد والجوع أمام الباب، دمعت عيناه وأسند رأسه على جوال الكتب فنعس، ومع ذلك لم يرحمه، وانهال عليه ضرباً، وعلا صوته بالسباب، وكلما حاول الابن احتضان أبيه وتهدئته، ركله في بطنه، ولما وقع أرضًا، قذفه بالجوال فتبعثرت الكتب، واهتاج أكثر، وانقض على الكتب يمزقها كالذي يتخلص من ذنب عظيم، وقبل أن يأتي عليها جميعا، أخذ منها موسى مجلدا وسعى يبكي، وظل يلهث ويهرول حتى بلغ ملعب عبد الأمين الشيوعي؛ وفي منتصفه تسمر حائراً وآسفاً، فقد أدرك الآن أن أباه مجرمٌ بفطرته، وأنه لن يتراجع عن تعذيبه، ولن يرتد على عاقبيه فيمتنع عن عمله الفاجر تحت إمرة زنجو، فلم يدرِ بنفسه وهو يصرخ ويبكي، ولما انتهى، سمع أزيز هيلوكبتر، وأحس بوحش يُحلق في السماء الدنيا، يهز زفيره كتل الغيوم ليغربلها فتنهمر حبات مطر ثقيلة وسوداء، وانتابته ارتعاشه شديدة وأنهك البرد قوته فوقع منه الكتاب، فمد ذراعيه وانحنى بكامل جسمه ليرفعه عن الطين، ويقترب منه الأزيز حتى أحس بالهيلوكبتر فوق رأسه، ثم جاءته ضربة عنيفة في ظهره، وكأن خنجرًا صدئًا غُرس فيه، فركع على ركبتيه ثم انكب على وجهه، وفي التو سمع طرقعة مكتومة أسفل عموده الفقري، يسري صداها المؤلم في أعصابه، ومع اختفاء الأزيز، تراءى لسمعه جلبة بعيدة ولغط وصياح وعراك وأصوات أعيرة نارية، فجال بخاطره هيئة الناخبين وصراخهم، فحرك يديه نحو ظهره ليعرف ماذا ضربه، فلمست أنامله حواف شديدة الصلابة، وبينما يعتدل انجرف من على ظهره مُجسمٌ لامعٌ، مكعب حجري قطره خمسين سنتيمترًا، ورغم أن الطين غمره كان يرسل بريقا، كأنه بحد ذاته عدسةٌ مكعبة ما خلقت إلا لتعكس نوراً، وحين استعاد وقفته الأولى سمع طرقعة أشد من سابقتها في فقراته القطنية وزاد ألمه، فانتظر حتى أقلعت السماء وهدأ الوجع، ووضع الكتاب المبتل فوق الحجر الثقيل، وحملهما وسار حتى طرف الملعب، وقعد حتى هدأ المطر وبزغ نور البدر الفضي، فتعجب لأن الحجر انقبض وأظلم، كأنه لا يحب القمر، أو يكره أن يشاركه شيء في التواجد النوراني، فمسحه بيديه وتأمله، ورأى

نقوشاً كالتي حدثته عنها كتب التاريخ، فعاند الألم وأصر على العودة بالكتاب وبالحجر، وفي شقشقة الصباح كان يسير على إسفلت شارع النطرون: منكبَّ الوجه، وغير عابئ بفوضى الانتخابات الرهيبة التي حدثت، وكانت أمه تقف أمام البيت متلهفة، وبصوت خفيض مهموم حدثته أن قلبها ينبئها بفضيحة كبرى.

- لم يا أمي؟

أخبرته أن أباه لم يعد حتى الآن، فإما قتل في عراك الانتخابات أو قبض عليه لجريمته القديمة، ولما لمعت دموعها احتضنها، فهمست:

- أخاف يا موسى.

ورفعت وجهها للسماء تدعو ربها الستر، فنظر للدموع المتساقطة من طرفي خديها المنقبضين ولاحظ أوردة عنقها تنبض، وأدرك ما تعنيه الأم الآسفة على حظها من الدنيا، فوضع الحجر والكتاب أرضاً، وبحنان بالغ أمسك كتفيها وأجلسها على عتبة البيت فانفجرت باكية.

- أخشى يا بني.

- ممّ يا أمي؟

- أنت لا تعرف يا بني.

- لا أعرف ماذا؟

- في أول أيام شتاء هذا العام ترك أبوك العمل في قصر زنجو وعاد لحراسة الضريح.

ابتلع ريقه وتنهد، ثم قبّل رأسها، ونظر لعينيها الباكيتين مليًا، وكي يمنعها من رؤية أسفه عليها أومأ أرضاً، ثم تركها جالسة ومشي، تنظر (بسيمة) ولدها فتحسه يتكور حول ذاته القلقة، يقاوم الألم ويسير مكبوب الرأس، وترى مشيته ثقيلة فتتأكد أن به علة توجعه، أو كأن أعصابه سُلخت من عظامه، فتحزن وهو يتلاشى في الأفق البعيد، ويغتم قلبها كالتي تستشعر أنها ستودع ابنها للأبد؛ فتحايلت على هواجسها فتنهدت تزفرها، وحين مسح نور الصباح وجهها الخائف، ترفقت بنفسها

واصطنعت التلطف، إنها ترى البائعات آتيات بخطوات رشيقة من جانبي الشارع وفوهات الحارات الرفيعة المتصلة به، وظهرن كاللائي لا علاقة لهن بالسياسة ومجلس الشعب، يحملن الطسوت المكتظة بالأعشاب والخضروات الطازجة، وأجولة الغلال وأواني الجبن القريش، وكن يتكلمن ويضحكن، وتتدلى خصلات شعورهن الناعمة من تحت أغطية رؤوسهن، وتعتلي خدودهن حمرة تثبت بالقطع أنهن يغلبن وعورة الحياة بقلوب صافية، وكان طبيعياً أن تنسكب من وجوههن المشرقة بسمات وبشرى في الحصول على رزق وفير، وإذ يساعدن بعضهن، كن يتمايلن ويتهامسن عن غرامياتٍ دافئة حدثت بينهن وأزواجهن في الليل المدبِر، فتتبعثر من أفواههن ضحكات مشبعة بالرضا والسعادة، فتمنت أن لو كانت إحداهن، وكان موسى يمشي مرتجفا ومتألما من أثر ضربة الحجر العنيفة، وعبر بمحاذاة الملهى، وكادت عيناه تُخلع وهو يتفحص الواقفين، يفتش عن أبيه أو قد يعرفه أحد العاملين في الملهى فيطمئنه، وحين ترك الإسفلت وانحرف في الممرّ الممهد بين الأحجار الأثرية، اصطدم بكومة رجال أشداء يتقدمون نحوه، ويحمل اثنان منهم رجلًا عاريًا ويتقاطر الدم من عنقه، ويمسك الباقون بأسلحتهم النارية في تأهب تام للدفاع عن زنجو الذي يتوسطهم، ويأمرهم بالحذر.

(٩)

الأمريكي جوزيف؛ سليل عائلة فريمان، هو الذي ذبحه بهاء الرومي منذ أربع سنوات، ودفن جوار مسعود الحبشي، وكان جوزيف حلقة الوصل التي جمعت الشواذ في لندن عاصمة انجلترا، فلما نما لعلمهم أن شذوذهم هو العثرة القوية في الحصول على الماسونية، بحثوا كثيرًا عمن يكسر هذه العقبة حتى التقوا به، فطمأنهم أنه سيكون وسيطًا لحل هذه العقدة، وحدثهم عن عائلته المكينة والآمرة والناهية في شوون الاقتصاد والسياسة في العالم، وبعد قتله في المندرة، وحين ارتفعت الطائرة المتوجهة لواشنطن، وخوفًا من عائلته؛ سحقوه من ذاكرتهم، وكأنهم لم يروه قط، ومن واشنطن تبعثروا في العالم، وعبر الهواتف طمأنوا أهاليهم أنهم بخير ويتنزهون، و أنساهم جموحهم الدوني فداحةَ الكارثة المفزعة التي حدثت بالمندرة، فحين تهب توابعها ستعصف باليابس والأخضر وتفتك بالحي والميت، وعاشوا يتنقلون في الدنيا يمارس كل واحد فيهم حياته كسائح ثري وذي سلطان دبلوماسي، ومنهم الفرنسي جون ماكسيم، الذي ينتسب لبقايا طبقة النبلاء المنعزلة برغبتها في أرقى أحياء باريس، ويفتخر لكون جده البعيد هو الكونت بواتيه ماكسيم، وكلما حط في دولة سأل فيها عن حي أو فندق راقي يحمل اسم ماكسيم، وحين يعثر يشطح غروره ويهتز ردفاه مثل لِيَّةِ خروف شديدة السمنة، وهو لا يعرف أن ماكسيم المقصود كان أحد قادة الثورة التي أطاحت بجده المزعوم، ويملك أبوه آلاف الأفدنة ومصانع أسلحة في قارة إفريقيا، وحين بلغ جون التاسعة عشرة ملّكَه أبوه مصنعين لإنتاج السلاح، يقعان بالقرب من قرية صغيرة في أدغال دولة إفريقيا الوسطى، ووصل هناك في العشرين من عمره، وكان أول ما فعل أنه أصدر أمرا بتهجير سكان القرية، وكان ذلك بعد رؤيته أحد شبابها يصلي بالقرب من أحد المصنعين، فوقف معتدا بنفسه وهو يرى المسلمين يتركون بيوتهم المعدمة

ويودعون أرضهم و دموعهم تروي التراب، وكانت عقيدته آنذاك تطهير أملاكه من المتشدّدين أيدلوجيا، وقد مات أغلب النازحين جوعا وعطشا وقتلا، ويدير المصنعين عدد من الفرنسيين الزنوج، وكان يصدر منتجاته من السلاح لمدبري الانقلابات العسكرية في دول افريقية وأمريكا الجنوبية، والمتشرذمين في السودان والصومال و اليمن وحزب الله اللبناني، وساعده في هذا، الذين صادفهم من قرناء الشذوذ بشتى أنواعه، ثم أخذ بنصيحة أبيه فخزّن معظم إنتاجه من الأسلحة المرتفعة الثمن بغابات إفريقيا الوسطى، ويقتصر البيع مؤقتا على الأسلحة الخفيفة كالمسدسات والبنادق والقنابل اليدوية، على أن يكون للفرق المنشقة عن الحكام في الدول الإسلامية والمطالبين بالاستقلال عن تبعية التاج البريطاني، وقد انحرف عن طبيعته الذكورية في مطلع مراهقته؛ وكان مسوّغه أنه لا يملك القدرة الصحية على الممارسة بشكلها الطبيعي، ولم يمنعه ذووه من هذا، إنما تظاهروا بتجاهل الأمر طالما أن شخص ابنهما لم يهتز على المستوى الفكري والإداري لأعمال العائلة، وكان من السهل عليه أن ير افق ذكرًا يبادله هذا الانحراف، لكنه وكلما أوقع ذَكَرًا، ليكون له صاحب، ما ينفك إلا ويستاء منه ويهجره، وكان ذلك يحزنه حد الكآبة، وحين زار المندرة لأول مرة، كان في الر ابعة والعشرين من العمر، وهو طويل عريض ممتلئ الجسم، جليدي البشرة، صنع من شعره الكستنائي ضفيرتين تتدليان على عنقه فيتصلان بشعر صدره الكث، ومن فرط توتره الداخلي تبدو جبينه مشدودة ومنطفئة دائما، وتغطي رموشه الطويلة عينيه الزرقاوين الضيقتين فيُرى كمن خلق أعمى، ومنخاره الأرجو اني مخنوقُ الفتحتين وطويل ومدبب كالمنقار المعقوف، إنه طويل الذراعين وصغير الكفّين، ومن كثرة التدخين تعكس أظفاره صُفرة مقززة، ورجلاه فارعتان تحملان ردفين سمينين يهتزان بوضوح حين يتملكه الغضب، وكالأجرب المصاب بالتينيا التي لا خلاص منها، فإنه حين يخلع ملابسه يظهر جسده بالكامل مليئًا بالنمش الطحيني، وتشمُّ منه ر ائحة دهنية مُنفرة، ورغم ثر ائه الكبير يرتدي ملابس رخيصة، وبعد اطلاعه على مبادئ

الماسونية، قرر الانضمام لها بعيدًا عن فرنسا، فقطع عدة رحلات للندن حتى تمكن من معرفة الفنادق التي ينزل بها ماسونيون شواذ، ورغم ندرة هذا النوع منهم في ذلك الزمن، إلا إنه عثر على ثمرته المنشودة؛ (الأمريكي جوزيف فريمان)، وكان في الخامسة والثلاثين، وطلب منه ألا يقلق فبمقدوره تذليل عقبة الشذوذ كي يحصل على عضوية المحفل، وكان له رفيقًا في إشباع حاجاته، وبطريقة بدت كصدفٍ متتابعة؛ عرّفه جوزيف فريمان على عشرة رجال ينتمون لفصيله الجنسي مع اختلاف قدراتهم، وبعد قتل جوزيف في المندرة، أخذ يتنقل في الفنادق الر اقية بعواصم العالم، يصيد فر ائسه المؤقتة مقابل حفنات مالية، وكان يبكي مقهورًا في الليل والنهار لفقدانه المتعة الدائمة والآمنة مع جوزيف، وفكر أن ير افقه أحد الكلاب المدربة بهذا الشأن، لكنه قرر شراء كلب صغير من سلالة نادرة وقوية ويقوم بتدريبه بنفسه، وبين الحين والآخر ولما تجتاحه الذاكرة القديمة، يصحب كلبه الصغير ويسافر متخفيًا إلى لندن لعله يعثر على رفيقٍ جديد، وهناك التقى بالعربي الذي كان معه في المندرة، وحظيا معا بليال ماجنة وكان يربط الكلب الصغير من عنقه بسلسلة فضية في أحد أركان الحجرة حتى يشاهدهما فيتعلم، وكان الكلب يعبّر عن نفوره، فيمدد رجليه ويدفن وجهه بينهما وينبح حزينًا كما الباكي، وعرف من العربي أن رفقاءهم القدامى يأتون هنا في بعض الأحيان، فلم ينقطع أملهم في الحصول على عضوية الماسونية، ولم يمض كثيرٌ من الوقت حتى أعادوا اتصالاتهم ببعض خاصة أن أحد الانجليز شغل منصبًا سياسيًا رفيعًا، وبمقدورهم استغلاله رسميا كي يجوبوا العالم ويستمتعون لأبعد حد، وكنوع من استعادة ذكرياتهم وسوست لهم أنفسهم بالعودة للمندرة كي يشتمّوا عبق الضريح المذهل، وتحدث الإنجليزي الرفيع الشأن عن مقدرته في تسخير أحد الموظفين في الخارجية المصرية كي يتمكنوا من الوصول للمندرة متخفين، و أكد أن رئيس مصر الحالي يهتم كثيرًا بالسياحة، ولأن رفيقهم العربي يجيد الفرنسية والإنجليزية ترجم لهم بعض خطب هذا الرئيس فتأكدوا من صحة ما يقال، وبالتالي فلا شيء

يخشونه طالما أن قيمة السائح الأجنبي في مصر أثمن من الذهب، وليس شرطًا في دخولهم مصر أن يكون لديهم واسطة أو رفيق أمريكي كجوزيف فريمان، لكن ومن باب الاحتياط استخدم الانجليزي صلاحيات منصبه، وأمن لهم الرحلة من لندن رأسا إلى المندرة، وكانوا سعداء حين أقلتهم الطائرة وتحدثوا عن استعادة ذكرياتهم وزيارة قبر فريمان، ولم ينس جون ماكسيم أن يصحب كلبه الحزين، وحين اقتربوا بالأتوبيس الفاخر الذي أقلهم من مطار القاهرة إلى المندرة، لاحظوا أن يافطات قماشية معلقة بعرض الطريق وسرادقات تقام على الجانبين، فأخبرهم العربي أن تلك دعاية لانتخابات مجلس شعب المصريين، ولما رأوا في مدخلها حراسًا أشداء يؤمنون الملهى والفندق، أدركوا صدق أحاديث رئيس مصر.

(١٠)

(زنجو)

ومع أول ليلة عادوا فيها، وبينما يستريحون في الفندق، أحضر صور النسوة التي التقطها ياقوت الأحمر وأخرى لأماكن أثرية في المندرة، ولما تعجبوا، أبلغهم أنه رجلٌ أصيلٌ، وقد فعل ما بوسعه لتوفير الصور المطلوبة طيلة أربعة سنوات خلت، و أنه كان ينتظرهم كل شتاء، ثم هز رأسه في أسى مدموج بالمكر وشرح أنه استاء كثيرا لما حدث لصاحبهم المدفون في الضريح، وكي لا يتكرر ذلك وفر حراسة مشددة، لكنها باهظة التكاليف، كما أنه ملتزم بمهاداة المسؤولين عن السياحة بهدايا قيمة، وبالغ في كلامه عن معرفته بثرائهم وسلطانهم وكل ما عليهم دفع الأجر اللازم للمتعة، وأخبرهم أن هذا الاحتفال الشتوي والمُقام في الضريح قد يتوّجه أحد المخضرمين في شؤون الحكم في الدولة، يؤمن بأحقية التمتع بالجسد أيا كانت الوسيلة في ذلك طالما أنه يقوم بعمله نحو الوطن، وإن ضمير الإنسانية لا يمنعه من بلوغ اللذة الجسدية فيسعد رعاياه كمسؤول كبير؛ ولما كان العربي مخمورًا وتوَّاقًا للمتعة استخرج عقدا ووقعه أمامه، وبهذا قد تنازل لزنجو عن عقار فندقيٍّ صغيرٍ بمدينة (برشتينا) عاصمة (كوسوفو)، وضيعة ترعى فيها الماشية والخيول في منطقة (جيلان) الو اقعة بالقرب من الحدود السويسرية والإيطالية وهمس في خلاعة:

- يا زنجو لك هذا الفندق في برشتينا، هل تعلم لماذا؟ حتى نجيئك هناك في الصيف، وتصبح أنت راعينا شتاءً وصيفًا.

فضحكوا جميعا، ثم قدم أحد الانجليز شيكًا خاليًا، كل ما على زنجو وضع المبلغ المطلوب، أما جون ماكسيم الفرنسي فقدم عشرة عقود عمل بمقتضاها يحضر زنجو عشرة عمال لمصنعيه في إفريقيا الوسطى، وحين ألحوا في الذهاب للضريح وإلقاء نظرة عليه أو التمشية في المندرة لبعض الوقت، طلب منهم الانتظار

حتى يؤمن لهم كل شيء، وأخذ منهم العقود والشيك، ولأنه محام قديم كان يسيرًا عليه أن يتأكد من صحة العقود، وفي اليوم التالي وزيادة في الحيطة بعث وكيلا عنه لكوسوفو فتأكد أن الأمر حقيقي، فقهقه كثيرا وقال:

- كنت على يقين أن الانحراف أصبح سيد العالم.

في التو أرسل إليه الأوراق المطلوبة ليتمكن من تثبيت ملكيته للعقار والضيعة وفق بنود القانون الكوسوفي، وفي لهجة آمرة متسرعة طلب من العربي أن يتصل بوكيله في إدارة العقار والضيعة ويخبره بالتنازل وتسهيل انتقال الملكية، ولم يرفض العربي، وكتب في الشيك الإنجليزي مبلغ مائة ألف جنيه استرليني وصرفه، وباع عقود ماكسيم لعشرة شباب في أقل من نصف نهار، وطلب منه تسهيل سفرهم وقد فعل، وبعد أيام من حضورهم، جاء بمصري شاذٍ وادعى أنه مسؤول رفيع ويود الانضمام لفرقتهم، فاستبشروا، ووفر جيشَ حراسه يقف أفراده على مسافات متباينة في مدخل المندرة، ويتوزع بعض منه بمحاذاة الأرض الزراعية المقابلة للملهى، واطمأن على تجهيز الضريح بالإضاءة ووسائل الترفيه اللازمة، ثم اصطحبهم، وحين رأوا أنه أحضر (بهاء الرومي)؛ تظاهروا بالاعتراض، فوضح أنه رجل أمين وقوي، وهو الوحيد الصالح لحراستهم في هذه البقعة الفريدة من الأرض، فأومؤوا متظاهرين بالرضا، وكنوع من الاطمئنان أكثر، سألوا عن السرادقات المقامة على مبعدة من مدخل المندرة واللوحات المعلقة بطول وعرض الطريق، فأخبرهم أن الدولة برمتها منشغلة بانتخابات مجلس الشعب، والمندرة ملئى بالسرادقات والصراعات في هذه الأيام من أجل هذه الانتخابات، واسترسل في شأن جماعة الإخوان وأمنياتهم في الحصول على مقاعد تحت قبة البرلمان، وأن البوليس المصري مشغول في البحث عن خلاياهم المختبئة، ويقهقه العربي ويقول:

- ألم أخبركم أن مصر دولة آمنة؟

ويسترسل زنجو:

- وهذا في مصلحتنا جميعًا، فكلما انشغل الشعب نلتم مبتغاكم، لم

أحضرت الكلب هنا يا مسيو ماكسيم؟

وبالفرنسية يجيبه:

- ربما كان له نفعٌ يوما ما.

وقد ارتأى زنجو أن بهاء الرومي هو أفضل حارس لهم على الإطلاق، فهو كالعملة النادرة، والعارف الأهم بالحشيش المخزن في ضريح مسعود الحبشي، وكذلك فإنه بجريمته القديمة وإدمانه للخمر وغرامه بالأفيون سقط عبدًا مسخرًا تحت إمرته، فلا داعي إذن لحارس غيره قد يقلب الوضع عليه ويسقط مجده الكبير، كل هذا؛ وهو لا يعلم أن آل فريمان الذين يتمركزون الآن في أقصى الغرب من الكرة الأرضية ويتشعبون كالأورام الخبيثة، ويفتتون ما يتصدى لطموحاتهم التليدة والأبدية، أنهم بعد أربع سنوات من قتل حفيدهم، أرسلوا جنودهم لأخذ رفاته والانتقام له، وتحقيق الهدف الأسمى من إطلاقه قديمًا، وهو إحداث زلزال سياسي عالمي، من اللازم أن تكون إحدى توابعه في أذهان البشر؛ أن آل فريمان لا وجود لهم إلا في سجلات ومخطوطات وهمية كتلك المسماة بأساطير الأولين، حتى إذا ما جاء آخر الزمان وبرزوا للحقيقة، كانوا الملائكة التي حملت الأرض على أجنحتها لتصد عنها الجحيم، ويأمرون القدر فينشئ لهم أرضاً غير تلك ويعيشون فيها أبديا؛ من أجل هذا؛ لم يملوا التخطيط والصبر والانتظار يترقبون عودة رفقاء حفيدهم للمندرة ثانيًا، وفي الوقت نفسه كثفوا من المؤمنين بأفكارهم وعقيدتهم في الشرق، ليدرّسوا قواعدهم المتينة في حرية البشر المطلقة من أجل الحصول على المتع المبتغاة من إشباع الرغبات، ومن يتحداهم في ذلك الفكر وتلك العقيدة وظفوا له جيشًا من فلاسفتهم المتوغلين في البناء السياسي للدولة التي هو منها، وينجحون في جعله كالخفاش المذموم، وساعدهم في ذلك رفقاؤهم في شتى بقاع الأرض لا سيما المتقربون لهم بحجة السلام والتنمية البشرية والاستقرار الإنساني العالمي، ولم يكن جوزيف فريمان شاذًا، إنما كان أنبوبة اختبار اصطنعت لغرض التجسس، وأراد أحد شيوخ عائلة فريمان استخدامه لنفسه، فالتف حولهم

وأطلقه سرًّا للحصول على معلومات بعينها لا سيما عن مدى الانفلات الأخلاقي في بعض البلدان، ومن ثم تنشط تجارة السلاح التي ارتأى أنها قد تتراجع أو تركد، لكن جوزيف قُتل في المندرة، وأبلغهم بذلك عربي من أعضاء المحفل الماسوني، وقد عرف ذلك من جاسوس كان يرقب جوزيف في لندن، ولما غاب مدة طويلة وانقطعت أخباره، وكلما رأى واحدًا من رفقائه سأله عن جوزيف فينكر معرفته به، ويزداد التفكر والقلق فلو كان محبوسًا في إحدى الدول لاستغاث بآله في الولايات المتحدة، ولما مر الزمن أيقنوا أنه قتل بالفعل، وقد ارتبك قادة هذه العائلة القوية، ووتّرهم غياب حفيدهم، واستخدموا شتى الطرق لمعرفة آخر مكان تواجد به، أو بالأحرى الأرض التي دفن فيها، فعرفوا أنه ضريح مسعود الحبشي بالمندرة، فصفعوا وجوههم ولطموا خدودهم، فأمر كهذا جنونيٌّ محض، فمسعود الحبشي من أهم أجدادهم على إطلاق التاريخ، وهذا ما لا يعرفه المصريون ولا غيرهم كما يعتقدون، وكيف فلت من قبضتهم تلقين جميع أحفادهم مثل تلك الأمور الخطرة، وصاروا يتساءلون:

- هل شذ حفيدنا حقا؟

كبتوا غضبهم، وكان سهلًا عليهم تدمير زنجو في طرفة عين، لكنهم تركوه لسبب كان وجيها، وهو أنه يعمل في خدمتهم دون دراية منه، فوظفوا جيشًا صغيرًا لمراقبة أصحاب جوزيف كل على حدة، أنى يطير وأين يحط، ويرسلون لكل واحد فيهم ملذاته على أمل أن يتكلم فيعرفون من قتل جوزيف فريمان ولم؟؛ لأنه من غير المعقول أن يقتل لسبب جنسي، فهذا مستحيل في عقيدة آل فريمان، فالقتل عندهم سببه الاسمي هو الأرض وبيع السلاح والحصول على الذهب، وإن كان زنجو الفاعل فهذا يسبب له خسارة مادية فادحة،

لا بد أن القاتل محاربٌ عظيم تخفى وسط رفقاء حفيدهم، أو جاسوس على درجة عالية من المهارة المطاطية، لكن كل محاولاتهم باءت بالفشل فلم يبدر من رفقاء جوزيف القدامى ما يثبت نظرية التجسس العالمي أو اعتراض على ما

يصنعونه في العالم، بل العكس هو الحاصل فجون ماكسيم الفرنسي صانع وتاجر أسلحة، والعربي منبوذ سياسيًّا في بلاده والباقون خدام شهوتهم، وكلما فشلوا في معرفة سر قتل حفيدهم؛ استشاط غلهم وغضبهم وباتوا بالمرصاد لهذا النفر جميعا، فصبروا سنين يرصدونهم إلى أن اتخذوا قرارًا بذبحهم جميعا في مكان قتل حفيدهم، وكان الحظ حليفهم فالدولة المصرية تتظاهر بالتوتر الداخلي بسبب انتخابات مجلس الشعب، فاستخدموا جواسيسهم المتخفين في مصر، وزرعوا بجدران الضريح أحدث الكاميرات الدقيقة، وعلى مسافة تمكنهم من الرؤية عبر شاشات مراقبة في سيارتين أعدتا لهذا الغرض، فيتم التصوير وتوثيق الفعل المشين المرفوض من شعوب هؤلاء المسؤولين، خاصة العربي المجهول بالنسبة لزنجو والمعروف لديهم أنه ثري على صلة قرابة بسياسي بلاده لكنه منبوذ لانحرافه الفاضح، كما أن الدبلوماسي الانجليزي يشغل منصبًا حساسًا، لكنهم لن يستخدموا هذه التسجيلات الآن، إن الذي يهمهم هو الانتقام ورفات حفيدهم، وحين ترك زنجو هؤلاء الرفقاء، ولما عبئ جوف الضريح بدخان الحشيش، وطرقعت أفواه زجاجات الخمر وتجرعوا منها واشتعل جنونهم واستثارتهم أنفسهم ووقع رجسُهم، وأثناء تصويرهم؛ وبينما تصب السماء مطرًا جبارا، وتتخبط الريح فتسلك ممرات ضيقة عبر خيوط المطر الغاضبة، وتتأوه كما الإعصار المختنق، ووقعت اشتباكات عنيفة في المندرة بسبب الانتخابات، وقد ارتبك البوليس فآثر سلامة ضباطه، وترك صغار العساكر يتظاهرون بالحراسة، وبرز جنود آل فريمان ذوي الملابس الداكنة القيمة، والأوجه الحادة، والأحذية اللامعة، وعلى حين غرة استخدموا الرشاشات في غربلة أجساد حراس زنجو المرصوصين في المدخل الجنوبي للمندرة، والموزعين في أحراش الأرض الزراعية، ولم ولن يلتفت أحد لهم، لأن مذبحة رهيبة تحدث في نفس الدقيقة، فمع أول رصاصة انطلقت من رشاشاتهم اجتاح الظن الخاطئ أربعة حشود انتخابية كانت تمتثل لاحترام ظاهري، فتملكتهم شجاعة إحقاق الحق بحسب عقيدة كل حشد، وتحركوا في سرعة

جنونية نحو الميادين والمداخل يصرخون باسم الله ومن سينتخبونه، واصطدم الجميع في مجزرة لم تشهدها المندرة منذ أزل قديم، أشهرتْ الأسلحة النارية والبيضاء وقنابل الملوتوف، ويزداد الاشتباك ضراوة كأنها حرب ضروسٌ ويثأر جنودها من لا شيء، وكلما تجز رقبة يتفجر البطش الدموي من المؤيدين لحامل لواء جماعة دينية ضد جميع الحشود فاستخدموا أقصى قوتهم، فمزقت الخناجر البطون، واخترقت الرصاصات الرؤوس، ودهست السيارات الأجساد، والآن بالضبط؛ كان جنود آل فريمان يمرون من أحراش الحقول المظلمة، و اقتحموا الضريح، وإذ يرون أصحاب جوزيف في فزع، تحدث أحدهم بالعامية المصرية، وأمر بهاء بذبحهم جميعا، ويستغيث بهاء ولا يغاث، فزنجو اختبأ، والمندرة في غيبوبة دموية، فاعتقدهم ضباط أمن، ولم يجد بديلا غير تنفيذ الأمر، وكان أول المقتولين الثري العربي، ثم استعر يطعنهم بمطو اته حتى تحولت أرض الضريح لبحيرة دماء.

- أين؟ ومن الذي قتله؟ ولماذا؟ ومن الذي دفنه؟

قالها أحدهم لبهاء، ثم سحب زجاجة خمر وملأ تجويفه الفموي ثم تفل بوجهه، ثم ركله بقدمه بين فخذيه وحين انحني يتأوه، أسعفه بضربه قوية في أنفه فسقط يخر دما، ووضع قدمه على عنقه، ثم أشعل سيجارًا فخمًا، وقال:

- أجِبني.

وحين أشار بهاء نحو قبر مسعود الحبشي، التفوا حول المقبرة يبكون ويتأسفون، ثم دفع الرجل بهاء بقدمه حتى بلغ القبر وقال:

- جوزيف فريمان؛ هنا؟

هز رأسه إيجابًا فطرقع الآخر بإصبعيه وحفرت الأرض واستخرج الرفات.

- إذن أنت قاتله؟

هز بهاء رأسه نفيا ورعبا.

- لم قتلته؟

- ابني؟

- ابنك هو القاتل، لم؟
- كان يريد ابني فقتله واحد منهم.
- أعرف أنك كذاب، لكن لا بأس، يعني قَتل لأنه أراد التمتع بابنك هنا عند سيدنا مسعود، سحقًا لربك.

وكان انتقامهم من بهاء، أنهم غرسوا إبرة في وريده السباتي، ثم ضربة عنيفة في مؤخرة رأسه فأغشى عليهم، ثم خلعوا الكاميرات الدقيقة وانصرفوا، وبينما يخرجون من المندرة، كانت عربات الأمن المركزي آتية للسيطرة على الثورة الدموية التي هبَّتْ في المندرة، ولما رأى زنجو جثث حراسه اعتقد أنهم قتلوا في مجزرة الانتخابات، وعبر الهاتف استغاث بشركة أمن خاصة، في التو أرسلتْ له حراسًا كثرًا، ومع اقتراب الفجر، ولما استشعر أن الوضع في المندرة بدأ في الهدوء، وقف عند باب الملهى ينتظر عودة بهاء والزوار، ولما تأخروا أخذ حرسه وذهب للضريح، وكان عليه وهو ينظر للجثث، ألا يصدق أن الذين قتلوهم أناس من الحشود الانتخابية التي اعتركت، فوقف يفتش في دماغه عن أفضل قاتل؛ فهو الفيلسوف الذي يبرهن بالدليل القاطع لكل الشكوك، وإيمانياته راسخة أن هذا الكون منذ البدء البعيد، لا سيما الأرض، ألقت السماء بذرتها في الفضاء فترعرعتْ واستدارتْ وانبعجتْ وهي تشرب من دماء البشر، وها هو أحد الدلائل أمامه؛ قطيع من الآثمين في حق السماء سحبهم شذوذهم لأن يذبحوا بعضهم، فتبسم معتقدًا أنهم حين عصفت بهم اللذة وسيطر عليهم ترف الشبق العنيف، حاولوا استدراج بهاء ليموج وإياهم، ولما رفض أخذوا مطواته وجزوا أعناق بعضهم، غير أن الذي حيره أنه لم يجد ملابسهم ولا متعلقاتهم فحام شكه في بهاء، لكن سرعان ما برأه حين وجده ممددا بجوار سورِ الضريح متورمَ الوجه، فعاد يقينه الأول، ثم تخبط يصرخ بتأوّهات غيظ لما رأى مطواة بهاء ملقاة بجانبه يكسوها دم لم يجف، فأمر بإحضارها ومقارنة أماكن جز العنق بسلاحها، وتشعب اعتقاده في أحد الأمرين؛ إما أنهم طلبوا من بهاء أن يذيقهم متعة رؤية الدم فذبحهم الواحد تلو الآخر، أو أنهم

أخذوا المطواة وقتلوا أنفسهم، المهم عنده والذي لا شك فيه أن بهاء لم يفعل ذلك برغبته، والذي يثبت ذلك أن أحدهم ما يزال على قيد الحياة وصدره يتنفس، إنه جون ماكسيم الفرنسي، إذن فهو منفذ الجريمة، وحين لاحظ أن الحفرة التي ردمت قديما كشفت بات لديه يقين أنهم قتلوا أنفسهم وتمتم:

- لا أحد يعلم بقصة المدفون هنا غيرهم.

ثم قهقه وهو يرى بهاء ينقلب على وجهه ويتأوّه، اقترب منه يحسم الأمر:

- بهاء؛ هل ذبحتهم مطواتك؟

وحين أومأ موافقا، انتهى الفكر بزنجو لما أراد أن يعتقده، أنهم حين شبعوا من الشذوذ دفعتهم فطرتهم الدنسة التي اصطنعوها لباسا لأجسادهم وهم في أرحام أمهاتهم للاستمتاع بالدم؛ وكانت المطواة أداة القتل.

- أين ملابسهم يا بهاء؟

- في الضريح.

عاد يقهقه وتزوغ عيناه في أوجه حراسه، ويسعل فتتطاير الكلمات مع مخاطه المطرود من صدره:

- رفضت روح مسعود الحبشي الساكنة في القبر أن يُترك لهم أثر، فابتلعت الأرض ملابسهم ومتعلقاتهم.

أمر حراسه بعدم دفنهم، فإن هذا واجب الحكومة، وتكلم عن كون هؤلاء سياح أبرياء، وسيعودون لبلادهم معزَّزين بالشرف، لا ملطّخين بالعار، لكنه كان ينظر للجثث وهو يفكر أنه ربما تجلت حقيقة خطرة في زمن قادم، فيكتشف أن اعتقاده كذبة كبرى، فقهقه وضغط على كلمات تندفع من فمه:

- ومتى انكشفت حقائق في هذا الكون الضائع؟ وإن يكن؛ فمن الأكيد أن ذلك سيحدث بعد أن أدفن في غياهب الظلام، وذلك لأني خلقت في غيبوبة الزمن وسأموت فيها.

وحين سمع جون ماكسيم يتأوه اقترب منه وهمس مغلولًا:

- أنت كنزي الأبدي، أين كلبك؟

وفي داخل الضريح كان الكلب مختبئا في جحر بالجدار ويئن خوفًا، فرفعه ونظر لعينيه ترمشان وقال:

- قبل أن أطلقك في المندرة يجب أن تأكل.

ثم غرس المطواة في عيني جون، واستخرجهما وأطعمهما إياه وتفكر قائلا:

- إلى هنا انتهت قصة الضريح معي لكني أحب الذكريات الحية، احملوا هذا الفرنسي وألقوه في بدروم الملهى وعالجوه ليعيش فسوف أحتاجه، و انشروا خبر قتل السياح علي يد مؤيدي المرشحين الأربعة.

ويقهقة بقوة وشماتة، ويرفع وجهه للسماء ورزاز الضحك يتطاير من فمه ويزعق:

- أخيرا خدمتني السياسة، فلولا المهووسون بمجلس الشعب ما حدثت مجزرتهم الشريفة، ورحت أنا في داهية.

ويضع قدمه على الضريح ويقرر:

- وإنها لمن أسعد الصدف في حياتي، يوم عرفتك يا مسعود.

أمر حراسه بحمل ماكسيم والتوجه نحو الملهى، ولم يستطع بهاء النهوض فتركه، وحين اقتربوا من الملهى رآهم موسى، ودفعه أحد الحراس لتوسعة الطريق، وفي مكتبه اتصل زنجو بوزارة السياحة، وأخبرهم أن الحشود الانتخابية أحدثت مجزرة في المندرة، وقتلت السياح و أتلفت زينة المدينة التي تبرع بها للدولة؛ فأبلغوه أسفهم لأن الجنون السياسي دفع الناس لقتل أبرياء، وقد علم رئيس البلاد بما يجرى، وهو الآن في التلفاز يخطب.

وأدار التلفاز فإذا بالرئيس يقول:

- إن الدولة تبذل المساعي لحفظ أمن المنطقة، وإن حادث المندرة أمر شاذ علينا وعلى أبناء شعبنا.

وبعث زنجو أسماء المقتولين لرجال الأمن، فأرسلت السيارات لحملهم، وعلى وجه السرعة ومن المطار سافرت كل جثة لموطنها مع برقية اعتذار، ويهب الصحافيون في أوربا والولايات المتحدة يبدعون في طرح المانشتات والمقالات عن تراخي أجهزة الأمن المصرية في حماية الأبرياء، وبالضرورة تتبعها بعض الصحف المصرية وتشير بحزم، أنه لا بد من وضع الحلول الجذرية من قبل الدولة للقضاء على التحزب الديني والمتدخل في الشأن السياسي، والذي من شأنه زعزعة الأمن العام، وتقليص الاقتصاد، أما زنجو فقد تأسفت له وزارتا السياحة والآثار واستعطفتاه قبول تعويضاتهما، وإعادة تصليح ما تلف من إنشاءاته القديمة حول الأماكن الأثرية في المندرة، حتى تظل المدينة برونقها وسحرها البديع، وتبعثر رجال البوليس يقبضون على كل من اشتبك في معركة الانتخابات، وبدأ استجواب كل من قبض عليه حول قتل الأجانب، وعرضت الاستجوابات خلال الصحف المحلية والعالمية وشاشات التلفاز إرضاءً للرأي العام العالمي.

(١١)

حين وصل موسى عند الضريح كان أبوه مكومًا، فتجاهل ألم عموده الفقري وقعد قبالته.

- ماذا بك يا أبي؟

- ما الذي أحضرك؟

ويمنع الغثيان بهاء من الوقوف، فوضع يده مرغمًا على كتف ولده ومشيا، تزوغ عيناه في مقلتيها، ويشعر بدوار ورغبة شديدة في القيء، ويحس موسى بوقع خفيف وراءهما، فيلوي عنقه للخلف فيرى كلبًا صغيرا أسود الفروة، وكلما هشه ليبتعد هز ذيله مستعطفًا وتبعهما حتى شارع النطرون، ورأتهم بسيمة فشكرت ربها، ولما دخلوا البيت، وقف الكلب يزوم حزينًا، فخرج موسى إليه، وكان الحجر يلمع على استحياء في الظل والكتاب جواره، فحملهما وأدخل الكلب، وصعد به إلى السطح، وربطه في زاوية يملأها الظل طيلة النهار ولا يطولها المطر، وقدم له خبزًا وماءً، وحك الكلب رأسه في رجل موسى، وبدوره تحسس عنقه ونزل، وتحت فراشه وضع الحجر بين الكتب، وظل أبوه نائمًا أكثر من عشرين ساعة، وكلما أيقظته بسيمة يطلب ماء، فلاحظت أن وجهه شديد الصفرة، وعينيه حمراوان، وجفنيه زرقاوان، ولما سألته: ماذا بك؟، أجابها بلا شيء، وحين استطاع الذهاب للملهى، أبلغه زنجو أنه سيدير حسابات الفندق؛ لأن العمل في الضريح معلقٌ حاليا، وحين سأله عن وجهه المتورم وصدره المحشرج، أخبره أنه مصاب بنزلة برد شعبية، وكنوع من التهديد أعاد سؤاله عمن قتل الشواذ.

- اقتحم الضريح رجال أقوياء وقتلوهم، وأعتقد أنهم بوليس.

- أشك.

وأصبح عمل بهاء عنده علنيًا، ولم تقلق بسيمة لهذا، فقد أذيع خبر إغلاق الضريح لحين إشعار آخر، ودعمت الدولة شرطة السياحة بمزيد من الضباط، وعاد الرئيس يخطب في الشعب عن قيمة السياحة في ظل احترام حياة البشر مع اختلاف الأديان، و ظهر ملهى وفندق زنجو في التلفاز كمعلم سياحي مشرف في المندرة، ولم يهتم أحد بالقصة التي يحكيها موسى، وهي أن حجرا سقط عليه من السماء وأصابه في عموده الفقري، واعتبره الأهل كذابًا، وصدقوا أنفسهم حين اختلقوا قصة أخرى، وهي أنه لما طرده أبوه جرى مشعوفا، فتزحلق على المزلقان وسقط على واحد من الأحجار المكومة عند سفحه وأصيب في عظامه، وهيأ له الألم الشديد تلك القصة؛ واعتقدت بسيمة أنه سيشفى مع الوقت، لكنه كلما ذهب للملعب قعد عاجزًا، فعموده الفقري يوجعه بقسوة والغثيان لا يفارقه، ويسأله أصحابه فيحكي قصته مع الحجر، فيخرون ضحكا، ويجزم أحدهم أنه رآه ليلة مجزرة الانتخابات، وكان يهتف باسم مرشح الحزب الوطني، فانقض عليه مؤيدو جماعة الإخوان وأهلكوه ركلًا بالأقدام، ويستشهد قائلا:

- يا موسى ألم يكن في يدك كتابٌ ضخمٌ في تلك الليلة؟ تذكر يا صديقي.

ويبكي كالأطفال وفي طيبة متناهية يهمس:

- صدقوني لا أكذب.

- وهل تسقط الأحجار من السماء؟ اتق الله في عقولنا يا موسى.

ويتركوه وحيدا مع أوجاعه وآهاته المكبوتة ودموعه الحيرى، وبينما ينظر لأقدام أصحابه النشطة في لعب الكرة، تخبطه الذاكرة بأحداث الضريح، وجريمة أبيه ور ائحة الخمر التي تسكن بيتهم، فينتحب ويتساءل:

- من ذا يصدقني؟

وبتكرار حكاية الحجر؛ هجره أصحابه نهائيا، فقد ظنوه ملموسًا يخرف، ويمر الزمن عليه ويفقد كثيرا من ثباته وقدرته على تحمل الألم، ويقعد على أطراف الشوارع ونواصي الحارات، ويضع وجهه بين ركبتيه، وحين يستبد به ألم عموده

الفقري يذهب لمستشفى المندرة فيحقنوه بالمسكن، وسرعان ما تعاوده الآلام المبرحة، وأهمل دراسته التي كان بارعا فيها، وإذ يسأله المدرسون في مدرسته الثانوية أسئلة تافهة، يكتفي بالصمت حتى عرف بالمنزوي، إن وفاءه لأمه بسيمة عثمان كان سببا كافيا لأن يكتم آلامه عنها.

- مالك يا موسى؟
- لا شيء يا أمي.
- ماذا ستفعل بمستقبلك؟
- الله سيفعل.

ورغم علم المرأة أن ابنها صادقٌ، فضلت مشاهدته يهيم باحثًا عمن يصدقه، وكانت تخشى أن ينفجر، ويقص كل شيء على الناس فيفتضح أمر زوجها وتدمر حياة بناتها، لكنها لا تعلم أن لا أحد يصدق موسى، فكلما مر الزمن يرسخ في اعتقاد كثيرين أن الكتب أصابته بالعبط، ومسه سحرها بالعته، فلقبوه بالمثقف المعتوه، وهو الذي لم يترك كتبه قط، وعمد إلى إجادة الانجليزية والفرنسية بمفرده ونجح، وكما اللص المحترف، ارتقب وتفحص بو ابات القصور المهجورة على ضفة النهر، واستطاع فتحها الواحدة تلو الأخرى، فكان يفتش عن مخطوطات بهاتين اللغتين، وعثر على مجلدات بالغة القدم، وفي بَهو أحد القصور كان يحضر ليلا، ويضيء شمعة ويجلس بصحبة الكلب الذي سماه (برنس)، وعرف من كتب التاريخ الفرنسي الحديث، أن (لويس السادس عشر) كان رجلا رحيما، وأن المحرك الأصيل لثورة الفرنسيين ضده، هم البورجوازيون، لا الفقراء والبؤساء كما أرخت كتب أخرى، وتتوالى التجليّات التاريخية في دماغه؛ فقد عثر على مجلد فرنسي؛ يقر أن من ضمن البورجوازيين شباب ثائر ينتمي لفئة عرفت باليعاقبة، وهم يهود، وقد اندسوا مسبقًا في صفوف المعدمين الفرنسيين ليستحثوهم على خلع الملك لويس السادس عشر، دقق مليًّا في شعار هذه الثورة وشعار أحرار العالم فأحس بالسفه

المطلق، لأنه وبتطابق الشعارين أدرك أن المصدر واحد، إنها (الحركة الماسونية) في الأرض، وثار شغفه؛ ليعرف منبع هذا الفكر وما الحرية المبتغاة؟، فمن ذا يثور؟ وضد من؟، ولم؟، فاكتشف صنفًا وحيدًا من البشر يشعرون باليتم والذل أنى راحوا، إنهم يهود أوربا، فهم الذين احتكروا غالبية السلاح الحديث آنذاك، وسيطروا على المال الفرنسي، وخططوا لإيقاع فاقة عامة في الدولة، فيثور الشعب، وعليه ينال الجميع الحرية، ويصير الكل إخوانا، ويُنسف نهائيا أي خلاف إيدولوجيا، في الوقت الذي ينفذون بنود عقيدتهم، ويستثمرون الشعوب على المدى البعيد، والذي فتك برأسه؛ أنه فتش حتى أدميت عيناه عن ثورة أخرى حدثت قبلها أو بعدها وحملت نفس مبادئها فلم يجد غير هبّات شعبية، وانتفاضات ضد غزاة وجيوش محتلة، لا علاقة لهما بالخبز والإخاء والمساواة، أما عن ثورتي البريطانيين والبلاشفة، فجاءتا بنفس الفكر والأهداف، فضحك حد الثمالة، ثم حسم أمر دماغه، فبعد عديد من مطالعاته أخرج فقها يخصه: "إنه ما من قلقلة وقعت في أرض بعينها وكان سببها نيل الحرية والطعام وتحقيق مساواة عرف بالإخاء الإنساني إلا وسرها ماسوني"، وبعد أن أنهى كل المجلدات في هذه القصور، ولأنه لم يعد يملك مالا، كان يذهب لبائعي التوابل، ويتوسل إليهم ألا يمزقوا الكتب ويعبؤوا توابلهم في أوراقها، وكانوا يسخرون، وعرفه الجميع بملابسه المهلهلة ومِشيته المذبذبة، ورأسه المائلة يمينا، والمجلدات الضخمة التي يحملها تارة بين يديه، أو في جوال يجره، والطريقة الصارمة التي يقلب بها أكوام الزبالة ليعثر على فتات خبز وقطع عظمية ويعبئها في كيس قماشي متّسخ، ويتهلل فرحانَ حين يعثر على أمعاء دجاجة، ويعود مبتهجًا لكلبه، فيطعمه بما جمع، ويجلس جواره في حالة من الشبع والرضا، ورغم استهزاء الناس به؛ كانوا حين أرادوا حكما في معلومة أحضروه، فيفصل بمقدرة فذة بينهم ويعترفون:

- صدق موسى.

ويمشي مسكينا دون مقابل ولو كلمة شكر، ولم يعد أبوه كسابق عهده، فلما قسره الوَهَن؛ عاش صامتا مع زجاجة الخمر وسيجارة الحشيش، وتدهور بصره وسمعه، وأحاله زنجو للتقاعد لغيابه المتكرر، فقعد على سطح بيته لا يهتم بشيء مطلقًا، وباتت جيوبه خالية من المال، بعد أن صرف كل مدخراته على الأطباء ليشخصوا حالته، ويعرفون سر مرضه الجامع بين كآبة حادة، وتساقط شعرٍ، ونزلات برد حادة، وضغط مرتفع، ونشران عظام، وشعور باليأس، وعلى الدوام تجيء نتائج التحاليل الطبية بأنه خال من مرضٍ محدد، أما زوجته فقد باعت كل المقتنيات الحديثة التي أحضرها إبان عمله عند زنجو، حتى ملابسه باعتها لتشتري دواءً، ومع الوقت بدأت نفس الأعراض تعتريها، وتتسرب في بطء لابنتيها، وحتى الابنة الكبرى؛ بعد تكرار زيارتها لبيت أبيها، أصيبت بنفس الأعراض، فطلقها زوجها، وطردها بطفلتها الرضيعة، واكتظ البيت بالمرضي، وعُرف سكانه بالوبائيين، وماتت الرضيعة، ونفرهم الجيران، وانقطع عنهم الأقارب نهائيًّا، وكان الناجي الوحيد من تلك الأعراض هو موسى، وحين تطل بسيمة على شارع النطرون؛ ترى في الوجوه شفقة ومعاتبة، ولا تملك غير بسمة واهنة، إن امرأة وحيدة في المندرة التي كانت تدق باب بيتها، وهي باهرة الجمال، وباسمة الثغر، وطيبة الروح والقلب، وذات الكرم الفريد، وإحدى فلتات تلك السنين، إنها (بديعة رستم)، وكانت تصحب الصبي (سليمان) عبد المنتقم، وتحمل معها زادًا وتدق الباب، وحين تفتحه بسيمة، تتذكرها بديعة في الزمن الغابر، حين كانت توصيها بحماية بيتها الموروث من عبث الصبيان، فتتأذى كثيرا حين تراها على هذه الهيئة.

- مالك يا بسيمة؟

- الحمد لله.

- ماذا يقول الأطباء فيكم؟

- يحتارون.

- أين موسى؟

- يقرأ على السطح.

- رأيته عند ياقوت، لا تدعيه يذهب هناك أبدًا.

- طيب.

- هل تخلى عنكم صاحب الملهى؟

- نعم.

- حسبي الله، طيب متى آخر مرة زرتم المستشفى؟

- قالوا لنا، علاجكم في أمريكا.

- أمريكا؟

- نعم.

- اشتريت لموسى ملابس جديدة، وأحضرت لك عسلًا أبيض خذي منه دواء.

- حاضر.

- خلي موسى يذهب لنصر الله فيحلق شعره ولا يسير هكذا كالمجذوب.

- طيب.

تنظر لرأس بسيمة وقد صار أصلعَ وتخبئه بخرقة، ولا تصدق عيناها وهي تري الضمور أهلك أصابعها، وتضاءل ثدياها حتى كادا يختفيا، وبرزت عظام صدرها، فتنساب دموع بديعة وينظرها (سليمان) عبد المنتقم ويسأل:

- لم تبكين؟

- (سليمان)، أنت وكيلي أمام الله يوم البعث يا بني، ستشهد عليّ.

- فيم؟

- يومها ستذكر.

وتترك لها الأوعية المملوءة بالطعام والعسل، وحين يهم (سليمان) بدخول البيت تزجره، فترى الدموع تسيل على خدي بسيمة، فتعتذر لها كثيرا:

- أنا آسفة يا بسيمة والله لا أقصد لكني...

- خفت على الصبي أن تطوله العدوى.

- سيشفيكم الله.

وتمشي بديعة، وعلى ناصية الحارة تقف حزينة على الحياة ومأساة البشر وتقلبات السنين، وتستفيق على صوت (سليمان):

- هل أذهب للعب؟

- انتظريا (سليمان) حتى ترى موسى، وقدم له هذا الجنيه وقل له أن يدفعه لنصر الله أجر حلاقته و إياك أن يعرف نصر الله شيء.

- أنت طيبة.

وتتبسم المرأة الجميلة وتمسح دموعها وتهمس وهي عائدة لبيتها:

- الآن قد بدأت شهادتك يا (سليمان)، والله يسمعها.

ويرحم زملاء بهاء في الوظيفة الحكومية العائلة المريضة، فيقومون بالعمل بدلا عنه، ويتوسلون لمدير المؤسسة ألا يبلغ الجهات المختصة عن غيابه المتكرر، وكانوا يرسلون راتبه الشهري لزوجته، فتتسلمه بدموع ممزوجة بألم وفرحة، لكن هذا لم يستمر، فأثناء زيارة تفتيشية، كاد رئيس المصلحة أن يتعرض للمساءلة القانونية، فاجتمع بالموظفين، و انتهى الأمر إلى أفضل حل، وهو إحالة بهاء للمعاش المبكر، وعلى الرغم من عبقرتيه الفذة، فُصل موسى من المدرسة لرسوبه المتكرر، فقد بلغ العشرين من العمروما يزال في صفه الأول الثانوي، ومنعه مرض عظامه من العمل في أي حرفة ليعول عائلته الموبوءة، وكان يخجل أن يطالب أمه بأية نقود، وفي بعض الأحيان كانت بديعة ترسل (سليمان) بمفرده يحمل طعامًا وعسلًا لبيت عائلة الرومي، حتى اتخذه موسى صديقا، وعشق (سليمان) خفة ظله، وروحه الرقراقة، وطريقته الساخرة في الحديث، وكان ينظر له دائما بعين الصدق والرحمة، وبينما يتجولان في الشوارع بصحبة الكلب برنس، سأله عن سبب إمالة رأسه نحو اليمين.

- حتى لا يحملها عمودي.

- عمودك؟

- الفقري.

وحين سأله عن سر آلام عظامه:

- تعقّل يا (سليمان)، لن تصدقني وسأخسر صداقتك.

- موسى! أترا ني مجنونا مثل الناس؟

- آه منك، هل أكملت العشر سنوات يا ولد؟

- نعم.

- أشك يا ابن عبد المنتقم.

- والله أنا ابن عشرة.

ولما حكى أنه منذ زمن بعيد، سقط عليه حجر من السماء وأصابه، ربّت على كتفه وهمس:

- أصدقك يا موسى.

- (سليمان)، هل صحيح أنك تصدقني؟

- نعم يا موسى، والله أنت صادق.

فيبكي بحرقة، ويتأسف على حاله، ويبتلع ريقه كما الحنظل، ثم يمسح دموعه في قميصه المتسخ، ويسكت.

- ماذا يا موسى؟

- هل تنتقم لي يوما يا (سليمان)؟

- أعدك، لكن اضحك الآن، معي ثلاثة أرغفة وقطعة جبن، وزجاجة ماء مثلجة، فماذا تعني لنا الحياة غير ذلك.

- من أين يا ولد؟ أعرف أنكم شحاذون، وأمك خدامة ومريضة ومفلسة.

- من عند خالتي بديعة رستم.

- هذه المرأة طيبة.

- وجميلة.

- هيا يا ابن عبد المنتقم.

ويضحكان بغزارة وهما يسيران في قيلولة شديدة القيظ، ووراءهما برنس الذي أصبح شابًا عفيًا، ويستقرون بمنتصف ملعب عبد الأمين الشيوعي، ويقف موسى واعظا:

- (سليمان).

- لبيك.

- منذ الآن و أنا أستاذك فأصغ السمع وتأدب.

وعلّم موسى (سليمان) كثيرا مما نقشته ذاكرته الحديدية، ورغم صغر سنه؛ كان (سليمان) حكيما، يملك قوة استيعاب هائلة وقدرة رصينة في تسلم المعلومات، وكان موسى أمينًا في نقل العلوم الصحيحة والمدققة تدقيقا بالغًا، وقص عليه ما رآه في الضريح، وغرس فيه حقيقة مسعود الحبشي، وشيئًا عن تاريخ الماسونية وعلاقتها بالشعوب.

- (سليمان)، أمك الغبية تخدم زنجو.

- لا تشتم أمي.

- اسمعني، وكثف تركيزك، أن تخدم دلال عبد القاهر ديلم هذا الزنجو فإن ذلك نتيجة حتمية للثورة.

- أي ثورة؟

- الانفتاح البورجوازي.

- إذن؟

- لنربط بين الانفتاح والثورة الفرنسية.

- اربط.

- الانفتاح ثورة، أليس كذلك؟

- هكذا علمتَنِي.

- ولما كان مصطلح ثورة يعقبه نتائج، فكلا الأمرين واحد.

- بمعنى؟

- النتيجة الأولى في فرنسا غير بعيدة عن نتيجة الانفتاح السبعيني؛ لأن العرش الفرنسي الحديث يهتم في ظاهره بالإنسان، وعليه فالكل حر، وكان هذا مطلب البورجوازيين اليعاقبة، وعندنا ملهى زنجو أحد نتائج ثورة الانفتاح، أفهمت؟

- هل تقصد أن زنجو يعقوبي؟

- لا، لقد تخطى حواجز الثورة لأبعد ما يكون، بدليل أن أبي الذي كان موظفا حكوميا خَدَمَه، وأمك المريضة ستموت تحت أقدام مريديه يوما ما، تلك هي الثورة يا (سليمان)، لا بد وأن تكسر الحدود العقائدية، وهذا لأن أناسًا يريدون دخول التاريخ.

- ثم بعد؟

- دموع.

وتعددت أماكن إلقاء المحاضرات، ما بين ضفة النهر وملعب عبد الأمين وبالقرب من صناديق الزبالة، حيث كانا يجمعان طعام برنس الذي أحب (سليمان) حبًّا سيدوم زمناً طويلاً، وكلف موسى (سليمان) بجمع أعقاب السجائر وتخزينها له، حتى يستمتع بتدخينها وهو يلقي عليه المحاضرات، واختار (سليمان) أفضل رقعة لتنفيذ هذا الأمر، قمامات ملهى زنجو، كان ينتقي منها ما يعجبه ويقدمه لموسى فيشعلها ويتلذذ بمرارتها ويقول:

- الأشياء لا تؤخذ بخواصها أبدا.

- ما هذا؟

- غبي.

- رويدك علي.

- أنت تقول إن الشمس حارة.

- نعم.

- خطأ.

- إذن الشمس باردة.

- هل جُننت يا (سليمان)؟

- ماذا إذن؟

- هل الشمس تعلم أنها حارة؟

- لا.

- وهل تعرف الشمس ماذا تفعل؟

- لا.

- الشمس تنفذ ما تُؤمر به.

- فهمت.

- هكذا كل الأشياء.

- تمام.

- أما نحن فمختلفون، وينبغي علينا أن نفهم هذا عن الأشياء، تفهمني طبعا يا ولد؟

- طبعا.

- وعلى ذلك، فإنه وللأسف، أكثر من نصف البشر في الأرض، تبلغ نشوتهم درجتها القصوى، وذلك حين ينفرد الواحد منهم بمساحة مربعة لا تتعدى مساحة جسده، ويتنهد بأريحية وهو يتذكر كيف أنه كان الدعامة الأولى في تدمير سر حياته، ومع ذلك يستمر في التدمير.

- للأسف.

وكان يتكلم في سرعة مراعيًا النطق السليم للأحرف وضبط الكلمات، وأخبره أنه ومنذ أكثر من مائتي سنة، كان القائم بأعمال الحاكم في المندرة رجلا اسمه الحقيقي (عبد الأمين فتح الباب الأعظم)، وقد تغير اسمه بعد موته، حين أصدر سلطان المسلمين وقتئذ فرمانا بتفتيش داره، ولما عثر على أدلة دامغة عن إيمانياته بيزيد، وطاووس ملك، والجيلاني، وهيرودس أكريبا، وهم الذين آمنوا ودعوا أن

الوجود سجن كبير والخلائق بجميعها صلبت فيه، أصدر السلطان فرمانا آخر بدق داره الواسعة وتدميرها ونسفها من فوق الأرض، بل وخسفها نهائيًا، ومن ثم استدقت الأرض فوق الدار وتحولت لملعب، ويجيء فرمان أخير بتأريخ حقيقته في مجلد حمل اسم الشيوعي، وكان هذا الأمر يعد جرسة مدوية. ثم يبتلع دخان عقب السيجارة:

- هل عرفت لماذا يُسمى الملعب بهذا الاسم؟

- نعم، وأزيدك يا موسى.

- زدني يا فالح.

يبتسم (سليمان) وهو يشد جبينه الصغير، ويرفع حاجبه الأيسر وسبابته اليمين، وينطق باستحكام قدير:

- عرفتُ لماذا هو ملعب؟

يقترب موسى منه، ويتفحص جبينه وعينيه، ويكاد يبكي فرحًا بحكمته الفذة، وعبقريته الفريدة، ثم يغضب فجأة:

- (سليمان)، لا تكن غبيًا.

- لست غبيًا يا موسى.

- أنت لا تسألني أبدا عن مصدر معلوماتي.

- أليس رأسك هو مصدر المعلومات؟

- رأسي هو الذاكرة، خذ هذا.

وأعطاه مجلدًا ضخمًا متسخ الواجهة ولزج الأطراف:

- هذا من تأليفي، هيا اقرأ.

ويقرأ (سليمان) مجلده الذي يحذر فيه من التفاف فلسفة النفس حول الأنا، فيسأل:

- ما الأنا؟

- سأكون رحيما بك، ولا أتفذلك.

وبينما يقرمشان الخبز، ويتحسسان فروة الكلب، شرح له كيف أن النفس تحب من يلتف عليها ويخنقها، عندئذ تقع حرب طاحنة بين الجسد والرغبة، ولا بد أن ينتصر أحدهما، وفي جدية شديدة، أخبره أن مؤلفه الضخم يحتوي على معلومات إن خرجت للعلن ستعلق المشانق وتجهز المقاصل من أجله، وستكتب عنه كل الصحف في العالم، وتتهمه بالكفر والعربدة والرجعية والتطرف وتزييف التاريخ والخيانة.

- فهّمني يا موسى.

أخبره أن عبد الأمين الشيوعي ارتاحت نفسه قديما لإيمانيات ظاهرها التقى، غير أن باطنها التمتع بالرغبة، خاصة اعتلاء عرش الأرض.

- وما علاقة عرش الأرض بالرغبة؟

- اخرس واستمع.

- لا تصرخ في وجهي.

- آسف.

وفي صوت لين تكسوه المصداقية شرح أن الهيمنة الإنسانية على العالم التي آمن لها عبد الأمين الشيوعي، ليس شرطا أن تكون بالجسد، فالجسد يبلى والروح خالدة، ولما كان منه ذلك، ولأنه كان أهل ثقة، ارتاح القائمون على حكم المندرة في أيامه لمطلبه بترك الجد (مانو) في المندرة.

- هل تعرف مانو تاجر منتجات الألبان؟

- طبعا، الجبن التي أكلناها من عنده.

- من عنده أم من عند بديعة رستم؟

- موسى، لا تتعبني؟ خالتي بديعة اشترتها من عنده، ماذا بك؟

- آسف.

- ما علينا.

- وأظن أن المعبد القابع في النواحي البعيدة من المندرة والذي أغلق في الستينيات من القرن العشرين، ما هو إلا أحد أذرع مانو.

- لم؟

- لأن مانو يحب مسعود الحبشي، في الوقت الذي لا يزور ضريحه، إنما يزور المعبد.

- و أين هذا المعبد؟

- أنت أغبى تلميذ عرفته في حياتي، ألم أقل لك في النواحي البعيدة من المندرة.

- في أي ناحية تقصد؟

- في صحراء إكنار.

- لكن صحراء إكنار بعيدة.

- لا تتعبني يا (سليمان)، قلت نواحي بعيدة.

- طيب.

- وتأكد أن الذي سرق كليتك وسيط بين هذا وذاك.

- كيف؟

- هذا ما ستعرفه أنت.

وفي أيام الحر الشديد، أو حين تهطل السماء مطرًا عارمًا، كانت بديعة رستم تطلب من (سليمان) أن يذهب بطعام الغداء لولدها نصر الله في دكان الحلاقة، فكان ينادي موسى ويقعدان أمام الدكان في محاضرة فلسفية، وكان نصر الله ينظر إليهما ويستمع في إنصات وكاد يصاحبهما لولا خوفه أن يرفضاه أو ينكمشان منه، فكان يخرج لهما بالطعام وفي خجل شديد يطلب منهما أن يشاركاه، ولما عرفتْ بديعة ذلك، كانت تزود وجبة الغداء التي غالبا ما تكونت من دجاج وخبز وأرز وفاكهة وأحيانا تضيف إليها حلوى البقلاوة أو صينية بسبوسة، وأمام الدكان وفي شمس العصر الحنونة يلتف الثلاثة حول الطعام، وتعكس مرآة الدكان القديمة

وجوههم وهم يتناولونه في سعادة، ويجلس الكلبُ برنس جوارهم بانتظار نصيبه، وحاول الاثنان كثيرا مصاحبة نصر الله لكنه على الدوام كان منطويًا، فما إن ينتهي طعام الغداء يطلب منهما الرحيل، وفي إحدى الليالي الصيفية الهادئة، وقف (سليمان) أمام بيت الرومي ونادى موسى، وإذ يطل إليه من سطح المنزل فيراه مثل الشبل القوي.

- ماذا يا (سليمان)؟

- خذ هذا.

قدم إليه رغيفًا جافا ودجاجةً نافقة.

- سيشكرك برنس كثيرا.

وقبل أن يتوغل في شارع النطرون، أخذه موسى لحجرته، وخبره أن الحجر اللامع تحت الفراش، ورفع (سليمان) المرتبة فإذا بالحجر يرسل هالة ضوئية عبأت البيت كله.

- هنا يكمن السريا (سليمان).

- أي سر؟

- هذا النور الذي تراه هو المصل الذي حصنني من العدوى.

- ولماذا لا تخبر الناس بذلك.

- كان احتفاظي بهذا الحجر الفرعوني صدفة بحتة ساقتني لتدبر ماذا يحدث في المندرة، فأنا لم أعد أخشي شيء، فعائلتي تموت ببطء، وعظامي تكسرت، واعتقد الناس أني ملموسٌ وعاملوني كالمذموم، لكن هذا الحجر وراءه أسرار، وأعتقد لو أن أحدا من المسؤولين عرف أنه عندي لكان الأمر خطيرا.

- وما قيمته؟

- كنت ولا زلت أعتقد أنه فيه شفاءً لعائلتي.

- وكيف لم تعرف الحكومة بوجوده عندك؟

- لم يكتشفوا الأمر بعد، صدقني سيكتشفونه يوما.

- ولم الحكومة؟

- ومن يقدر غيرها؟

- علمتني أنه ربما هناك عابث في الحكومة، وليس شرطا أن يكون منا.

- معك حق، لكن أمرًا كهذا لا بد أن يكون تواطؤًا مع سبق إصرار.

- وما حيلتنا؟

- أما أنت فلا، وأما أنا فأنت.

ويتدبر (سليمان) الكلمات حتى يحسها نُقشت في قلبه، فيحتضنه ويستشعر نبضاته المقهورة، ويهمس:

- عيناي لك يا أستاذي، ولو بعد سنين طويلة.

- اذهب الآن قبل أن يطولك وباء عائلتي، واحفظ جيدًا كلمات مجلدي الفخم، أثق في حاجتك لها في زمنك القادم.

- لم؟

- ألا تكفيك ثقتي يا (سليمان)؟

- تكفيني، ألا تعلمني الإنجليزية والفرنسية؟

- غدا.

وعلمه ما يريد، وما أعظم ضحكاتهما معا حين كان يرطن موسى سريعا بالفرنسية ويفتح الآخر فاه كالأبله، فيزعق:

- قل لي ما اسمك بالفرنسية؟

- (سليمان عبد المنتقم) بالفرنسية.

- يبدو أن عائلة عبد المنتقم مجانين.

- منك نتعلم.

ويمر الزمن حتى أتقن (سليمان) أهم لغتين في الأرض.

(١٢)

ومع بلوغه إحدى وعشرين سنة، وفي يوم جمعة ومع اقتراب شمس الصيف من المغيب؛ ترك نصر الله نمرود دكانه، ودخل على أمه في حجرتها، وكانت تجلس على شلتة قطنية موضوعة على كرسي هزاز، وتنظر في مرآة، رغم قدمها فإنها شديدة اللمعة، وبروازها الخشبي بندقي ركيك، ومساحته الكلية ثلاثة أمتار، وقاعدتها السفلى درجان يقطعان عرضها كله، وتتراص عليهما قنينات زجاجية صغيرة مملوءة بالعطور والزيوت، ومكاحل نحاسية براقة.

- أمي.

- خيرًا؟

تنهد في حيرة، ثم جلس على طرف فراشها النظيف، ومسحت عرقه بمنديلها المعطر، ثم خلعت حذاءه، وطلبت منه أن يتمدد على الفراش، ثم أخذت علبةَ سجائره وأشعلت سيجارتين، وغرست واحدة بفمه، والثانية بين إصبعيها، ثم تمشت عائدة إلى الهزّاز وارتاحت عليه.

- ما لك؟

كان متلعثمًا في حديثه عن رغبته في الزواج من فتاة، لا يعرف عنها سوى تفاصيل جسدية، فكانت تسمعه وتنفخ دخان السيجارة ببطء وتنظر في المرآة، ولما سكت؛ سندت بكوعيها على قاعدة البرواز وأراحت خديها بين كفيها، تتأمل وجهه الخجول، ومع صمته سحقت السيجارة في المطفأة الخزفية، ثم سألته: كيف عرفتها؟

- رأيتها تمر أمام الدكان مع والديها عصر الجمعة قبل السابقة، ويبيتون ليبيعوا بضائعهم في سوق السبت ثم يرحلون.

- هل أنت متيقن أنهم غرباء عن مدينتنا؟

- نعم.
- من أين؟
- مكان ناءٍ لم أزره قط.
- أين؟
- لا أعرف.

وفي حنو بالغ؛ ربّتت على كتفه، ومسحت على رأسه، ثم طمأنته:
- دع الأمر لي.

وظنت بديعة أن ابنها اختار عروسه من منطقة نائية؛ لاعتقاده أنه لن يُقبل كزوج لأي فتاة من المندرة، فقد عُرف بقُبحه منذ خرج من رحمها، وكثيرا ما عايره أطفال ونساء سليطات بخلقته، ولم يكمل تعليمه؛ لأنه منذ طفولته وإلى الآن، تنتابه أحياناً حالةٌ نفسية، يسقط فيها كفريسة مجروحة، وينزوي وحيدًا، ويعيش أيامًا بلا إدراك، وكان يترك الفصل ويقعد صامتًا في فناء المدرسة، ويضربه الناظر والمعلمون، ويدهشون من ألمه الصامت، ولما اشتكى لأمه من الإهانات المتكررة في المدرسة، فاستبانت رغبته في الامتناع عن التعليم، أبرحته ضرباً، ولم ترحم نواحه وتشنجه وأرغمته على الذهاب إلى المدرسة، وكان طبيعيًا أن يكون البديل هروبه وجلوسه وحيداً أمام النهر، ورغم علمها أنه يتعذب لسخرية الجميع منه، عانت معه زمنا طويلا لتعرف سر عزوفه عن التعليم، وأخيرًا وخوفًا عليه من الموت غرقًا أو الهروب بلا عودة، ذهبت بنفسها للمدرسة، وسحبت أور اقه وهو في صفه الر ابع الابتدائي، وذهب للعمل في الدكان مع أبيه، وقبل أن يتم خمس عشرة سنة، تشرّب المهنة بتمامها، وبعد أن ر اقبه الزبائن عن كثب، أحبوه حبا عظيما، وكان مطيعا لأبيه، ولا تبدر منه غير كلمات احترام وطاعة، وكان ماهرًا ونظيفاً، وأصبح الحلاق الأساسي في الدكان، وبعد موت أبيه ورث الدكان بزبائنه، ويقدم لأمه كل ما يربحه ولم يكن بالقليل، ولمّا تسمعه يبكي بحرقة في جوف الليل، تعلم أنه يندب حظه العسر حين يتذكر الناس يسخرون منه، وتنظره وتتألم، فهي تعرف أنه يملك ذكاءً

باهرًا، ويقدر بعمله على تأسيس عائلة، إن أمومتها وحنوها عليه في علاقةٍ طرديةٍ مع حالته، ورغم عينيه الحزينتين كانت تحسه يتبسم في وجهها، ولم يكن قط ابنًا مشاغبًا يحتج على أمه، ومن فرط طيبته وكرمه وحنوه؛ كانت تذرف دموعها حبًا له وإشفاقا عليه، ومنعها شخصها الذكي أن تجعل ابنها المسكين يراها تدمع لأجله.

واستخدمت عاطفتها الجياشة لتزيح عنه الكدر والأذى، وحتى تشعره بكيانه كرجلٍ قويمٍ كانت تتلقاه بوجه مستبشر، ولم تغضب منه حين علمت أنه يدخن السجائر، وكيف لا؛ وهي مدخنة شرهة، ومع مرور الزمن أتمت بناء الطابق الثاني له، وجهزته بمقتنيات زواجه، ولأنه مغرم بأكل اللحوم وعاشقٌ ولهانُ للفاكهة الطازجة والحلوى، كانت ولا تزال ترتاح لرؤية أمارات السرور ترتد عن جبينه، وهو يهز رأسه طربًا بالطعام الشهي الذي تعده، فتقعد جواره وهو يأكل في شرهٍ ولذةٍ وتربّت على كتفه وتقرر بصوت شجاع:

- وإن رفضك العالم، أنت قِبلَتي، لا تحزن أبدًا طالما أعيش.

وكي تسعده أكثر؛ لم تتوانَ في مطلبه بالزواج، فعلى وجه السرعة، وقبيل عصر الجمعة التالية؛ ارتدت جلباباً أسود قماشه من اللاميه اللامع، وغطت شعرها بمنديل حريري مزركش، وتعمدت أن يظهر طرفا أذنيها بقرطيهما، اللذين هما عنقودا عنب ذهبيان يتدليان على جانبي عنقها، وعلقت العقد الذهبي الثمين على صدرها وكشفته من تحت طرحتها، لترتد عنه أشعة الشمس فتزيد حسنها إبداعًا، ووضعت قدميها في حذاء أسود مطاط الجلد، وكانت مبتهجة وهي تسير مرفوعة الرأس معتزة بنفسها، وكأن للجمال هيبةً تبطن شخصها العنيد، ودون إيماءة أو لفتة، تقرأ فكْرَ الأدمغة، وتفك ألغاز النفوس، فكلما تصلبت العيون فيها، تخبئ استياءها من نسوة لم يقدرن على إخفاء غيرتهن منها، ودت لو مصمصتْ شفتيها أو ترميهن بتساؤل: "على ماذا الغيرة؟ ألا يكفيكن أني أرملة؟"، لكنها تسير مترفعة كملكة لن يبلى جمالها أبدا، وحين تتلقاها سخونة الصيف تزيدها ثقةً

واختيالًا، وإذ يداعبها إحساس نوراني بذاتها القوية، تتأكد أنها ما تزال شابة حسناء.

وقفت في ناصية الحارة المحاذية لشارع النطرون، ورمت نظرة قبالتها حيث دكان نصر الله، ثم لوت عنقها نحو نهاية الجانب الأيسر لبيوت الحارة، فتنظر للبيت القديم الذي ورثته عن أبيها، الترابي اللون والمتآكل الواجهة، والمكون من ثلاثة طوابق في مساحة خمسين مترًا، ولأنه مهجورٌ ومغلقٌ دائمًا، ينشع زفيرًا جافًا يجبر البعض على تأمله فيستشعرونه شامخًا عتيقًا، وتهرب الأبصار إلى نوافذه العريضة وجدرانه القاتمة وارتفاعه الذي يتمدد في الأعين، فهزت رأسها كأنها تتناسى سنين قديمة، ولما اقتربت من الدكان،

وتبعثر عطرها واخترق أنوف الزبائن، اعوجت رقابهم نحوها، وبرزت أعينهم ونتأت حدقاتهم فيها، ثم تصلبوا واقفين، ولما ألقت التحية؛ كأن نسيمًا انطلق من صدرها وأعاد إليهم الأرواح، فجلسوا يتهافتون، وهرول ابنها، وفي الظل وضع كرسيًّا صغيرًا، ثم سعى مضطرباً، وعاد يحمل زجاجة مياه غازية باردة، وارتاحت على الكرسي، تشرب من الزجاجة في لذة، وتتفحص المارة وما يحملون، وتسترق النظر للمختبئين خلف نوافذ البيوت، وتنبثق عن نظراتها ثقة منسوجة بحزم الأمومة، وحين اقترب الموعد، ترك نصر الله عمله، وتسمر جوارها، إن ملبسه لا يتفق مع المناخ والمناسبة،

فقميصه من البوليستر الكحلي، وبنطلونه من الصوف الأسود، وحذاؤه البني سميك الجلد، وجوربه رصاصي خشن، ورغم ارتفاع حرارة الجو؛ شتت البرودة أعصابه، وارتجف وجهه العرقان، وكان مرعوبًا ألا تأتي فتاته، وحين رآها، بلغت سرعة نبضاته حدها الأقصى، كأن عظام صدره ستؤول هشيمًا تدوسه الأقدام، وكأن سحرًا غامضًا يبطن خطواتها وهي تمر أمامه مع والديها يحملون بضاعة، واستشعرت بديعة الاضطرابات تزلزل صدر ولدها، واللهفة ستوقف قلبه الخفاق، من أجل هذا؛ وقبل أن ينطق، أمسكت يده وهمست:

- أحسنت الاختيار يا نصر الله.

وأعطته زجاجة المياه الغازية، فأفرغ محتواها في بلعومه دفعة واحدة، وسارت وراءهم حتى توقفوا، فانزوت تحت مظلة أسمنتية، تشاهدهم يقعدون ويطمئنون على بضاعتهم، ومن سلة صغيرة أخرجت الأم خبزًا طريًّا، وحزمة فجل، وبصلتين، وطبقًا به قطعة جبن، وقرطاسًا مليئًا ببلح أسمر، وقطعت العروس المبتغاة لقمة وقبل أن تضعها بفمها، لمحت ظلًا أنثويًا يتسلل ناحيتهم، وإذ تصوب عينيها نحو صاحبته، تقابل وجهها بوجه بديعة، ومع الصمت الجميل الذي وقع، كأن عينيهما وصلتا حديثًا كان مخفيًّا، فجلست بديعة قبالتها، ويتعجّب الوالد منها حين شاركتهم الطعام دون إذن، ثم حمدت ربها وسألتهم عن بلدهم، ومسحت الابنة فمها، ثم قالت في رقة مصطنعة:

- (واحة إكنار).

ومن رائحتها الطيبة، وإشراق وجهها، وطريقتها المهذبة في الأكل، ظنّها الأب امرأة ثرية، سوف تشتري كثيرًا من بضائعهم، فاصطنع الارتباك وتمتم:

- نحن بؤساء.

- ما اسمك؟

- أنا...

- نعم.

- (رضا المغربي).

رمقته بنظرة ثاقبة فعرفت أنه بخيل، وركزت سهام عينيها في وجهه الجامد، فتيقنت أنه متقلب المزاج، ومن فرط مكره؛ عرفت أن جوفه بلا قرار، فانتقلت بعينيها نحو الأم:

- و أنتِ؟

- ماذا؟

- ما اسمك؟

مصت ريقها، ثم لوت شفتيها، وتحدثت تشكو مرارة دونية تحبس أراوحهم، ومشقة مضنية تبلع أجسادهم، ويتلقفهم العراء فلا يرتاحون أبدا؛ وإن هدأ عنهم الكدّ، وارتضت بهم الأرض، وعثروا على حيز يشتغلون به؛ لا تذقْ أعينهم النوم؛ لأنهم يحرسون بضاعتهم من لصوص لا يعرفون الرب. فدققت بديعة النظر للبضاعة، وكانت ملابس قديمة، غُسلت وطُبقت وعُبئت بشكارتين بلاستيكيتين.

- من أين تشترون بضاعتكم؟

استرسلت الأم توضح أنهم يشترونها من مدينة (بور سعيد)، ويخزنوها بحجرتهم الضيقة في واحة إكنار، وكي يحصلوا هامش ربح بسيط؛ يعكفون على الترحال بين المدن والقرى، وحين مدت بديعة يدها نحو البضائع و انتقت منها قميصاً أحمر يناسب صبيًّا، انفرجت أسارير رضا المغربي وهى تقدم له المال، وإذ يمد يده لأخذه، سحبت يدها تارة أخرى، وتكلمت بصوت مستقيم:

- أنا بديعة رستم، أم نصر الله نمرود، ما اسمها؟

- من؟

- ابنتكما الجميلة.

- (كاميليا).

- حتى اسمها جميل.

- ما الخبر يا سيدتي؟

أمسكت بديعة بيدها، ثم تبسمت:

- يا كاميليا، من الآن لك بيت جديد، وحياة هنيئة.

ارتسم العجب في وجه الوالدين، وهي تعيد المال إلى الحافظة، وباغتتهم بقول تقريري عن كاميليا، فقد حضرت لتأخذها زوجة لابنها نصر الله، الشاب الذي يملك شقة مجهزة للزواج، ويعمل حلاقًا، وسيرث عنها بيتًا آخر موقعه خرافي، ثم صمتت تتأمّل وجه كاميليا، ويلتف الفزع حول كلمات الأم التي سألت:

- وكيف عرفها يا...

وقفت بديعة، فتعطلت الكلمات في بلعوم الأم، وأشارت بيدها نحو دكان الحلاقة، وكان نصر الله متسمرًا، وتراصوا خلفها ينظرون، فعلموا أنه كان يترصدهم، فكتمت أم كاميليا خوفَها، وكالتي تختلق أسبابًا للرفض، سالت من عينيها الدموع وتحدثت عن حالتهم المادية المعدمة، فقاطعتها بديعة، وأخبرتها أن كل شيء معدّ، وما ينقص موافقة العروس، ودون الدخول في تفاصيل، طلبت منهم زيارة بيتها قبل عودتهم لواحة إكنار، ثم مشيت يتدلى من يدها القميص الأحمر، وفي التو تكلم رضا المغربي عن العمل الشاق الذي ينتظرهم، وعليهم الآن نسيان هذا الأمر، والاهتمام بعرض البضاعة، فانشرح صدر الأم لكلامه، فقد ظنت أنه رفض، لكنهم؛ وفي عصر اليوم التالي، وحين بدأ زحام سوق السبت يتلاشى، وبينما يجمعون ما بقي من بضاعتهم، تطلعت الأم بوجه الوالد، فأدركت أنه يفكر في زواج ابنته، فانقبض قلبها، لكن لم تنطق ببنت شفة، أمّا وجدان كاميليا؛ فكان مشغولًا في وجه بديعة، كما أن نظراتها الدافئة تركت أثراً شيّقا في نفسها، واعتبرت مطلبها طوقُ نجاة ثمين من حياتها الوعرة، فأحست بهمس سعيد وغريب عليها، وتورّد خداها وداهمتها ابتسامة مؤقتة، وتنظر لها الأم فتظنها مغرمة بنصر الله دون علمها، ودققت كاميليا النظر لجلبابها القطني الليموني، وأزالت منه الأتربة والزغب، وفركت يديها ثم مسحت خديها وقرصتهما لتزيدهما احمرارًا، وعضت أظافرها لتزيل الطين الذي حشاها، ثم تأكّدت أن شعرها يختبئ تحت طرحتها الصفراء، وأحضرت وعاءَ ماءٍ صغيرٍ، ونظفت قدميها و شبشبها البلاستيكي، وحملت الأم بقايا البضاعة استعدادًا للعودة،

وكان رضا المغربي ذو الخمسين سنة، يرتدي جلبابًا بنيًّا، ويضع قدميه الطوليين النحيفين في حذاء جلدي أسود قديم، تظاهر برباطة الجأش، واستحضر تعقلًا مبالغًا فبدا متكلفًا، فهو طويل نحيل، يستمد من طوله الفارع قدرةً وهمية، تهيئ له تأمّلًا هشًّا وهو يرمق الآفاق بعينيه الضيقتين الضعيفتين، ويزيد من تظاهره بالتفكر غير العابئ بتركيبته الجسدية المُشتبه في ضميرها، وعلى الدوام

يتحسس رأسه الأصلع براحة يده، وعلى الرغم من أن حاجبيه خفيفان؛ فإن وجهه الأسمر الممصوص كاد يختفي خلف شاربه الخشن السميك ولحيته الكثّة، ومنخاره العريض يتمدد بفتحتين مكورتين معبَّأتين بشعيرات تثير تقززًا، وصدره الضيق؛ كثيف الشعر فيبدو قطعة جلدٍ شمطاء، وعلى عنقه الأسمر النحيف تتشتّت شعيرات كما البراغيث الميتة،

وذراعاه طويلان ينتهيان بكفين عريضين دقيقين؛ يغطي عظامهما جلد خشن مبقع بلُطَعٍ سوداء بفعل الترحال الدؤوب في حر الشمس، ومن تحت هذا الجلد تبرز أوعية الدم، زرقاءَ غليظةً كأنها رخويات محبوسة، وإذ يقبض يده غاصت وحين يفردها كادت لو اخترقت هذا الجلد و انطلقت بعيدًا،

وهو رفيع البطن لدرجة ملفتة فيبدو جلبابه فضفاضًا سواء كان متحركًا أم ساكنًا، وبهذا البدن كان يسير وتتبعه كاميليا، وخلفهما الأم؛ على رأسها شيكارةٌ معبأةٌ ببقايا البضاعة، تلبس جلبابًا كساه العفر بطبقات بعضها فوق بعض، فتلاشى لونه الأسود وبدا رصاصيّاً أدكن، وحرقت الشمس وجهها ويداها وقدميها، فكستهما بلون كستنائي قاتمٍ أخاذ، أما عنقها المكتنز؛ لأنها تستره بطرحة قطنية طرية، فما يزال شفافًا جزيلَ البياض، والمرأة ذات الأربعين سنة؛ تملك جسمًا متوسط الطول، وفي صدرها نهدان كرمّانتين كبيرتين يتناسبان مع خصرها اللين، ومن ذراعيها ورجليها المدملجين، تجيء حركاتها مملوءة طاقة و إقبالًا، وعيناها واسعتان وسوداوان وحادتا البصر، ويعلوهما حاجبان سمكيان، وتنبت شعيرات دقيقة في صدغها وطرفي شاربها، وتبدو شفتاها العريضتان جافتين، لكن؛ يجيء احمرارٌ شاذٌّ في طرفي خديها لينسف أي قبح في طريقه، فتلوح جذابة ومثيرة،

والذي يرفع قدر جمالها؛ أن شعرها البني الناعم الطويل، مُغطى بطرحة سوداء بالية، سمحت ثقوبها للعيون برؤيته والتماس سر حسنها. ولما اقتربوا من دكان الحلاقة، إذا بنصر الله وأمه يخرجان منه ويستقبلانهم، ويطلبان منهم الذهاب معهما للبيت، وبينما يتظاهر الأب بالتفكير، كان نصر الله

يغلقُ الدكان، وتحركت أرجل الجميع نحو الحارة، وفي تلك الدقائق الخطيرة من حياة كاميليا، كان الأب يرمقها ويهزُّ رأسه بإشارة موافقة، وإذ أحسها لم تفهمه همس في أذنها:

- تلك فرصتنا العظيمة...

وتراهما الأم فيضيق صدرها، وتعتريها أمارات قلق، واستوقفتهم بديعة عند الناصية، وأشارت نحو بيتها المغلق، وأكدت ما ذكرته مسبقًا، أن نصر الله سيرثه عنها، ثم فردت ذراعها وطوقتْ كتف كاميليا؛ وفي التو خضعت المرأتان لحسٍّ مذهل، وكأن اتصالا خفياً، ومزجاً روحيا يسحبهما نحو الجنة، وينقطع هذا الحس حين يجيء صوت نصر الله المذبذَب، يطلب منهم الذهاب لبيت المعيشة، وكانت كومات نسوة عند أبواب الدور، توسوسن متسائلات عن الغرباء، ولما اقتربوا من طرف الحارة الآخر، اشرأَبَّتْ أعناق الجالسين في المقهى حتى يشبعون أعينهم من رونق بديعة، لكنهم فوجؤوا بأنثى جديدة وثرية الجمال، وعندما وصلوا إلى البيت، كان العبق الثقيل الساكن فيه، يرمي عليهم بنفحاتٍ معطَّرةٍ اقتحمت أنف كاميليا، فاستعدت نفسها للدخول، وتعتقد أن البيت نعيمٌ أبديٌّ، وحين فتح نصر الله الباب، ورغم ضوء النهار بدا المدخل مظلمًا وحارًّا، فهرب قلب الأم وهي التي تقاوم الغمّ، بعد الباب مباشرةً، وغاصت قدم نصر الله نحو نصف متر، واستقرت على مصطبة أسمنتية حديثة، وضغط بإصبعه ذر المصباح الكهربي فانتشر الضوء الأصفر، وأبصرت كاميليا المدخل، وكان ممرًا ضيقًا، فداهمها شعور أنه طريق شائق، وودت لو مشيت فيه منذ سنين بعيدة، وهذا الممر عرضه يقارب المتر، وبجانبيه جداران طولهما خمسة أمتار، وارتفاعهما أربعة أمتار،

وهما مطليان والسقف بالجير النيلي، وزخرفتهما بديعة ببعض ذكرياتها في الزمن الغابر، وقد علقت بروازين، واحدا يحوي صورة مائية لها حين كانت في العشرين، والآخر يحفظ صورة نصر الله وهو طفل رضيع، وعقدا أزرق الخرزات ومحفورا عليها أسماء الله، وسجادة مكتنزة وثمينة الخامة، وخضراء وتتخللها

خطوط برتقالية، وأرضية الممر أسمنتية ومدهونة بالأكسيد الأحمر، وبدت نهاية الممر كموجة هلامية سوداء تخفي أسرارًا أسطورية، وتنظر كاميليا لهذا الظلام فتهفو نفسها لمعرفة ما وراءه، لاحظها نصر الله فأسرع وضغط زرًا فأضاء مصباحًا آخر؛ ليكشف النور عن حائط يسد نهاية الممر، فاحتار الأبوان وكتما تساؤلهما، وكأن كل البيت في عينيهما هو هذا الممر المنتهي بحائط يتفرق في لونه القرمزي لُطَعٌ رصاصية، والذي دفع بمزيد من الغربة أن نصر الله حين توغل للعمق انحرف شمال الممر واختفى، وفي الوقت نفسه استدارت بديعة خلفهم، ثم تكلمت كالتي تأمرهم:

- تفضلوا.

دخلوا صفًّا آخره كاميليا، وفي أعماقها حُلم يرتعش، ويدفعها نحو معرفة نهاية ما يحدث، ويغوي قلبها طيف يهمس بوجدانها، أنها منذ أمس تعيش حُلمًا عابرًا، وكي تطرد تلك الهواجس؛ لمست بأناملها جدار الممر، وحين أحست به ينشع رطبا وحرارة؛ تيقنت أن ما تعيشه حقيقية، فابتهجت واطمأنّت، لكن قلب أمها المتوترة أحس بخبائث ملعونة في هذا البيت، وسدت فتحتي أنفها حين استقبلت نفسها عبقه الطيب وكأنها ريح سيئة، وبينما تفكر في التراجع، تسحبها قدماها للأمام، وتمسك بجلباب زوجها الذي ألزمه تفكره وقلبه المتوتر بالصمت، وحين وصلوا نهاية الممر، اكتشفوا أنه يتصل بممر قصير نحو الشمال، ومع انحرافهم معه رأوا سُلّمًا ضيقًا يؤدي إلى الطابق الثاني، وانتهى بهم الممر القصير إلى باب يفتح على بَهْوٍ مربعٍ وأصفر الجدران، وأرضيته مغطاة بسجادة مزركشة، وبه كنبة مكسوَّة بملاءة حمراء لامعة، وعلى يمينها كرسيُّ صالون وحيدٌ وفخم، وفي شمالها منضدة دائرية صغيرة، عليها هاتف منزلي، ويجاورها باب أخضر ومغلق، وبمنتصف الحائط المقابل رفٌّ خشبي يحمل تلفازًا، وجلست صاحبة الدار على الكنبة، ترفع عينيها للنجفة الثمينة المتدلية من السقف الأبيض، ثم تنظر لولدها وتتبسم، فتحس فيه سعادة غامرة وهو يرى أمارات الدهشة تنسكب من وجوههم، وأمرتهم

بالجلوس ثم غمزت بعينها لنصر الله فذهب ليُعد مشروبا، فاتخذ الأبوان من الأرض مجلسًا، واستندت كاميليا للجدار المقابل للكنبة تتفكر، وفي حنو مُبطن المعنى أمسكت بديعة يدها وسحبتها بنعومة،

وأجلستها بمنتصف الكنبة، وأشارت نحو فتحة في الجدار المقابل وقالت:

- حجرة المطبخ.

وشرحت أن الباب الأخضر لحجرة تخزين الأطعمة الضرورية، والباب البندقي الذي يجاوره لحجرة ابنها، أما الباب الأبيض ذي الستارة البنفسجية، والذي يجيء على يمين البَهْوِ بعد دخوله مباشرة، فهو لحجرتها، وطمأنتهم أن العروسين، سيعيشان في الطابق الثاني، وعلى استحياء جاء نصر الله يحمل صينية المشروبات ووقف متلجلجًا، وسمع أم كاميليا تتحدث عن رغبتها في العودة إلى الواحة للتفكير، وبوجهها الباسم المشرق أومأت بديعة بالموافقة وهمست:

- لكم مهلة أسبوع كامل.

ثم أقسمت بربها أنهم لن يرحلوا إلا بعد تناول الغداء ورؤية الطابق الثاني، وأخذت من ولدها الصينية وأمرته بالذهاب لشراء طعامٍ فاخر، ثم طلبت منهم الصعود للطابق الثاني ورؤية مقتنيات الزواج، وعند الوصول للدَّرَجِ، وكالتي تختبر جسد زوجة ابنها المستقبلية، أخذت بيد كاميليا تساعدها في الصعود، ثم تعمدت أن تكون وراءها وتمسك بخصرها، عند الباب، وبحجة تقديم المُفتاح؛ تسللت يدها في إبط كاميليا لتتحسسه، وانتقل الدفء من جسدها لكاميليا المعبأة بعرق بارد، وبدورها استشعرت نبض بديعة القوي، وكادت تدخل في غفوة، لولا لمعة ضعيفة انبثقت عن المفتاح فانتبهت.

- افتحي يا عروسة.

وكأنها استنبطت سرًّا مُقلقًا في جسد كاميليا؛ فزاغت عيناها كعيني ذئبة ماكرة، لكنها أخفت هذا الحس المفاجئ وكررت همسها، فانكفأ وجه كاميليا وسقط منها المفتاح، فاضطرت هي لفتح الباب، وفي التَّوِّ زفرت الشقة ما بجوفها، وكان

لرائحة البوية، وأضاءت المصباح، فبدا المظهر العام للشقة أنها حديثة الطلاء، وحوائطها مدهونة بالزيت الأخضر الكمثرِي، والصالة المربعة أرضيتها بلاط أبيض، ومكسوة بسجادة زيتونية، ويتراص حولها كراسي الصالون الذهبي، ومُحاصرة بثلاث حجرات، واحدة لنوم العروسين، تجاورها حجرة السفرة، والأخيرة أعدت للأطفال، وحين عاد نصر الله بالطعام، حسمت بديعة الأمر:

- هنا ستعيش كاميليا.

وفي موقف السيارات وبينما تودعهم، قدمت لرضا أكياس فاكهة، وتفحصت وجهه فأرخى رموشه كإشارة بالموافقة، ثم ربّتت على كتفي كاميليا وهمست تسألها فتصنعت الخجل، وتنهدت موقنة بموافقتها، ولما تحركت السيارة التي حملتهم، بدأت في التوِّتُعد لوازم سفرها لواحة إكنار.

(١٣)

منذ أن بلغت كاميليا السابعة من عمرها، كانت كما شابة؛ تملك رحابة صدر، وعقلًا واعيًا، وفهمًا لحياة أمها، وإيمانًا بعقيدة سكان واحة إكنار؛ ومنذ هذا الحين، وتنعم أمها (فريال عباس) بحياة طيبة، فقد أحست أنها أنشأت جسور صلح مع الزمن، وجعلت تستقبل عثرات الكفاح في قناعة، لكن مع اصطدامها بمجريات الأحداث الأخيرة، وحين رأتْ في وجه ابنتها أمارت الموافقة على الزواج؛ اخترق أذنَها طنينٌ حادٌّ، وانتابها دوارٌ شديد، فكاد يغشى عليها، فجعلت تقاوم وتغتصب من أعماقها بسمة صفراء لتغطي وجهها المربد، وكلما أغمضت عينيها؛ سقط كيانها بفوهة حمراء الجدر تغزها بمخالب الماضي فتفزع من المستقبل، ورغم ذلك؛ لململت زمام نفسها المختنقة كي لا تُشعر ابنتَها برفضها المطلق لهذه الزيجة، فلا عقيدة نصر الله تتواءم معها، ولا هي تستطيع العيش بدونها، وكلما رمقتها كاميليا حافظتْ على بسمتها المُرة، فقد ظنت أن فرحة ابنتها سببها الثراء الساحر في بيت بديعة، ومن قبل؛ عاشت فريال عباس تلتف حول الأزمات بانسيابية فتحل عقدها دون إبداء شكوى، وكانت لا تبالي بخوار الجوع القاتل، أو جفاف الحلق، أو خيانة الزوج البخيل، وعن نوبات المرض فقد اعتادت عليها،

فكثيرا ما آلمها كاحلها بسبب المسير الطويل وهي تحمل البضائع على رأسها، وحين تُسأل عن سبب بطئها؛ تعتذر وتسرع متناسية الألم، وفي المرات التي كان زوجها يأمرها بالسفر وحيدة؛ لشراء أو بيع بضائع، تعرضت لأكثر من نوبة اغتصاب، لأنها فضلت أن ينتهك شرفها ولا تسرق فتيلة من البضاعة، فتتحايل على اللصوص في خلاعة وتغويهم كي ينالوا جسدها أو يسرقوا،

ودائما ما وقع الاختياران معًا، ولحل الأزمة المفزعة، كانت تجبر عقلها على التفكر للخروج من الكبوة، فتستدعي عقيدة الخوف من زوجها كمسوّغٍ جبار؛

لتنفذ ما توصل إليه دماغها و اقتنع به ضميرها، وتسرق بدورها ما تراه يعوض الاغتصاب والوقت والتفكير والخوف، فحين ترى قرطا ذهبيا بأذني طفلة أو خاتما في إصبعها، تستدرجها لمراحيض المدينة التي تتواجد بها، أو مكانٍ موحش في القرية وتسلب زينة الطفلة، وذات مرة حينما كتمت فم طفلة حتى لا يدوي صراخها؛ اختنقت الطفلة وماتت، ولم تبالِ بفعلها الدموي، طالما أن عقيدتها ترتاح لذلك، وإذ يخطف الخوف كيانها، وتختل نفسها، ويسحبها الخيال لتتصور ابنتها وقد تعرضت للخنق والقتل، قررت أن تسلك دروبًا طويلة وشاقة وتسير وسط الزحام بدلًا من الطرق القصيرة الوعرة فلا تسرق أو تغتصب، ولا تكرر جريمتها فتكتشف الحقيقة، كما أنها خشيت أن ينفد صبر الرب على جرائمها، ويمر الزمن، وهي علي الدوام في ترقب للبضائع واستجداء غفران الرب، حتى نسيت عيناها النوم القرير، ومع ذلك كانت قانعة، فإن مبلغ أمانيها من الحياة أن يتلاشى خوفها الجامح من الوحدة، ويرضى عنها زوجها ليمتعها جسديًا، ويرمي لها بلقيمات تسد جوعها، ويكون ظلًا يحميها من مجهول لا تعرفه، أما بقية مفردات الحياة فلا تهم، ولما يبدر من زوجها نظرة حب؛ يبدو وجهها ثري الملامح، متفتح الخلايا مهما حرقته الشمس، وحين تتساءل عن سر تحملها كل ذلك الألم، تأتيها الإجابةُ على هيئة المتعةٍ الجسديةٍ الدافئةٍ، التي غالبا ما كانت في العراء، فلا يسترها وزوجها إلا خيمة وبرية، اعتقدا أنها تواري سوءتهما، وتسد آذان الناس عن همسات اللذة، والشيء الوحيد الرائع حد الاندهاش في زوجها؛ طريقته البربرية والقوية واللا نمطية، فكانت تُقارن بينه وما تسمعه عن خيبة النسوة في أزواجهم الضعفاء، وما شاهدت من فضائح في هذا الشأن بشتى المدن والقرى، إذ كانت النسوة حين يطفح كيلهن من ضعف رجالهن؛

تدبرن جُرسة للتخلص من هذه المأساة على حد اعتقادهن، وكأنهن ما خلقن إلا لإشباع رغباتهن. من أجل هذا؛ كانت تعتبر زوجها البطل الخارق الذي في سبيله

تتحول الصعاب إلى نعيم لا ينضُب، وإن سرقت وقتلت، ومع كل تنازلاتها وما ارتكبته من جرائم، كان متوترًا وناقمًا، وكاميليا ابنتهما الوحيدة،

ولدتها أمها في ساعة قيظ حاد بسوق المندرة، وهناك سميت بكاميليا نزولًا على رغبة تاجر اسمه (مانو)، يعرفه سكان إكنار، فحين تمكن طلق الولادة من رحمها وسقطت أمام دكانه، تعجب الناس من ظهور مانو المفاجئ ورقته وهو يأمرهم بمساعدته في حملها والذهاب لبيته، وحين حاول زوجها الدخول، منعه مانو وأخبره أن زوجته وابنة عمه الممرضة ستقومان بتوليدها وعليه ألا يقلق. ووالد كاميليا يربح كثيرًا من عمله كتاجر متنقل، ولا يشاركه العمل غير زوجته المُستعبَدة وابنته التي عاشت منذ ولادتها تعمل وتطوف معهما، وقد نشأ بواحة إكنار، وكان ابنًا وحيدًا يساعد والديه في رعي حيواناتهم القليلة، ومات الوالدان على الإسفلت، فقد دهستهما سيارة وهما يهرولان لإنقاذ حيواناتهم، وأخذ من السائق مبلغًا كبيرًا كفدية لوالديه، وورث عنهما كوخ من الأكياب والحصير، وعلبة صفيح مليئة بالمال، فباع ما بقي من حيوانات، وبقليل من المال حوّل الكوخ لحجرة أسمنتية، واستغل الباقي في تجارة الملابس المستعملة. وفي أوائل العشرينيات من عمره تزوج بفريال عباس، وهي من إحدى الأسر المؤسسة لواحة إكنار، فشاركته المعيشة والعمل، وبعد أن وضعت كاميليا، أحضر لها حبوب منع الحمل،

وأمرها ألا تنجب مرة أخرى، حتى لا يتكبد الصرف على أسرة كبيرة العدد، وبمرور الزمن تحول بخله لعقيدةٍ أساسيةٍ يعيش بها ومن أجلها، مُستغلًا زوجته وابنته قدرما أمكنه، وأفرزت تلك العقيدة التكوين الأصيل لكاميليا، فلم تتساءل قط عما تشمه من روائح أطعمة فاخرة وفواكه، ولم تحزن حين ترى قريناتها في ملابس نظيفة قيمة، ولم تعرف عن الملذات غير رداء بالٍ، ونوم في العراء، ولقيماتٍ جافة وقليلٍ من الغموس، ومرات معدودة ذاقت فيها اللحم والطبيخ، وكان ذلك خلال تواجدها مع أبويها في موائد ينصبها البعض على الطرق، عُرفت بموائد الرحمن، وقلما نامت هانئة في حجرة أبيها، الذي أصر على تعليمها القراءة

والحساب في كُتاب الواحة، للاستفادة منها في تقدير الحسابات، ومرت السنون وهم يجوبون المدن والقرى، ويستخدمون وسائل النقل المتاحة في السفر، ولكن بعض القرى نائية عن الطرق الإسفلتية والسكك الحديدية، فكانوا يقطعون المسافات الطويلة سيرًا على الأقدام، ولم تكن بالقصيرة أو المعبّدة، واعتادوا على ذلك، أو بالأحرى استسلموا لهذا العذاب، فيمشون في القَيْظِ، تنشع الأرض بالصهد فتجف أجسادهم من الماء، وحين تلحظ فريال شفتي ابنتها ملتصقتين من شدة الظمأ تملأ يدها بماء القنوات العَكِرةِ وتسقيها، ورفض التجار المرتحلون مصادقتهم، نظرًا للبخل واللؤم الظاهرين من رضا، كما أنه خشنٌ طماع، وكانوا يتجنبونه لسرعة غضبه، وعدم تردده في طعن أحدهم بالمطواة، ونفروا منه تماماً؛ لأنه يتعمد السخرية منهم، والبصق عليهم، وسب دينهم، ولم تسأله فريال عن اليوم الذي سيفتح كنزه المُغلق، ويغدق عليهم بشيء من الأموال التي ربحوها في سني الكفاح، ولما كان الزمن يمر ولا شيء يتغير، كانت تصمت راضية، لكنها؛ وفي ليلة شتاء، وكانت كاميليا في العاشرة؛ شكت من آلام حادة في بطنها، ثم تحولت شكواها إلى صراخ، وتشعر فريال بقلبها يتمزق، ولا يوجد في الواحة مستشفى أو طبيب، فحملتها وذهبت لامرأة عجوز، تستخدم عصا خشبية معقوفة، تغز بها أجساد المرضى، وحين رأتها قالت: "لن تشفيها عصاتي"، وأعطتها زيت النعناع، لتدلك موضع الألم، لكنه اشتد أكثر، وتتلوى كاميليا وتصرخ، وتتوسل فريال إلى زوجها أن يذهب بها لأقرب مدينة، وأمام لا مبالاته؛ علا صوتها ترجوه، فصفعها على خدها وركلها بقدمها:

- اذهبي بها إلى جحيم ربك.

استرحمته، وطلبت منه بعض المال فتسافر بها، لكنه أبى واستكبر:

- أعرف أنك تسرقينني، هل تظنين أنني أبله؟!

- البنت تموت.

- ليكن.

أخذتها وسارتا في الصقيع، ووقفتا على الإسفلت تبكيان، وكأنها مذنبة وكانت كاميليا تتأسف لأمها وتقبل جبينها.

- سامحيني يا أمي، أنا أتألم.

وظلت المرأة بابنتها تلوح لكل سيارة قادمة، حتى أنقذهما سائق طاعن في السن، حملهما في سيارته الأجرة إلى أول مدينة، وأمام ابنتها المتألمة، عرضت نفسها عليه فينال متعته منها كبديل عن أجرته، استاء العجوز و انصرف، وبينما يُجري الطبيب جراحة لبتر الزائدة الدودية من بطن كاميليا، اقتحمت فريال لحظات توحُّد قاسية، فسحبتها الذاكرة إلى الماضي القديم، وسني التشرد التي لم تنته حتى الآن، فبكت ندماً على ما قدمته لزوجها الجحود، الذي يتهمها بالسرقة زوراً، وتجريحه لها بالتوبيخ والضرب، لمجرد أن طبقت جفنيها المكدودين أو طلبت دقيقة راحة، استحضرت صور الذل المهين، وهي تحمل حاويات البضائع المكسوة بالمشمع فلا يبللها ماءُ المطر العاصف، وتغرس قدميها في الطين الموحل تحذر السقوط، وتتذكر ريقها الناشف في حرِّ الصيف الذي لم يبلله سوى العرق المالح وماء عكر، وكانت تظن أنها صنعت من ضلوع صدرها نعشًا ودفنت فيه عذاب النفس؛ وتخلصت من جبروت ذاكرتها الطنّانة، حتى إذا أدركها الموت، ذهبت لربها فيريحها من الويل كما اعتقدت، لكن الذاكرة صحت من غفلتها تواً، و انقلبت رأسا على عقب، فاستعادت صورة الطفلة التي قتلتها، فندمت وبكت وناحت، وعلا صوتها بصراخ أليم لم يسكته إلا صوت الممرضة تخبرها أن الجراحة انتهت وكاميليا بأمان، و انتظرت مع ابنتها تأكلان من طعام المستشفى حتى تعافت بعد أسبوع، ثم عادتا للشقاء مع رضا، وبلا اتفاق مع النفس اتخذت من ابنتها أختًا تستكين إليها، وتشكوها التعب، ومذلة السنين، وغرور الأب وشُحَّه وبهتانه المبين، واغتصابَ قطاع الطرق لها في الشروق والغروب، فتنتحب كثيرا في أحضانها وتفرغ سطور الذاكرة في جوف الدموع المقهورة، وقصَّتْ عليها كيف قتلت طفلة صغيرة في المراحيض، ولما كانت تفضفض لابنتها، استقر ضميرها على أنه لا داعي للتبطر على

أوامر الزوج طالما تنفذ أمر ربها، وطالما أن ابنتها تؤانسُها، وفي البداية لم تفهمها كاميليا وبادلتها شعورًا مطاطيا ارتاحت له، وعاشتا معا قانعتين بما قُسم لهما، فتدافع الابنة عن أمها ضد أبيها، وتقنعه أن نقصان شيءٍ من البضائع أو المال بسبب خطأ في حساباته لا لغفوة أمها المكدودة، واستقر ظاهر الحال على تلك الممارسات بين كاميليا وأبيها، واعتبرت فريال ابنتها هي الظل العظيم الذي ترتاح فيه من قهر الزوج وإرهاق الذاكرة وذلِّ الجوع، ولن يدرك الأبوان أبدا؛ أن كاميليا حين جاءت إلى العالم، كانت تملك حسًا مرهفًا يغوص في أعماق الأحداث، ويسجل في طياته مكامن القروح النفسية التي ما انفكت، إلا وترسبت في جسمها ذاته، وعملت على تآكله وهدمه في بطء مميت، لذا؛ وبعد أن توغلت فيها أعراض المراهقة، وفي مطلع سنتها السابعة عشرة، اجتاحتها نوبات كآبة حادة، بسبب فقدانها مصداقية الحياة، وشعورِها بالقهر وهي تتظاهر بالقناعة، واستنبطت أن أباها يستثمرها قدر ما أمكنه، ودفعتها الكآبة لعقد مقارنات بين حياة قريناتها وحياتها، وتقارن بين الرجال القوّامين وسلوك أبيها الفظّ الذي لا يستحي منها، وتجيء نتيجة المقارنات بغثيان مكبوت، فتحتج على استعباد القهر لجسدها، وحبس الأنين لروحها الوثّابة نحو الآفاق الغامضة، ومع عدم إيجاد مخرجٍ للهروب أو انفجارٍ شكليٍّ؛ كانت تتماسك مؤقتا أمام أبويها، وتفرغ شيئًا من كبتها في العمل، لكنّ وحش الكآبة لا يعفو ولا يتراجع، فقد غرس أنيابه في قلبها، وخنق صدرها وفتك بها كليا، فكان طبيعيا أن تتمركز حول ذاتها، وعلى حين غرة، استعادت ما حكي لها من أمها وما عانته، فأيقنت أن إنسانية أمها تفنى كلما مر الزمن، لأنه من غير المقبول ألا تثور هذه الأم على هذه الحياة القاسية، ولا بد أن سرًا غامضًا في هذا الكون يجبرها على هذا، أو أن مستورًا قاسيا وخللًا مركباً في العقيدة التي تؤمن بها، أو أنها أم بلا ضمير أو نفس حرة، ومن ثَم، فشلت الخبرة الكبيرة التي اكتسبتها خلال تنقلها في البلاد والأسواق في التصدي لتماسكها، وكي تنسف هذا الدمار النفسي، بدأت تُهامس ربّها في شأن أوجاع طفولتها وحرمانها، وتطلب منه

نجاة لأمها، و انتظرت استجابة منه أو إشارة، ومع الوقت شعرت أنه غير راض عنها، وإلا استجاب، وكان ذلك كافيًا لأن يتمم بداخلها قنبلة خبيثة، ينقصها نزع الفتيل وتنفجر لتنسف نفسها المعذبة، وكلما تستعطفها الأمنيات، كلما عقدت مقارنات بين اعتقادها في الرب وجسدها الذي ينصهر حزناً، فتتأكد أن الزمن القادم سيدفع بمزيد من المكائد، فحزنت وتألمت واجتاحتها حسرات مميتة، وقبل أن تفنيها الكآبة، فتشت في جسمها عن أسرار السعادة، فجنح فكرها المتوتر لتحويل اللذة الجنسية السمعية التي تتشدق بها البائعات، خصيصاً حين يتجرع الرجالُ الخمر أو يدخنون الحشيش أو يتعاطون الأفيون والبرشام، و انتهى فكرها لالتماس الراحة بذاتها من الجسد، وتنام راضية، وحين يغزوها الندم؛ تدعو ربها المغفرة و انتشالها من الشقاء، فتسجد لربها وتضرع نادمة ومستجدية العفو والغنى، وقد اعتقدت أن الرب هداها لمر اقبة أبيها، كي تعرف أين يخبئ ماله، حتى عرفت المخبأ، وأخذت المال باعتباره حقها وأمها المعذبة، وكنز الوصول لمحطة الأمان، لكنها اصطدمت بما لم يخطر ببالها، فكان شيئا أشبه بالجنون المظلم، فحين حكت لأمها عما فعلته، وأنها قررت أن يهربا معاً، جذبتها من شعرها وبصقت في وجهها وصرخت فيها:

- قذرة، لن أهرب معك ولن تفعلي، لأننا هنا نعبد ربنا، هل تودين صرف مال أبيك الحلال في مدن المجرمين، لم يأمرني ربي بعصيان زوجي أبدًا.

وأخذت منها المال وأعطته لزوجها، وسمعتها تؤكد عليه مرارا أن يخبئه في مكان آمن.

- كيف وجدته؟

- سرقه لص غريب عن الواحة وحين نام يرتاح قرب عين الماء القديمة، أرشدني الرب إليه.

- وكيف أرشدك الرب؟

- أوحى إليّ في منامي ليلة البارحة.

- وماذا فعلت في اللص؟

- تركته للرب يعاقبه كيف شاء.

كان على كاميليا بعد هذا اليوم أن تفكر في وضع نهاية لهذا العبث القاسي وتناجي أمها:

- لم فعلت ذلك يا أمي، فأنا لم أذنب حين فكرت أن أنقذك.

- لن يرحمك الرب يا بنتي، سامحيني يا كاميليا واستغفري ربك. وبهذا؛ شقت فريال لابنتها طريقا وعرًا، تنقب فيه عن بدائل قوية تزيح ضجرها العظيم وكآبتها القاتلة، وتمادت أكثر، فاستبدلت ذنبها الأصغر بالأدهى والأمر، وامتدت خيوط عينيها الناعسة لتبطش بوجه أي رجل، وحين تسنح فرصة مناسبة، يفور الدم في شرايينها ويطفح وجهها بالهيام الدافئ، وتحوم من بعيد حول فريستها، ولما تحين اللحظة المناسبة، وترى أبويها منشغلين، تتسلل نحو صاحب الكشك أو الدكان، فيلقفها، وتقضي معه دقائق ماجنة، متصورةً أنها تفعل الصواب، وظلت تعيش على هذا الحال وتحافظ بقدرما تستطيع على بكارتها حتى منتصف سنتها الثامنة عشرة، فقد تعثر حظها في دكان سنّ السكاكين بالمندرة، حيث ياقوت الأحمر، فمنذ أشهر كان يراقب كاميليا وأبويها، لأنهم يتخذون موضعًا قريبًا منه، وكنوع من اختبار كان يرمى إليها بكلمات غزل، فتردها ببسمة تواقة، ولما كان وجهها يُشع شوقاً للقائه، كان عليه أن ينتظر الوقت المناسب، وجاءت الفرصة، ففي يوم السوق الأسبوعي كان البرد قارصا، وفي أقصى الغرب من الأفق الأعلى كانت السماء مُلَبَّدةً بغيوم دكناء، وفي منتصف الأرض تحتك أشعة شمس ضعيفة برؤوس البشر، وكإنذار أوليّ دقت الأرض بضع حبات مطر ثقيلة؛ رفع الناس أعينهم للسماء، فأبصروا قرص الشمس متواريا خلف جبال مسطحة من السحب الرمادية، وتحاول أسهم الشمس كسر هذه الجبال لتخترقها وتمد الأرض بالنور، وكلما هزم الرعد كأن السماء ترتج، ثم هطلت أمطار ثقيلة دفعت الخلائق للاختباء تحت الشرفات، ويشتد المطر، ويرتفع منسوب الماء،

وينفذ من أعقاب أبواب البيوت، فيغرق مداخلها ويبلل محتوياتها، لم ينجُ من الماء غير بيوت قليلة، وينشغل رضا المغربي وزوجته في حماية البضاعة، حينئذ أعطاها ياقوت الإشارة بعينه، فانزوت وراء كومة بشر متجمعين تحت مظلة، تشاهد أمها وهي تدفع الماء بعيدًا، وترتجف وتنادي بقلب منقبض وأعين زائغة وصوت حيران:

- كاميليا؟ أين أنت يا بنتي؟

طاوعت كاميليا نفسها، وأعمت عينيها عن رؤية أمها المكدودة، وارتأت أن دقائق قليلة في دكان ياقوت ستمنحها دفئاً ونفسًا هانئة، وتشتد سرعة الريح الباردة فتطيح ببقايا بضائع لم يسعف الزمن أصحابها كي يحموها، وتمتص الريح العاتية صرخاتهم فلا منقذ ولا مغيث، ويمنعهم انهمار المطر الثقيل عن الرؤية، ويتسمّرون في أماكنهم حين ترجّ مسامعهم هدّة عظيمة في السماء، ولما كان الماء قد انجرف بعيدا عن دكانه؛ وقف ياقوت الأحمر يوارب الباب وينتظرها، والتفت مثل دودة ملساء تزحف على رصيف قديم مزدحم بالذين يشاهدون المطر، وحين اقتربت شدها إلى الداخل، وأغلق الباب وأطفأ كل المصابيح، وكان جوف الدكان دافئا ومشبعا برائحة المِسنّ، وتفوت من عقب بابه أشعة زرقاء باهتة، ومع طرقعة المطر وهبوب الريح كانت تشبع حاجتها من العناق، وحين جاءت لتنصرف، تصدى لها، ثم نظر للمتراس، فاطمأن لكونه مُحكمٌ بقُفل ضخم، فأخفت ندمها وقبلت يديه وسبّلت عينيها بعينيه ترجو رحمته، وتظاهرت بشيء من حب وهمست:

- اخلُ سبيلي، و آتيك كل سبت.

- تستغلينني يا أفعى؟ إن كنتِ كذلك، فستعرفين من أنا.

كان عليه أن يوقن؛ أنها منذ بدء اللقاء وهي تراوغه، من أجل هذا، ومنذ دخلت عليه وإلى الآن وهو بكامل ملابسه، ولم يستخدم معها العنف فتعرف أنه ذليل ملهوف، كما أنه أعد مسبقًا كل المطلوب لهذا اللقاء، فأزاحها وجلس على كرسي خشبي دائري قصير، تلتصق بحو افه شحوم سوداء جذبت برادة الحديد، قد صُممت قاعدته لتكون درجا لأدوات عمله وأشياء لإشباع غر ائزه، مدّ أنامله

الناعمة فيه وأخرج ورقة بفرة محشوة بالتبغ والحشيش، وأشعلها وارتشف نفسًا عميقًا، ثم أطبق شفتيه فجحظت عيناه، وبرزت أوعيته الدموية ثم هبط قفصه الصدري، ثم زفر الدخان ببطء شديد، وبينما تتوسله كان يكرر ذلك، حتى تشبع جوف الدكان بدخان الحشيش، فجثت تقبل يديه فاستنشقت أنفاسه الدخانية، وكالتي تعبده سجدت تقبل قدميه، وجعلت تترنم بآيات تستجدي مُنقذا نور انياً قد ينفلق جدار الدكان عنه ويخطفها، فتركها في سجودها، وأزاح ستارة عن حفرة هرمية بمنتصف الحائط، هُذبت حافاتها وقسمت لثلاثة أرفف، كان الرف الأسفل لجهاز وأشرطة فيديو والرف الأعلى للتلفاز، فانتقى شريطًا بعينه، ثم اطمأن على وصلات الكهرباء، وبثقة بالغة ووجه واجم، غرس الشريط في الجهاز، وتأكد أن صوت التلفاز مكتومٌ، ثم جلس على الكرسي، وبدأ الفيلم الجنسي، و انبثقت عن الشاشة إضاءة بنفسجية، ولما اعتدلت من سجودها، لم يكن في حسبانها أن دخان الحشيش أسكرها وخدر أعصابها، نظرت لشاشة التلفاز فعُبأت عيناها الناعستان بالأجساد العارية، ففتحت فمها، وزحفت على ركبتيها، قعدت أمام الشاشة تتفحص الصورة، ويميل عنقها في جميع الاتجاهات، فسقط منديل رأسها وبدا شعرها كلهب يقطر غراماً، وأحسها ياقوت، فنفث دخان الحشيش في وجهها ومال بعنقه نحوها، وبطريقة بشعة كريهة فض غشاء بكارتها، ولأن كل أطر افها مُخدرة؛ لم تدرِ بشيء، إنما شعرت بروحها تسافر بعيدًا، وكأن جسدها يغرق في طين لازب، ويمر الوقت عليها عارية والدم سائل على فخذيها، وهو جالس يدخن ويمسح عرقه بطرف قميصه القذر، وارتشف آخر نفس في السيجارة ثم رمى العقب على بطنها، واستخرج كاميرا تصوير فوتوغرافي من أحد الأدراج، ثم أضاء كل المصابيح والتقط لها عددًا من الصور، وأطفأ المصابيح، ووضع قدمه على فمها حتى أحسها تموت فتركها تتقلب ذات اليمين واليسار، وحين اصطدم رأسها بالحائط أحست بجسدها، فاعتدلت من نومتها وكان الضوء الأزرق وبصيص السيجارة الضعيف

هما نبراسها في رؤية جسدها العاري، وتحسست فخذيها فعرفت ما فُعل فيها، لم يحزن ياقوت عليها وهي تبكي، لكنه تساءل:

- أكنتِ عذراء يا امرأة؟

انكبت على وجهها تبكي، وهي لا تعلم، أن أباها كان يراقبها منذ ردت أمها إليه المال، وفي الآونة الأخيرة لاحظ توتراً يجتاح الأم خلال دقائق اختفائها، وكان يتظاهر بالبلادة حين يسمعها توبخها بقسوة لاختفائها بلا مسوّغ، وتدارك كذبًا في حديثها ونضوجاً سريعاً ودافئاً في جسمها، وليونة مضطردة في ايماءاتها، ونشاطًا زائدا وفعالاً في حركتها، فأيقن أنها اختارت درباً خبيثاً، فأعاد النظر في القصة المكذوبة التي سُردت عن اللص المزعوم، وبشكل متقطع كان يفتش في خزانة ملابسها عن دليل يثبت شكوكه فيها، وبوجه مظلم خنّاس كان يرمي نظراته الصيادة عليها، حتى أيقن أنها اعوجت عن الصراط المستقيم الذي يعتنقه، وقبل البدء في انتقامه منها؛ تدبّر خطة: ففي أثناء رجوعهم من يوم عمل، اتهم زوجته بالسرقة، فبكت و أقرت ببراءتها، وحين جاء يطردها من الحجرة تصدت له كاميليا، فزعق فيها أن تتنحى جانبًا أو تبيت معها في العراء، واختارت أمها، ووقفتا أمام الحجرة ترتجفان، وتظاهر هو بالنوم؛ ولم تشعر فريال بصوتها يعلو تتهم ابنتها بمعاودة السرقة، وتقسم كاميليا أنها لم تفعل، ولما سمعهما انتهى لقراره الأخير، أن يجيء انتقامه بطريقة نفعية، وقبل بزوغ شمس اليوم التالي خرج إليهما وسمح لهما بدخول الحجرة والاستعداد للعمل، ودون اعتذار أبلغ فريال أنه نسي حافظته الجلدية في الشكارة، وزاد من رد فعله البليد وهو يراقب كاميليا، واعتبرها منذ الآن غنيمة مباحة، كل ما ينقص فرصة قوية، ولما أطاح ياقوت الأحمر بعذريتها، وإذ يراها تخرج من دكانه، التوى يختبئ، وكانت تائهة، وصفراء الوجه، ومغتمة النفس، ومهتزة البصر، وتخشى الترنح والسقوط، ويشاهد أمها توبخها، وتهتز بين يديها وتضحك وتبكي وترتعش وتتقيأ:

- ماذا بك يا كاميليا؟ مالك يا بنتي؟

دب الفزع في صدر فريال، واعتقدت أن ابنتها حزينة لما يفعله رضا بهما، واشتد سعالها حتى طرشت عصارة معدتها، فاحتضنها فوجدتها باردة، وخشيت مناداة زوجها فينفر ويزمجر، فطبطبت على ظهرها، وأراحتها تحت مظلة حتى استفاقت قليلا، ولما عادوا، وفي الليل وبينما يفتش في خزانتها عثر على آثار دماء في ملبسها الداخلية، فوقف في ظلام الحجرة كشيطان يبخ شرًا مستطيرًا، وفي الوقت نفسه؛ كانت هي مغمضة العينين يلدغها العذاب، ودت لو قتلت أمها التي رفضت الهروب لاعتقاد الخوف من الرب الذي أمر بعدم عصيان الزوج حتى وان ظلم، كما قالت، والآن؛ وفيما تتمزق نفسها وتتقلب ساهدة متألمة، قررت أن تحيا على هذا النحو، حتى تسرق مال أبيها وتهرب حيث الأرض واسعة، ويتركها رضا تموج في أحضان ياقوت، الذي أمرها بتناول حبوب منع الحمل وفعلت، وفي أحد أيام السبت ولما انتهى ياقوت منها، سألته سيجارة محشوة بالحشيش.

- لماذا؟

- لا أراك إلا كل أسبوع، هل تبخل عليّ؟ ماذا أفعل إن أردت ضبط مزاجي.

وأخذت منه الحشيش، ولم يفت عليها أن تسأل عن كيفية السفر إلى القاهرة أو بلاد بعيدة، فما تزال تحوم حول سرقة المال، وكانت خطة رضا استغلال جسدها كي يتربح؛ طالما أنه تبرأ من بنوتها، وكانت فكرته تقديمها للعمل كفتاة ليل أو راقصة بملهى زنجو، أو بيعها حية لسماسرة أعضاء البشر، ولم يفكر مطلقا بمداهمتها في دكان ياقوت، لعلمه أن ذلك لن يكون غريبًا على زوار السوق الأسبوعي، وسيقع تحت طائلة اللوم، وربما قبض البوليس عليه، كما أن ياقوت فاجر ولن يخشى مطواته، والحقيقة أن الفائدة المادية هي الأمر الأعظم عنده، فلا ياقوت يهمه، ولا جسد ابنته، فالمال فقط يشفي غليله، وقرر الانتظار، فربما ظهرت عليها أعراض حمل، فلن يخشى حرجًا من أهل الواحة حين يرون أنه أب رحيم، وعبد مطيع لربهم الغفور، وسيجمعهم ليشاهدوه يخيرها بين الرحيل أو القتل، ومن ثم يستثمرها كما خطط، ومرّ الزمن والاثنان متربصان، ورغم

مر اقبتها القوية لأبيها كانت تفشل في العثور على المال، لأنها لا تعرف أنه ومنذ زمن وضع أمواله بأحد البنوك في مدينة بورسعيد، فمسها التسرع والغضب، وشرعت تنقب داخل وخارج الحجرة ولا أثر للمال، ولما ارتأت في أبيها معاملة مشبّعة بالمكر والغل والشماتة، ضاق صدرها، وقررت الرحيل ولو بقليل من المال، ولم تجد بدًا غير ياقوت، فطلبت منه بعض المال، فبصق بوجهها ثم مد عنقه كضبع يزمجر، ثم شدها بعنف، وطالبها بثمن متعتها في دكانه، فارتعبت منه وارتدت عنها كلمات اعتذار، وكان البديل أن تسرق من البضاعة، ولما ادخرت مبلغًا من المال، وقبيل فجر أحد أيام الخريف؛ اطمأنت أن أبويها نائمان، فعبأت ملابسها في شكارة، وتسللت هاربة، ولمحت على الإسفلت شبحًا آدميًا ينفث دخانًا، فحسبته أباها، فارتدت عائدة، ولما خشيت دخول الحجرة بهذه الهيئة، انحرفت تلهث في الشرق من الواحة، وتغرس قدميها في الرمال وتهرول، وقبل أن تتلاشى الواحة، كان رضا المغربي يناديها:

- كاميليا! هل حضرت الآن للصلاة بين يدي الرب.

فشهقت وعجزت عن الحركة، فركلها بقدمه، وأحست بعمودها الفقري ينكسر، وسقطت على الرمال خرساء بغير حول ولا قوة، واستخرج مطواته، وشق جلبابها يفتش.

- أين مالي، يا بنت الشيطان؟

أفرغ الشكارة وأضاء كشافًا يدويًا، فعثر على حافظة جلدية، وفيها وجد المال وسيجارة، فضرب وجهها بنور الكشاف وضحك شامتًا، وجرها نحو حجر مستوٍ، وأمرها بالنوم عليه، ولمعت قباب عرقها تعكس ضوء الكشاف، فضحك كالمسعور وأشعل السيجارة، وتذوق الدخان وبلعه:

- حشيش ياقوت!

في نصف دقيقة اكتظّ صدره بضغن مُستَعِر، فاعتلى الحجر واعتلاها، وأخبرها أنه عارف بسرها قبل دخولها دكان ياقوت، وتهجم ريح باردة، ويرشف

نفسًا عميقًا من السيجارة، وتحفز الريح مفعول الحشيش فيشعر كأن ثعبانًا يلتف حول دماغه ويسحب عقله، فيفحُّ مغلولا:

- ابنتي ماتت يوم تلقفتها أحضان الرجال، أما أنت فلن أقتلك، فإنني وفي كل دقيقة سأمتص قطرة من دمك، وأسحب من نور روحك حتى تنطفئ. فتح فمه وتدلى لسانه وتساقط لعابه، وفي هذا الآن ازرقت السماء، وجيء صوت امرأة عجوز من نسوة الواحة.

- يا ربي، ماذا أرى، هل جننت؟

تفلتْ عليه، واستدارت تصحب ماعزها وتهرول صوب الواحة، وهي تصرخ:

- و أقسم بالرب لأفضحنّك يا رضا.

سعى وراءها، ولما رفضت استماعه، طوح بالمطواة يحذرها، فصفعته على وجهه، وعلا صوتها، وخطفت الريح الباردة بقايا تماسكه، وطعن حنجرتها بالمطواة فأرداها قتيلة. في رعب عظيم تراه كاميليا يدفع الحجر المسطَّح، ثم يحفر الرمال بيديه ويدفنها، ثم خلع كوفيته ولف بها المطواة ووضعها في الشكارة، ويدور بعنقه في كل النواحي ليطمئن، وعادا البيت، وسألته فريال عن أين كانا.

- كنا في المعبد.

تظاهرت بتصديقه، وحملت البضاعة، وسافروا للعمل، وبقي الصمت مطبقًا لأيام، حتى أمر زوجته أن تسافر وحدها، و انفرد بكاميليا وحدثها عن نسيان كل شيء، فأومأت قبولًا. كان عليه أن يمتثل للهدوء مؤقتا، فلو بدر منه أو ابنته فعلٌ ملفِت، لن ينجوا من سكان الواحة، لأنهم بعد التفتيش عن العجوز؛ وعدم العثور في الواحة، بحثوا عنها في المدن والقري المجاورة، ولما ظنوا أنها تاهت، بلغوا البوليس لمساعدتهم في العثور عليها، فلم يخطر ببال أحد أن عجوزًا مسالمة قد تقتل، ولن يصدقوا أبدا أن قاتلها من أبناء الواحة، لكنهم بعد انتشار رائحة الرفات، عثروا على جثتها، وحين حاول ضابط البوليس استجواب من في الواحة، لم يجد فيهم جميعًا غير ندم على إحضاره، ولا يصدر عنهم سوى قول وحيد:

- نحن سنعرف ونبلغكم.

استاء من تصرفهم، وانصرف مُحذراً من إخفاء شيء يعرفونه، لكنه اقتنع حين أكدوا له:

- نحن مسالمون، لم يقتلها أحدنا، لو كنا كذلك لما أحضرنا سعادتك، فنحن نثق فيكم.

واعتقد أهل واحة إكنار أن أحد مجرمي المدن قتل المرأة، ودعوا ربهم بالانتقام الشديد، وكان تصرفهم مع البوليس لخوفهم على بعضهم البعض، وأنه مستحيل أن يفرطوا في أحدهم لمجرد أن يشك فيه البوليس، فهم واثقون أن القاتل غريب، أما لو كان منهم لأقاموا عليه حد الرب، ولم يتغير شيء في نهج عائلة رضا المغربي؛ سفر وعمل شاق يوميًّا، ولا جديد سوى أن كاميليا انتابتها حالة صمت وطاعة عمياء لوالديها، وامتنعت عن الذهاب لياقوت الأحمر، وبدوره اعتقد أنها لا تأته لأنه لم يعطها المال، وفرحت الأم بها وتمنت لها السعادة، وهي لا تعلم أنها منذ سُرقت عذريتها يراودها الكفر بالرب، لكنها كانت تمسك عن هذا، إلى أن جاءت الدقائق التي رأت عنق العجوز يمزَّق بمطواة أبيها، فاتخذت من الصمت غطاءً تخفي وراءه أنهار دموعها المكبوتة، وآهات ذلها القديم، وكان ذلك أسهل طريق للكفر المبين بالرب، فكفرت بربها سرًا، حتى تحين فرصة الخروج من واحة إكنار، ولما أتمت التاسعة عشرة، ورغم صمتها الحزين الدائم، بدا جسمها مثيرًا، يفور فيه الدم فيشرق وجهها الخمري المستدير، والمزخرف بشامة رقيقة على طرفِ خدها الأيمن، وعلى الدوام تندى ذقنها الدائرية اللدنة التي تعلوها شفتان رطبتان، أما عيناها فواسعتان وسوداويان وصافيتا البياض، ومكسوتان برموش شديدة السواد، ويرتعش وجدانها خوفًا حين تستشعر أن رجلًا يرميها بعينيه، فتجتهد في مواراة صدرها المكتنز، الذي يُحس لدنًا حريري البشرة مهما دثرته، لا عظم ولا وريد يطل من عنقها المدملج، وخصرها كقطعة مجزوزة من غصن ليّن، وإن مشيت كأن قدميها يترنمان بإيقاع هادئ يسحر النفوس، وتزوغ الأعين نحو جبينها الضيق

الأَبْلَج، وخصلات شعرها الأسود. وحين رآها نصر الله نمرود؛ أحس بقلبه يطرب لها، وسأل بعض زبائنه عنها، وعرف أنها بائعة تجيء مع والديها كل جمعة ويبيتون لسوق السبت، فتعجب لكونه لم يلتفت لها منذ زمن، وأدركته لهفة دائمة لرؤيتها، وعذبه شوقه إليها، وبات ليالي ساهدًا يتفكر فيها، وفي كل مرة يراها يوقن أنه مغرمٌ بها.

(١٤)

واسعة ورقراقة؛ في الليل تلمع كنجمة خجولة تستوطن قشرة الصحراء، وحين تصبح؛ يكون سطحها أزرق فضيًّا، وتستقبل الشقشقة بوجه سماوي بشوش، وتحوم حولها طيور أليفة، ويجيئها الناس والحيوان؛ تلك عين الماء الساكنة في الطرف الشمالي لواحة إكنار، وليست هي مصدر الماء الوحيد هناك، فقد جلب الناس طلمبات يدوية وغرسها كلٌ في ملكه، وحين اتخذوا قرارًا بإنشاء سياجٍ مربع المحيط ليكون مأوى للحيوانات، فُصلت المساحة المأهولة عن عين الماء، وكان من بنود خطتهم استخدامها في الزراعة، خاصة أن نموًا خضريا قصيرًا بالغ الصفاء والوداعة يتشتَّتُ حولها، ويصدر عطرا، فتنشرح الصدور مهما اشتدت حرارة الشمس، أما الكهرباء فبلا ثمن؛ لأنهم وصلوا أسلاكهم الرفيعة بالأخرى السميكة والمشدودة بين أعمدة الكهرباء المحاذية للطريق الإسفلتي؛ فأناروا بيوتهم، وعلقوا بضع لمبات تبث نورًا بالليل، وفيه؛ كان رضا المغربي وزوجته وابنته عائدين لبيت لا تزيد مساحته عن عشرين مترًا مربعًا، من حجرة واحدة، جُلب طوبها الأحمر من مصنع على مسافة بعيدة من الواحة، وترتاح النفس والعين لتلك الحجرة، فالجدران نسيجها أسمنتي صافٍ؛ والأرضية مغطاة بسجادة وبرية، تنام عليها كاميليا وتسند رأسها على مخدة محشوة بالقش،

وإلى يمين الباب مباشرة، سريرٌ خشبي متوسط الحجم، عليه مرتبة نظيفة تغطيها ملاءة أرجوانية رخيصة، بالإضافة إلى مخدة بيضاء وبطانية رمادية، ويُستخدم فراغ أسفل الفراش كمخزن بضائع، وعُلقت على الحائط سلة كبيرة، تحوي خبزًا جافًا وجرة جبن شديد الملوحة، ويجاورها صندوق خشبي صغير، به شموع وعلبة ثِقاب وأكياس سكر وشاي، ومن الناحية المقابلة للباب يستند على الحائط دولاب خشبي لملابس الزوجين، وخزانة مربعة لكاميليا، وفي الجوار منضدةٌ

صغيرة؛ عليها أو اني الطبخ وموقد غازي يُملأ على فترات متباعدة لقلة استخدامه، ومن الناحية الأخرى للحجرة غرس رضا الطلمبة، و أنشأ دورة مياه صغيرة يُفرغ محتواها يدويًا.

وحين دخلوا؛ تنهدوا ليتخلصوا من عناء السفر، وجلسوا قبالة الفراش، وترى فريال زوجها متفكرًا بدرجة لم تعهدها، فكلما ابتلع ريقه، تمدد عنقه الطويل، ثم شَهَقَ وزَفَر كأنه يقذف همًّا ثقيلًا، وحين فتح الأكياس الورقية التي أعطتها له بديعة؛ انتشرت رائحة الفاكهة، واستخرجها يمتع عينيه بألوانها الناصعة، فيقضم من حبة التفاح ويطحن القضمات بضروسه ويبتلع، وتشاهده كاميليا فتومئ وتتفكر، وتتأكد الأم من سر يخفيانه، لكنها لا تقدر على الحديث. أكل حبة من كل نوع ومسح شاربه،

وأشعل سيجارة كان يختزنها تحت المرتبة، وبينما يرتشف الدخان تحدث بلسان الحكمة، واصطنع مشاورة ابنته في أمر بديعة و ابنها، وبينما يتكلم؛ كانت يده تمتد في الأكياس يتحسس الثمار ثم يسحب منها ويأكل، ولما ثقل تنفسه أنهى الحديث بالموافقة على الزواج، فأشرق وجه كاميليا هنيهة ثم انطفأ، وأشار بإصبعه نحو فريال وتحدث في شأن أهل إكنار، فحين يسألونهما، سيكون جوابهما أن كاميليا هي من اختارت، ولا شيء يمنع ذلك، طالما أنها لن تغير عقيدتها، وربما كان في هذا الزواج نفعٌ كبيرٌ للجميع، وكما الصرخة تندفع كلمة من فم الأم:

- كيف؟

- وهل يمنع الرب ذلك؟

وخوفًا منه تظاهرت بالنوم قبلما تنساب دموعها الحزينة، ولأنها عارفة بمدى كراهيتها لأبيها اعتقدت أنها و افقت على الزواج تخلصاً من بخله وقسوته وفظاظة سلوكه، وخلال المهلة الزمنية، اتفق رضا مع كاميليا على نسيان الماضي وكتمان سره للأبد، وتظل على إيمانها بعقيدة أهل إكنار أو تكفر فهذا لا يهم، وكانت فريال تدعو ربها أن تنزل على المندرة صاعقة فتدمرها، أو يصبّ الرب غضبه على

بديعة فيحرمها بصرها أو يفنيها بولدها من الكون، ولم يقع شيء من هذا، ففي الموعد المحدّد، سافرت مع زوجها إلى المندرة، وكانت بديعة تنتظرهم، تزين بوقفتها ناصية الحارة، وترتدي جلبابًا حريريًّا أحمر مُجسمًا، وتكسو رأسها بمنديل أبيض، تطل منه جدايل شعرها المصبوغ بالحناء والمدهون بزيت الزيتون، ودهنت شفتيها بالأحمر الوردي، وكأن وجهها شمس ناعمة، وتاج كريم لقدّها الفاتن، وأدخلت قدميها بحذاء أبيض، تطل أناملها الرشيقة من طرفه المشجوج، وفي معصم يدها اليسرى ترتدي ساعة تعكس نورا نحاسياً، وتتراص أساور الذهب الوهاجة في رسغها الأيمن فتضفي لحسنها مهابة وعزاً، وكان بجوارها (سليمان عبد المنتقم)؛ يرتدي القميص الأحمر الذي أخذته من بضاعة عائلة العروس، وسروالا أسودَ وحذاءً أبيضَ، و انحنت كالتي تقبل خده وهمست تسأله:

- أين موسى؟
- لن يجيء.
- لماذا؟
- حين قلت له شتمني وقال: "اخرس يا نذل، هل جننت؟ موسى الرومي لا يذهب لإكنار أبدًا".

فضحكت حتى بانت نواجذها، وتبسم كل الذين سمعوها، وجاء الوالدان، وترتدي فريال جلبابًا زهيدًا مزركشًا بالورد الفاقع، وغطاء رأسها طرحة سوداء، وحذاء بلاستيكيا بنفسجياً، بينما الآخر مُهذَّب اللحية والشارب وجلبابه رمادي نظيف، ورقبته ملفوفة بكوفية بيضاء، وفي قدميه حذاءٌ أسود لامع، وحين استقرا أمامها، سألتهما عن العروس، أجابها رضا:

- في الواحة.

ثم تحدث عن الأصول في الزواج، وأنه يتوجب على العريس وآله المجيء وأخذها، فكان يظن أن بديعة ستعطيهم مهلة أخرى ريثما تستعد، لكنه وقف مشدوهًا حين سمعها تقول:

- لا تقلق يا رضا، سيتم الزواج اليوم، فقد خبرتني عيناك ووجه كاميليا.

ثم نظرت لزوجته وقالت متعجبة:

- هل يعقل هذا؟ لم أعرف اسمك حتى الآن.

- فريال.

همست في أذن (سليمان)، فغاب دقائق وعاد يهز رأسه فرحا، ثم حضرت سيارة بيجو أجرة وفيها نصر الله، وخلفها سيارة نصف نقل، على متنها أخوات العريس البنات، وأبناؤهن، وبعض جيران وأطفالهم، وفرقة موسيقية عددها ثلاثة، وكلهم في حبور مُطلق، ووجوه الأطفال نضرة، وعيونهم الباسمة تشع مسرة، ويقرمشون حلوى وتنساب من أجسادهم غبطة، وتتلألأ أسنانهم، وتتدفق ضحكاتهم مدموغة بالبشرى، وترش أخوات نصر الله الملح في الهواء، فبدت حباته المنهمرة كقطع بَرَد ناصعة تسقط من السماء، وحين تصطدم بالأقدام والأرض يرتد صداها المطموس كترياق بهجة، وعلت الزغاريد والصيحات:

- ملحة في عين الحسود!

إن تلك الدقائق من الفرح تنفذ لكيانات الناس جميعا، سواء الذين يقطنون بحارة سيدي جلال، أم الذين أوقفهم حسهم بفرح قادم، فوقفوا لينالوا حظاً من الحفل النهاري المفاجئ، لا سيما ليونة الجو الصيفي، فصفحة السماء زرقاء صافية، والشمسُ رقيقة، والنسيم هادئ ويخلو من العفر، وجاءت سيارة أخرى على متنها أزواج أخوات نصر الله، وبعض أقارب ومعازيم يعشقون المغامرات والسفر البعيد، وحين ظهر العريس يرحب؛ تبدل النسيم لعاصفة من الزغاريد، وبدا نصر الله سعيدًا، ومهندم اللباس، ويرتدي حُلة سوداء جديدة وقميصًا أبيض، ورباط عنق توتي، وحذاء أسود، ومع دق الطبلة صفّق الجميع، وعلى متن السيارة خلعت واحدة من النسوة غطاء رأسها وحزمت خصرها، وثار شعرها الطويل وهي ترقص، وينثر الملح تارة أخرى على الدائرة البشرية التي صنعها الرجال وتوسطها العريس، ويناوله أحدهم عصا، ويرتفع نبر الدفّ ودقّ الطبلة ونغم المزمار

وتشتعل ناصية الحارة رقصًا وتصفيرا، ويبرع نصر الله في التمايل والتحطيب ويبادله (سليمان) الرقصة، وتتجمّع النسوة يصفقن، ويزغردن، وتقودهم شابةٌ مشهورةٌ بحسن طلعتها، وحمرة خديها، واكتحال عينيها، وجلبابها الأخضر، ويرتفع صوتها المرن الخفيف، تغني ويرد عليها الحضور بصوت رنان:

- عند بيت أم فاروق.
- هاي هاي.
- الشجرة طرحت برقوق.
- هاي هاي.

وتتصارع جزيئات الهواء مع صدى الغناء، ويفاجأ الكل بنصر الله يضع العصا فوق أنفه، ورغم سرعة الإيقاع كان محترفا في الرقص بهذه الوضعية الصعبة، والذي أدهشهم وجعل صيحاتهم تعلو، مباراة (سليمان) له بمهارة فائقة، فوقفت بديعة عند دكان الحلاقة تستمتع بمشاهدة الحفل، أما فريال؛ فأحست أنها في حفلة تنكرية، ومنعها طنينُ الخوف من سماع الغناء ورؤية العريس الفرحان، فشعرت بصدرها يتحول لعُمق أسود، وتحاول التماس نبضها المرتعب من فراق كاميليا، وتعتلي قسماتها عورةُ الخوف فتومئ أرضًا حتى لا يراها أحد، وكان رضا المغربي يصفق متفكرًا، وخلال الحفل الذي ظل قرابة الساعة كان أزواج بنات بديعة يوزعون سجائر، ومشروبات غازية، وحلوى على الحاضرين والعابرين، وألقت بديعة نظرة في ساعتها، فتذكرت ما قيل عن بعد المسافة، وطلبت من (سليمان) أن يبلغ الزمّار بالكف، فأومأ الزمار قبولا، وقلل عزفه تدريجيا كأنه يستأذن الحضور بالانصراف، ثم ركب أعضاء الفرقة الموسيقية في سيارة النساء، كي لا يتوقفن عن الغناء طوال الطريق، وفي سيارة البيجو انتصفت بديعة المقعد الخلفي بين ابنها وحماته، وجوار السائق كان رضا جالسًا، ليرشده نحو أقصر طريق للواحة، وركب (سليمان) في سيارة الرجال، وتحرك الموكب، وخشعت قلوب الراكبين جميعًا، وشرعوا يقدمون إشارات الوداع لأوجه الناس في

النوافذ والشرفات، والمارين في الشوارع، والواقفين على نواصي الحارات وفتحات الأَزِقّة وأصحاب الدكاكين، وظلوا على حالهم هذا حتى بدأت المندرة تتلاشى، وينظرونها من بعيد تختفي كأن الأفق يبلعها فتتجمد قلوبهم، ويصيبهم خوف، مسوغه الوحيد جهلهم بنهاية الرحلة، غير أن نور النهار خفف قليلًا من وطأة الاضطراب، وعادت النسوة لفرحتها الأولى، وأشارت واحدة إلى صاحب الطبلة فنقر عليها، واشتعل الموكب غناءً، لكن ومع تمايل السيارة وكأنها تموج في بحر جيلاتيني ويحف بها الخطر من كل جانب، تذكرت النسوة ما يسمعنه عن هلاك الناس في حوادث الطرق، أو أن عصابات إجرامية تقطع الطريق وتخطف الأطفال وتقتل ذويهم وتمثل بجثثهم.

ومع سرعة السيارة نزع الهواءُ أغطية رؤوسهن، وكُشفت شعورهن فتظاهرن بالضيق، ومع ذلك لم ينقطع نقر الطبلة ونغم المزمار، ولم يشاركهم الأطفال ذلك اللهو القاسي، إذ تقيّأ معظمهم على جلابيبهن، وارتفع بكاؤهم وأصروا على احتضان الأمهات، وتحول قرص الشمس لدائرةٍ برتقالية، تلفح الجباه بوهج لئيم كأنها تتوعدهم، وتمددت السحب القرمزية في السماء كغرابيب جبارة ستسقط على الأرض وتجعل عاليها سافلها، وبرز نصف القمر في أقصى الآفاق، كأنه يأمر الشمس أن تغيب ولا تشرق بعد هذا النهار أبدا، وتسربت رائحة الرعب من أعين الأطفال إلى قلوب أمهاتهن، اللائي يشاهدن الشمس يتبدل لونها للأحمر وتتجه بسرعة عجيبة نحو الغرب، ثم كأنها سقطت في فجوة لا نهائية، وجن الليل عليهم كوطواط بغيضٍ سينهش الأجساد بمخالبه؛ وصمت الغناء وارتكن أعضاء الفرقة الموسيقية على حديد السيارة الساخن، ورغم تخبطهم في أجسام النساء، وشعورهم بالريح السيئ المنبعث من الموتور، انغمسوا في النوم، وتتحرك أعين الباقين في الأحراش المظلمة على جانبي الطريق، ونادرًا ما ظهرت بقعة ضوء، أو نارٌ أشعلها بعض الفلاحين لحراسة ماكينات الري. قعدت النسوة وكف الأطفال عن البكاء وجعلوا يتسمعون الريح، وفي السيارة الأخرى؛ كان (سليمان) يشاهد الظلامَ

دون رهبة، ويتذكر قصة واحة إكنار التي حكاها موسى، لكن الرجال تقلصت أعناقهم، وتجلدوا كجثثٍ يابسة تتشوق نهاية الطريق لتسترد أرواحها، وكلما تراءت أضواء قرية أو مدينة تنشرح صدورهم، وتعبر السيارة فيخيب أملهم ويتسرب الضيق لصدورهم فينفخون غيظاً.

ثرثروا معترضين عن هكذا تواجد وسفر بعيد، يأمرهم أكثرهم تعقلا بالصبر، ويذكرهم أنهم جاؤوا لحراسة النسوة والأطفال، وتطول المسافة، وكلما نظروا يمينا ويسارا، فلا شيء غير ريح ومحيط ظلام يلتصق بالأعين والأجساد، ويضيقون ذرعا، وغصبا يسكتون، كأنهم فصلوا عن الكون، أو كأن بساط ريح أسود يطير بهم نحو مجهول مخيف، ودونما سبب أقحموا أنفسهم في مشادة عنيفة، وكأنهم يحاربون الخوف والظلمة فيزعقون، ويدّعون القلق على النسوة والأطفال، وقبل أن تتحول المشادة إلى عراك بالأيدي، رأوا بؤرة نور تقترب، وتهدأ سرعة السيارة. صمتوا منتظرين الفرج، وتنهدوا بأريحية حين توقفت، ونسوا المشادة والخوف، وبنزول نصر الله ومن معه تأكدوا أنهم وصلوا؛ فنزل الرجال وتركوا (سليمان)، أما الفرقة الموسيقية فكانت نائمة، والنسوة تحتضن أطفالهن، وفي بقعة ضوء هزيل وقف الرجال كأشباحٍ واهنة، وسَتَتَعْتَعُ أنفاسهم إذ اكتشفوا أن الوقوف لإراحة السيارات فالمسافة المتبقية طويلة، وينضم الكدر للضيق. فالبِقالة الوحيدة كان صاحبها يهم بإغلاقها، ويرجوه نصر الله الانتظار ليشتري سجائر وأطعمة، ولم يعره اهتمامًا وانصرف، فوضعوا أيديهم على أكتاف بعضهم ورفعوا وجوههم نحو السماء فانعكست أجسادهم كأفرع أشجار سوداء مصلبة، ومددوا أسماعهم نحو السائقين وهم يتهامسون بشأن عثرات خطرة في الطريق، وتتدخل بديعة بذكاء وصوت مرحٍ لتشجعهم على المضي دونما هكذا بلادة، وتضرب لهم المثل ب(سليمان)، فهزوا رؤوسهم خاضعين، وكي ينتزعوا منها بسمة، تكلموا بمنطق الفروسية وبأصوات جافة:

- نحن لا نخاف.

قبل أن تبرد مو اتير السيارات تحرك الموكب المضطرب، ويضيق الطريق وكلما ترنحت سيارة استيقظ الأطفال يصرخون، وتمر الدقائق كأزمنة عسيرة لا نهاية لها، ولا شيء في الأفق غير نجوم رصينة كحصار سماوي قابض على الصدور، وعلى جانبي الطريق ظلام أزرق لا يلوح في آفاقه شيء أمين، ولا حلول غير الانتظار وسماع الخفقات والحفيف، وحين يصدم عجل السيارات مطب مفاجئ؛ تتيبس الأجساد، وتُكتم الشهقات، وفي السيارة البيجو؛ ورغم تيقنها من حزن فريال؛ لم تختلق بديعة حديثًا فارغا، وكانت تتفكر في كاميليا التي استشعرتها تخفي لغزًا غامضا، ومن النافذة يتأمل نصر الله الأفق البعيد، وقلبه تواقٌّ لكاميليا، ويسري بينه وبين نفسه حديث صامت عن استحقاقه للفرح في السنين القادمة، ومع انتصاف الليل، سُمع هديج الفرامل فتطلعت الرقاب، وتصطدم الأعين بمصرف مائي، ورغم شحوب الضوء تبينوا أن سطحه رخوٌ وعمقه مشبع بالطحالب الكثيفة، فصمتوا يتسمعون بقبقةً مريبة تأتي من ضفتيه، يمتزج فيها صرير فئران وخربشة قطط، و انتبه الجميع حين قالت فريال:

- وصلنا.

أطلقت بديعة زغرودة طويلة كأنها تأمرهم باستعادة الفرح، فاستيقظ أعضاء الفرقة، ومع حاجتهم الشديدة لاستبيان الأمر؛ شرعوا يعزفون، وساروا جميعا بمحاذاة المصرف حتى بلغوا نهايته، ثم استداروا على أرض طرية، فالتقطت نعالهم طينا ورملا، وتستدعي النسوة همّتهن، ويجابهْن الضعف والنور الشاحب، ويحاولن رؤية الواحة المحاصرة بالصحراء، والمتصلة بالعالم من خلال الطريق الإسفلتي الآتي من غرب الدلتا، ويمر بمحاذاتها متجها نحو البحر. رأوا الواحة تتكون من عدة حارات ملتصقة، وأغلب بيوتها من طابق أسمنتي وحيد، وبيوت أخرى متناثرة وهي من الغاب والخوص، وتدور أعينهم ليتحققوا من رائحة الروث، فإذا بسياجات من أفرع الأشجار، والحيو انات بداخلها أوثان سوداء نائمة، ويتعجبون حين تهش بذيولها لتدفع البعوض والخفافيش، فيدركون أنها كائنات

يسري فيها نبض الحياة، ويزيد إدراكهم بتلك الحقيقة، حين تنبح الكلاب التي تحرسها، وبأجسادهم المنهَكة ساروا متظاهرين بالغناء والرقص، واستيقظ كثيرون ولم يخرجوا للمشاهدة والمشاركة، فطلّوا من نو افذ بيوتهم لرؤية الحدث الليلي الطارئ، ولم يطُل تساؤلهم، فحين رأوا رضا وزوجته، عرفوا أن هذا الغناء الضعيف من أجل ابنتهما، التي تقعد وحيدة عند باب الحجرة، وترتدي جلبابًا أبيض، وكانت تعتقد عودة أبويها فقط، وكلما اقترب منها صدى الغناء انبثق منها العرق باردًا، وتدعو ربها أن يكون الغناء لأجلها، وتقترب بديعة، فيتحول وجهها لهالةٍ بيضاء، وتقاطرت حبات العرق من كفيها، وتفقد كثيرًا من تماسكها، فلم تدرِ بنفسها وهي تقف لتلقفها بديعة في حضنها، والتف الجميع حولهما يزغردون، فلو عاشت كاميليا مئات السنين تفكر في تلك المباغتة التي أسكرتها من فرط السعادة ما توصلت لنتيجة، فتتأمل وجه بديعة وترمش عيناها، وتلمع حدقتاها ويرتعش حاجباها من الفرحة، ويرتبك رضا المغربي حين يُسأل عن مكان يرتاحون فيه، وعن الشربات، والعشاء، و أقارب العروس، والمأذون، وتلحظه بديعة يتلعثمُ وتتخبط شفتاه، فتذهب إليه وتستفهم، وبصوت خفيض مضطرب، شرح أنه بلا أقارب، وفقيرٌ لا يقدر على إعداد طعام و إقامة عُرس، كما أنه لم يستعد لهذا، ولا يملك بيتًا يتسع لكل هؤلاء، وسكان الواحة نائمون، فأخفت استياءها من كذبه ومكره، ثم هزت رأسها تقرر:

- لا عليك.

كان عليها أن تُفكر أنّى لها بإطعام الأطفال وفرقة الغناء والسائقين، فسألته عن أقرب مكان يبيع طعاما فأخبرها، وأشارت لسائق سيارة الأجرة فهرول يلهث، وكي تنفذ كلماتها كأمر واجب، وضعت يدها على كتفه وهمست تطلب طعامًا وسجائر، وكان سعيدًا وهي تعطيه مبلغا من المال وتأمره ألا يتأخر فالأطفال جوعى، ولم يمضِ زمن يُذكر على آل العريس حتى أسكتهم الجوع والتعب، فتناثروا نياما إلا (سليمان)، وسألت بديعة عن حل مشكلة المأذون وعقد القران، فنظر الأبوان

لبعضهما في ارتباك، وتجحظ عينا رضا لزوجته كالذي يأمرها بالتصرف، فتنزع فريال بسمة صفراء من وجهها، ثم تخبرها أن أمرًا كهذا لم يكن في الحسبان، فتستغرب من الغموض والتشوش الذي أحسته فيهما وتسأل:

- ألا يوجد مأذون هنا؟

وسمعها (سليمان) فتبسم، وينظر لرضا فيراه يتلجلج ويدعي أنه محرج وآسف، ثم استأذن في الذهاب للإسفلت ينتظر عودة السائق بالطعام، وتكومت فريال أسفل جدار تترقب، ويمر الوقت غريبًا، وتتأمل كاميليا نصر الله مستندًا على الجدار، نائما وفمه مفتوح، و(سليمان) جواره متيقظٌ كالذي يحميه، ورغم ضيقها انفردت بها بديعة تهامسها عن السعادة المقبلة، ثم سألت:

- أشعر بموعد الفجر قد حان، أين المسجد؟

- لا يوجد في إكنار شيء كهذا.

ينكفئ وجه بديعة أرضًا، ثم تتلاقى عيناها بوجه (سليمان) الذي بدا يعرف أسرارا، وكانت تتفكر في الغموض الأزرق الذي يسربل هذه الناحية، وتكتشف أنها منذ وطئت هذه الأرض، التمست عالمًا سحريا، أو مسها شيطانٌ ينفث فيها زفرات كريهة تتمدد وتلتف حول بطنها، ثم اخترقتها كفيروسات وبائية، ولكن سرعان ما يتبدل إحساسها لموجات عطرية ساخنة حين تنظر لوجه كاميليا، ووَدّت لو أشعلت سيجارة لكنها كتمت ضيقها وتبسمت. عاد رضا والسائق يحملان الطعام، فاستيقظوا جميعا على رائحته، وانقضوا عليه ونسفوه في دقائق، ثم تمددوا نائمين، ولم يفت على بديعة أنه لا بد من عقد القران وإنهاء المسألة، وعلى الرغم من تعب السائق وإرهاقه الشديد اقترب منها كثعلب ضعيف، وأخذ يشبع عينيه من عودها اللين ويتفحص وجهها الرطب وتنزلق منه كلمات التمني .

- أية خدمة أخرى؟

بدهاء مَرِن عرضت حاجتها لمأذون، فنظر في الأفق يتفكر، ثم أخبرها أنه قادر على إيجاده مع شمس الضحى، وما يحتاجه بعض المال لشراء البنزين، وقبل ذلك

يرتاح قليلا، فأعطته مطلبه وأمرته ألا يتأخر، استأذنتها كاميليا لتوضب أغراضها القليلة وتستحم استعدادًا للرحيل، فربّتت على كتفها ثم تركتها، وهمست في أذن (سليمان):

- لا تترك نصر الله.

وجعلت تتمشى بالقرب من المصرف، وألقت نظرة دائرية على الواحة كلها، فاستبصرتها كطير جارح عملاق، كان في الأعالي البعيدة، وإذ حطّ هنا تفتّت جسمه و أنشأ حجرات متلاصقة، ونسج ريشه أسطحها، واخترقت عظامه الأرض، و أقامت دعائم صلبة تثبتها في الأعماق الغائرة، و انصهرت بر اثنه ثم أعيد تشكيلها لحائط معدني مستدير، كسحابةٍ حديدية تعتني بها وتحميها من الأعاصير، واصطفت الحجرات في حواري معدودة، يحاصرها نخيل شديد الارتفاع، وبرفق تتحسس بديعة ذقنها بإصبعها؛ كالتي تتساءل عن سرٍّ رهيب يختبئ في بطن الواحة، وأومأت أرضًا، تبحث في صدرها عن بصيرة تنفذ لهذا المجهول، أو ينقبض قلبها فيدرك سرًا، فتمشت بغير هدى، وداعب النسيم خديها، ونظرت لأعلى، فإذا بالليل يتقهقر، ويحتل السماء رطبًا وناعمًا وجزيل الزرقة، وكلما باراها الإرهاق؛ تناسته وتمشت، وعندما خبطها هواءٌ جاف تنفذ منه رائحة البحر، أدركت أنها تخطت حدود الواحة. نظرت وراءها لتطمئن، رأت أناسا يسيرون نحو الإسفلت، وخلفهم أغنامهم فهزت رأسَها استبشارًا، وأكملت الخَطْوَ وكأنها تصاحبت على المكان، ونظرت عند قدميها فرأت بلورات رملية شديدة اللمعان، ونظرت أمامها فرأت مُسطحًا هائلًا من الصحراء البيضاء، يرتد عن قشرتها نور أزرق، يباغت الأرواح بمسرة ويفتح في القلوب أبوابًا خضراء، فتتفاءل الأجساد وتقبل على الحياة، وينسى كل ذي كدر مآسيه ويتبسم، فانحنت وقبضت حفنة رمال وتأمَّلتها، وبفرحة طفولية بعثرتها لتعكس نورا أبيض، وتحول مشيها البطيء لدبدبةٍ ودورانٍ وهرولةٍ وضحكاتٍ عالية، وبينما تغمض عينيها وتفتحها، نسف الفزع كل هذا؛ وكأن الرمال امتصت نبض قلبها، وتجلدت كصليب عظمي مُثُبت في تلك البقعة منذ قرون،

فبينما تهرول وتدور حول نفسها وتنثر الرمال، فجأة وعلى مسافة أمتار، اصطدم بصرها بقبة بيضاء صغيرة، ترتفع على أربعة جدران عالية، فوقفت هُنَيْهة، ثم دارت حول الجدران فوجدت تسع مداخل بلا أبواب، وكلما اقتحمت مدخلًا رأتْ شبيهة بفصل دراسي أو عيادة طبية، وتكسو الرمال والأتربة كل المقتَنيات، وفيها تعبث الفئران والقطط وتنام الخفافيش وتطنّ الحشرات، فانقبض قلبها حتى أحسته توقف، لكنها حين استدارت في الناحية العكسية، فرأت بوابة خشبية ضخمة، مغلقة بلا قفل، وأمامها سُلّم رخامي، تنام الرمال على مصاطبه العريضة، وعلى الرمال آثار أقدامِ بشر، ففتحت البوابة الثقيلة، فاخترق الصريرُ أذنيها، وشعرت كأن أسنانها تتكسر، ورأت بَهوًا واسعًا، تتراص المقاعد الخشبية على جانبيه، وفي الأعلى من صدر البَهْو، رُسمت نجمة سوداء تساعية، مكتوب فيها كلمات متداخلة بالعربية، فسحبتها قدماها نحو النجمة، لتعرف ماذا ترى، وتعثرت في القراءة والفهم، وأحست بخطو هادئ خلفها، فكادت تصرخ فزعًا، وكتمت صرختها وشهقت:

- (سليمان)؟

وأشار (سليمان) نحو الجدار الأيمن حيث لوحة أخرى، ورغم الرمال والأتربة، تبرز نفس الكلمات عليها، وفي حس واثق سألها:

- أتدرين ما المكتوب؟

- ماذا؟

- يا بهاء الأبهى.

ويطوف صدى صوته القاعة كلها، وكلما اصطدم بجدار يتكرر تلقائيًا، حتى اصفروجهها، ويدق قلبها في رهبة لم تعهدها.

- ماذا يعني؟

- عرفت من موسى قصة هذا المعبد.

- ماذا تعرف يا (سليمان)؟

- هذا المعبد بُني في إكنار في مطلع القرن العشرين.

- لماذا؟

- حتى تتعبد فيه طائفة البهائيين الموحدين.

ثم أمسك يدها وسحبها خارج المعبد، وطلب منها أن تساعده فيصعد السور القصير، ليزيح الأتربة والرمال الكثيفة والملتصقة بالنقش الموجود أعلى البوابة، ولما فعل، ظهرت بوضوح كلمتا "مشرق الأذكار".

- ولماذا بني هذا المعبد بالتحديد هنا يا (سليمان)؟

- لأن هذه الطائفة قليلة ومنبوذة من الطائفة الأخرى؟

- هل أنت متأكد مما تقول؟

- نعم.

- ولماذا تعيش هنا منعزلة؟

وقبل أن يتكلم حضرت كاميليا ويلب صوتها في الهواء:

- هذا معبدنا المغلق.

ولم تسهب في التوضيح أكثر، فاستخدمت ذكاءها وخبرتها أن السائق عاد بالمأذون.

- هيا.

أسرعت بديعة مضطربةً، تهرب عيناها لليمين والشمال، وتختنق دقات قلبها في قفصها الصدري، وحين وصلت لاحظ الجميع أن وجهها أصفر، وأطرافها تهتزّ، وعينيها زائغتان، واستغربوا لصوتها الخشِن حين أمرت المأذون أن يُنهي عقد القران سريعًا، وادعى رضا جهله بالكتابة، وأمر كاميليا بالتوقيع على عقد الزواج نيابة عنه، ولم تمر ساعة وكانت كاميليا تجاورها بالمقعد الخلفي، وكانت قد استحمت، وانتقت من بضائع أبيها أفضل ملبسٍ يناسب العرس، وكان فستانا أبيضَ تتناثر به سنابل خضراء دقيقة ولامعة، وغطت شعرها وعنقها بطرحة فيروزية، وارتدت حذاء أمها بدلًا من حذائها المرقع، واهتمت واحدة من بنات بديعة

بتزيينها، وكان نصر الله في الأمام، يتحدث مع السائق، وبينما تتحرك السيارات، أدركت بديعة أسرار الغموض المقلق، فإن الذي رأته، وشرحه (سليمان)، وأكدته كاميليا، كشف عن حقيقة عقائدية مخفية في إكنار، وأدركت أيضًا سرَّ الموافقة على الزواج من ابنها القبيح، فلما تذكرت دفء جسد كاميليا، حين كانت تتلمسها في المندرة، اختلط عليها الأمر، وظنت أنها قد لا تكون عذراء، وهمست:

- كارثة! كيف لم أتوانَ في السؤال عن زوجة ابني، ألهذا الحد كانت قباحته فخًّا كبيرفي الحياة ولا أدري.

أشعلت سيجارة غير عابئة بمن يراها، ثم أمسكت كاميليا من حنكها، نفثت الدخان في عينيها، وسألت بحزم:

- من أنت؟

- كاميليا.

- أجيبني.

- أنا كاميليا رضا المغربي.

- من هو ربك؟

- الله.

- والمعبد؟

- بيت الرب.

- كيف؟

- هكذا، و أنا كفرت به.

- ألم تقولي أن ربك هو الله، أي رب هذا.

- لا شيء يمنع زواجي من ابنك.

وتجلت حقيقة أخرى في ذهن بديعة، فانتبهت لوعورة وطول المسافة، فكأنها سافرت لأقصى مغارب الأرض، واستعادت شعورها بالرهبة حين حطّت بالواحة، تنفث الدخان وتهمس بغيظ: "أهذه إكنار؟ بؤرة من العالم، لا مسجد فيها، ولا

مأذون، ولا كنيسة، ولا ترحيب من أهلها"، وصمتت تتفكر مستاءة، وتحزن لولدها العاشق القبيح، وكانت فريال تنظر لأبعد نقطة في الطريق، حيث الموكب يتوغل مختفيا، وقبل أن يتركها رضا المغربي ويعود للبيت قرر شامتًا:

- أرى الدموع في قلبك المكبوت، وُلدت غبية، وعشتِ غبية، وستموتين أشد جهلا، يا امرأة، أنت لا تعرفين أسرارا، أو الصحيح: أنت لا تريدين المعرفة، تبا لك وللقدر.

انفجرت تبكي، إذ تشبّع ضميرُها الذي رأى أن ابنتها انتقلت لمجهول موحِل، سيبدل عقائدها ولو بعد سنين طويلة؛ فيغضب عليها الرب الأعظم، وتخلد في العذاب المهين حتى وإن كان وهميًا، ودقت الأرض بقدميها، وشهقت، ولطمت، وزفرت، وسعت تهرول على الإسفلت وينطلق صوتها:

- كاميليا، عودي.

ولا مستجيب غير صدى صراخها المذبوح، ولو علمت أن ابنتها كفرت بالرب؛ لقطعت عنقها وسكبت دمَها تحت قدميه حتى يرضى.

وفي صمتٍ رهيب، وحين اقتربت السيارة من المندرة، كانت كاميليا تجابه خفقات قلبها من فضيحة تنتظرها على يد نصر الله، وبعد أن علمت بديعة بسرِّ الواحة، فمن الأكيد أنها ستعاملها بسوء ولن تقبلها زوجةً لابنها، وستتعرض لوابل من الشتائم والرجم، ودت لو قالت:

- أتوسل إليك اقبليني.

لكنها آثرت الصمت حتى يتضح لها نهاية الأمر، وتمسك عن دموعها وهي تتخيَّل نفسها مطرودة منبوذة بلا مال فهمست في مرارة:

- أين أروح؟

دخلت الزفة المُتعبَة المندرة عصرًا، وعند ناصية الحارة ترجَّلَ الجميع، وانصرفت السيارات والفرقة الغنائية، ووقف نصر الله يجاور عروسه، وحوله أخواته البنات وأطفالهن وأزواجهن، وكانت الزغاريد ضعيفة والخطوات واهنة،

ونظر نصر الله على الجانبين فرأى كأن أهل الحارة جميعا كانوا في انتظارهم، وأمام البيت جلس العروسان على كنبة مفرشها مزيَّن بالورد الأحمر، وتكسو البهجة نصر الله، وبينما كاميليا تتصنع ابتسامة زائفة، وقعدت النسوة ورغم إرهاقهن الشديد كن يغنين وحولهن اجتمعت فتيات ونسوة عجائز ومراهقون، وكان (سليمان) يساعد بديعة المتوترةَ في توزيع أكواب الشربات، وكانت واحدة من أخوات نصر الله جلبتْ طعام العشاء للعروسين وأدخلته البيت، ولما اسودَّتْ السماء وأُضيئت المصابيح، وانبثق الضوء الأصفر من المقهى، وسُمع ضجيج عربات الزبالة، أمرت (سليمان) بالانصراف، ثم تسللت بالعروسين وأغلقت الباب، وينقبض قلب كاميليا حتى تثلجت أطرافها، وحملها نصر الله ليصعد بها السلم، لكنه فوجئ بصوت أمه:

- نصر الله، اصعد أنت واتركها لي.

أرخى ذراعيه في هدوء، فحطت بقدميها على أرضية الممرّ، وبينما يصعد الدرج انقطع التيار الكهربي فانتشر الظلام، ووقف كقنفذ أبيض ضخم يرتكن على باب شقته، وأحسته بديعة، فانطلق صوتها الرخو يأمره دخول شقته ويشعل شموعًا، وفي البَهْوِ أقعدتها وتأملتها بضع دقائق، ثم همست بوقاحة واستياء:

- محظوظ.

- من؟

- ولدي نصر الله.

- ألن تطرديني من بيتك؟

- لم؟

- لاحظت عليك ضيقًا كبيرًا بسبب ما قلته لك عن معبدنا.

- حدثيني.

- كنتُ بهائية.

- وما البهائية؟

- دين يحض على توحيد الله.

- عظيم.

- لكننا طائفتان، وطائفتنا هي الصغرى في العالم.

- ما اسمها؟

- الموحدون.

- وهل الطائفة الأخرى غير موحدة؟

- موحدة.

وأرادت بديعة أن تربكها بشدة؛ فأشعلت سيجارة ورشفت نفسها طويلا، وزفرت الدخان في تلذذ وبطء شديدين، وجحظت عيناها وقالت:

- أنت سمعتِ (سليمان) يكشف لي سركم.

- نعم.

- وماذا لو لم يكن (سليمان) معي؟

- كنت سأقول الحقيقة.

- وما الذي يجبرك على ذلك؟

- لأنني لم أعد مؤمنة.

- لا بد أن سرًّا آخر في تلك القصة.

- لا.

- طيب، أكملي.

نظرت إليها ودموعها مكظومة، كالتي تتوسلها الكف عن إهانتها، ثم تكلمت بصوت مذبوح:

- قيل لي: إن قدماء واحتنا، اختاروا هذا المكان لبناء المعبد منذ زمن قديم وكانوا أثرياء، وبالفعل كان معهم أوراقٌ من الحكومة تجيز لهم ذلك وفق القانون، ولم يكن شيئًا سريًّا أو كارثيًا، وقد فعلوا ذلك للانفصال التام عن الطائفة البهائية الأخرى التي تتنكَّر لهم وتسخر منهم في شتى بقاع الأرض، وقيل لي أيضًا: إن الحكومة

أغلقت المعبد منذ زمن وصادرت أموالهم فاستقروا بجوار معبدهم واضطروا للعيش كما رأيت.

- لماذا؟

- للحفاظ على المعبد وعبادة ربهم في حرية.

- قلتي: إنك كفرت بهذا الدين.

- نعم.

- لماذا؟

- لأن الرب لا يستجيب.

- صِفي لي ربك.

- لم يعد لي رب.

- صفي لي رب أهلك.

- الله الواحد.

- شيء محير.

- أنا تعبة جدا.

- وهل من أجل تعبك وفقرك المدقع قبلت الزواج من نصر الله؟

- أرجوكِ، كفاني ذلًا وإهانة.

- طيب، على أية حال دعينا ندخل الفرح على قلب زوجك الطيب.

- هل (سليمان) ولدك؟

- اعتبريه كذلك.

- وكيف عرف سرنا؟

صمتت بديعة مليًا، ثم تبسمت وقالت بفخر:

- (سليمان)، سيكون بطلًا لا نظير له.

- كيف؟

- حديث قلبي لا يخطئ.

وهدأت نفس كاميليا قليلا، و اقتربت منها الأخرى ولما احتضنتها انفجرت باكية، فهمست:

- لا عليك يا كاميليا، انتهى الماضي.

ولما أدركت فيها حيرةً وذلًّا واستجداءً لرحمتها، شرعت تحدثها عن دور الزوجة في تحويل الحياة لجنةٍ طيبة، وكي تذهب عنها الحزن أكثر؛ حدثتها عن أناس يؤمنون بوحدانية الله؛ إلا أنهم يفعلون الأدهى والأمر، وأنها سوف ترى في المندرة السكرانين والعرابدة، والحشاشين، والمتشرذمين الذين مزقوا دين الله وتفرقوا أحزابا، وضربت لها الأمثلة بملهى زنجو وزواره، وياقوت سنان السكاكين العربيد القذر، ومانو التاجر الجشع.

- لا شك أنك تعرفينهم.

- أذكر وأنا صغيرة أني رأيت احتفالًا ليليًّا في الواحة، وكان الصخب الشديد، فقد ذبح خروفان من أجل زائر عظيم المقام، أتدرين من؟

- من؟

- مانو التاجر لمنتجات الألبان .

- هل زار مانو واحة إكنار؟

- أكثر من مرة.

- وعرفت أنه من سماني.

- ولم يزُر واحتكم؟

- لا أعرف.

- لا بد و أنه كان يبرم اتفاقا حول موادكم الخام.

ثم فاجأتها:

- ما رأيك في نصر الله؟

- هه.

- ستثبت لك الأيام أنه أعظم رجل عرفته.

- لم أعرف رجالًا غيره فأكتشف عظمته بمقارنته بهم.

- ما علينا.

وبينما تزيل عنها ملابسها وتمسح عرقها بفوطة صغيرة، ومن نظرة وحيدة لجسدها هزت رأسها بقناعة تامة أنها ليست عذراء، وكان نصر الله يفكر فيما سيفعله مع العروس، وكلما أشعل عود ثِقاب سرح بخياله حتى ينطفئ، وأخيرًا أشعل شمعة، ونظر أرضا فإذا بصينية الطعام مغطاة بقماشةٍ شفافة، فاستبشر ثم قعد، يقطع من لحم الطيور ويحشو فمه ويمضغ سريعًا ثم يبلع، وفي نور الشمعة مد بصره في مرآة قبالته، يخطف نظرات سريعة إلى وجهه المربع ذي الخدين الناصعي البياض، وشفتيه الضخمتين الأرجوانيتين كأنهما قطعتا لحم باهت، وفي كراهة رأى أذنيه الكبيرتين الممتدتين لأعلى كأذني أرنب، وفي عفوية تفحّص يديه الطريتين وأصابعه المسحوبة نحو أظفاره اللامعة، فمزّق اللحم بعنف، وبينما يرفع يديه ليغرسه بفمه، سقط بصره على عنقه السمين الأحمر المدكوك، وأدركه الأسى حين لمح وجهه ملتحمًا في صدره، فبقيت يداه معلقتان أمام فمه، وتذكر صدره الطري، فقبضه التوتر حين تخيل زوجته تستهزئ منه، وتسلّل الكدر لجلسة طعامه؛ لما تذكر الذين يعايروه بردفيه السمينين، وفخذيه الممتلئين، وعينيه العسليتين الواسعتين والمكسوَّتين برموش لامعة وطويلة وشديدة السواد، فسقط اللحم من يديه وانسابت دموعه، إذ تذكر أطفالًا يرسمونه على جدار البيت في هيئة أنثى، ويكتبون فوق الرسم وتحته وعن يمينه ويساره: هذه هي نصر الله نمرود، وفي غيظ عاجز مسح دموعه، واستعاد ما كان يفعله حتى يتناسى، فتحركت يداه تدكان الطعام في فمه، وتحتك ذقنه اللدنة بيده حتى كاد يقطع أصابعه بأسنانه، ويستمر في تناول الطعام متعمدًا النظر لنفسه في المرآة مُحاذرًا أن تنساب الدموع من عينيه الجميلتين، وكان وقْع قدمي أمه وهي تصعد السلم مُفيقًا سريعا له، ففزّ من مقامه وبيده المرتعشة فتح الباب، وتعاتبه أمه كيف تناول الطعام وحده وبهذه الهمجية، ثم تحدثت تمازحه:

- الطعام شغلك عن العروس.

كان يفتح عينيه ويغلقهما في بله، ولم يسمعها تتحدث عن عودة التيار الكهربي، ولما استشعرته تائهًا، ضغطت الزر فأضيء المصباح، فاعتذر متلعثما، ثم علَّلَ موقفه المحرج بأن السفر كان طويلًا ومتعبًا، فكان لا بد أن يأكل.

- رويدك.

قالتها بديعة وربّتت على كتفه وأمرته أن يستحم، وفي دورة المياه الضيقة يكتم ضحكته مستمتعًا بالماء البارد، وبينما تسري في أوصاله قشعريرة فينتعش ويستعد للقاء العروس، وكانت أمه تقطع اللحم المسلوق وتضعه في فم كاميليا، وبأناملها تقتطع من الأرز المعمّر مقدارًا بسيطا وتطعمها، ثم تغمس لقمة طرية في الطبيخ وتلقمها، وكلما حاولت العروس مد يدها إلى الطعام منعتها بصوت أملس:

- أعرف ما تشتهينه.

ويتوقف نصر الله عن مداعبة الماء، وبدأ يتفكر في المرأة التي تزوجها، وترتسم على وجهه أمارات عجبٍ من مجريات الأمور التي وقعت وِفق رغبته، ولمجرد أن استشعر أمه تركت الشقة، اندفع من دورة المياه ووقف يتأمّل كاميليا، و انقطع التيار الكهربي ثانيًا، وسمع في البعيد أزيز هيلوكبتر، وهدة عظيمة ترجُّ الأرض، وفي ضوء الشمعة، وضع يديه على كتفيها فتبسمت، وأخذته لحجرة النوم، وقبلته في جبينه ثم طلبت منه النوم، وكان يتذكر كلمات زبائنه عن ليلة الدخلة وخجل العروس وتراجعها و انزوائها في أحد أركان حجرة النوم، لكن كاميليا تخفي اضطر ابًا. ينظر لوجهها ليفتش عن حمرة خجل فلم يجد غير خوف واستعطاف، ويجيء التيار الكهربي ويضاء مصباح الحجرة، فاقترب منها وقبلها في وداعة ثم تركت نفسها له يفعل ما يريد، فانقبض وجهه لما أحسّها بغير بكارة، وكذب نفسه وأخفى شعوره بالغثيان واصطنع شيئًا من المتعة، وكان يشيح بوجهه الحائر وينظر في السقف تارةً وعلى الجانبين تارة، وأحست منه نية الكلام فوضعت إصبعها البارد على فمه فامتثل للصمت، وينقطع التيار تارة أخرى فخلدت جواره في نومٍ عميق

كأنها جثة هامدة، وبدوره تظاهر بالنوم، وأجبر عقيدته على التفكر، أن كل ما وقع من أحداث محل لغوٍ كاذب، فهو لم يسافر لإكنار ولم يأت بكاميليا، إن شيئًا من هذا لم يحدث قط، ويجلب التعليل المنطقي، فإذا كانت تلك ليلة زفافه، فما قصة أزيز الهليوكوبتر والهدات العنيفة في الخارج، ويأمر ذاكرته بالتحري الشديد عما سمعه، فيخيل إليه أنه أحس بدبدبة أقدام، فلا بد وأن أشباحًا تسرح في الجوار، وتلك الجثة النائمة على فراشه؛ بالضرورة الأكيدة هي شبح المرأة التي يحلُم بمجيئها كل ليلة ليبادلها الغرام، والطعام الموضوع بالصالة بقايا حُلم الليلة الذي أطاح بكيانه، واحتل عقله وأرهب قلبه، كان عليه حينئذ أن يهمس: - لم يحدث شيء.

وحاول النظر لجسد كاميليا فمنعه الظلام، فأعطاها ظهره وأغمض عينيه على أمل أن ينام، ثم يصحو في الغد فلا يجد أثرًا لشيء من هذا.

(١٥)

في دكان سن السكاكين. حين فتح ياقوت عينيه، اعترضه الظلام، وتدفقت في صدره النبضات وتصبب عرقه، وحاول الوقوف فقيده الخدر، وأحس بجسده يذوب في جوف الدكان، وجعل يغلق أجفانه ويفتحهما، وما يزال الظلام يطبق على صدره، وتغوص الصرخات في جسده كأنها حراب تغزّه دون رحمة، فيتصور أرضية الدكان تزلزلت، فاخترقتها أذرع حلزونية سميكة ومطاطية، ومتعددة الرؤوس وأحادية العين، وانطلقت منها شعيرات فسفورية، تشعبت على حوائط الدكان، ثم التفت حوله وسحبته في أبعدِ الأعماق، وأخيراً انفجر صراخه:

- حشيش سيء وليلة سوداء، وحكومة كاذبة، سحقًا لهذه الحكومة، آه، كل ليلة ينقطع التيار الكهربي، تبا لهذا البلد الفاشل.

سقط من فوق الكنبة منكبا على وجهه، وترك نفسه بضع دقائق، ثم لملم رجليه بحذر وأسند ظهره على الكنبة، ثم تحسس جبينه العرقان، وكان حزينًا من تاجر الحشيش الذي أكد عليه أن بضاعته أصلية، ولكن التهيؤات اجتاحت رأسه، وارتفع معدل نبضه، وكلما حاول النوم، يغمض عينيه دقائقَ ويغرقه عرق غزير ولا ينام، فغصب جفنيه على الارتخاء، وأجبر ذهنه على التفكر في بديعة رستم، وتذكر اليوم القديم الذي بتر فيه إصبعه، ففي صباح هذا اليوم فوجئ بها أمام الدكان تحمل سكينًا، ففزوتكلم بوقاحة عن زيارتها التي أضفت على يومه طَعْما شيقا.

- بنفْسك يا ست بديعة؟

- نعم.

- لم؟

- ابنتي الكبرى ستتزوج، وسأقيم وليمة وسأذبح كل الطيور التي ربيتها.

- ومتى ستتزوجين أنت يا شهية.

- سن السكين يا هذا وتأدب.

- لك عيني.

وبينما يضع السكين على المسن الكهربي، نسي ما بيده، وأبحر بعينيه في وجهها، يفكر كيف يبني جسر تواصل بينهما، ومع دخوله في غفلة جزَّ سلاح السكين عقلتين من إصبعه الوسطى وتفجر الدم، فزعت وسدت مصدر الدم بطرحتها، وصرخت تطلب النجدة من المارة ثم اختفت، واعتبر ياقوت تلك الحادثة أسوأ حظوظه في الحياة، ليس لكونه صار مبتور الأصبع الوسطى فقط؛ ولكن لأنه علم أن بديعة أقسمت أنها لن تجيء دكانه ثانيا، وكثيرًا ما ضاقت نفسه كلما مسح على وجهه بأصابعه الأربعة، واعتبرها المرأة الوحيدة التي استهزأت به، وتسببت في فقدانه لإصبعه ولم ينل منها ما أراد، وعلى الدوام يحوم حولها، ولا يخجل من كونها تسمعه وابل شتائم أو تبصقُ في وجهه، ودون شعور منها كان يلتقط لها صورا بكاميرا زنجو وهي تسير في شارع النطرون:

- لن أتركك يا بديعة أبدا، لا بد أن أنالك.

وجعل يتفكر في وضع الخطة المناسبة ليجبرها على تسليم جسمها له، فقد علم أن ولدها نصر الله تزوج بكاميليا المغربي التي يعلم سرها.
- لا بد وأن بديعة عمدت لتزويج ابنها من كاميليا لبشاعة خلقته، وإن كانت لا تعلم حقيقتها، فالسر معي أيضًا.

ورسيت خطته أن يذهب لزنجو، ويأخذ صور كاميليا ويستخدمها كي تركع له بديعة، وإلا فضح ابنها القبيح العاجز كما ظن، ولا مانع أن تجيء كاميليا فيستعيد أيامه معها، وحجب تساؤلا يلح عليه، فمنذ فترة امتنع زنجو عن إرسال رجاله لأخذ الأفلام وإمداده بالمكيفات، ومع ذلك هز رأسه منتصرًا ومتأكدا أنه لن يمانع أبدا في إعطائه صور كاميليا، ثم أغمض عينيه ونجح في جلب النوم قرابة الثلاث الساعات، وحين أيقظه العرق الغزير وجد الظلام الحار ينتظره، ولما فتح الباب كانت السماء خاليةً من القمر، وتتناثر فيها نجوم ضعيفة، وبالكاد ظهرت مناضد

الباعة، الخشبية والبالغة القِدم، والتي يستخدمونها في العمل نهارًا، ويكسونها بخِرق بالية كثيفة الوسخ، ويسدون فتحاتها بأَجْوِلة صوفية مرقعة فتبدو كأكواخ صغيرة مسطحة، يبيتون في أجوافها الخانقة، ولا يعبؤون حين تسقط الأغطية وتكشف أجسادهم، وإن تراءت لياقوت فرصة تتمثل في واحدة من البائعات، استدرجها واستعملها ليالي، وليس ثمة مشكله عنده في لون البشرة أو القباحة والدمامة، ولم يترك واحدة منهن استشف فيها رغبة وأعجبته إلا وجلبها للدكان، وصورها بدقة وقدمها ضحية لزنجو، ولكنه الآن مرهَقٌ ومعتل المزاج، كما أن الظلام ستر أجسام النيّام في السوق، ووقف أمام دكانه ضيق الصدر، ولما برد جلده الساخن، وجف عرقه، وأحس بقشعريرة تسري في أوصاله، استفاق قليلا، وأحضر الكرسي وجلس، وحين أوقد الولاعة ليشعل سيجارة؛ كشف نورها وجهه العريض والمكتظ بمنحنيات محفورة في خديه البارزين، كأنها سطور أرّخت أفعاله المشينة، ورشف الدخان بعمق، وهو يرفض أن يتذكر عينيه الجاحظتين، هما عينان خبيثتان ومقصوصتا الرموش، وجعلتا من يراه يتذكر الضفدع العجوز. أومأ أرضًا فاصطدم بكرشه المترهل، فشد جلد جبينه محاولا إزالة المنحنيات والتجاعيد، التي كأنها نقشت بالمثقاب المعدني في جبهته العريضة، فبدا كالذي يعيش من ألفِ سنة. تحسس رأسه الضخم، فتضايق من صلعتها اللامعة المريبة، فأشاح بوجهه يزفر الدخان في غل وحسرةٍ على ما صرفه من الزمن، ولوى شفتيه العريضتين وعضهما بأسنانه، وودّ لو حشرهما بفمه أو قطعهما بسكين حاد، وحين لعق شاربه الأشمط الخشن، لمس لسانه مخاطًا تدلى من أنفه المفرطحة، فأزاحه بسبابته ثم مسح يده في قميصه الرصاصي الملطخ بالبقع الدهنية. تحسس رقبته القرمزية الكثيفة الشعر، وتلمّس طرف حنجرته وتفكر ماذا فعلت به السنون، وفي التو اختلق اعتقادا يفرحه قليلا، أنه وكلما مر الزمن ازداد طولًا وعرضًا وفحولة، لكن الحقيقة التي يتعمد تجاهلها، أن عظام صدره تزداد بروزا، ويقل الدهن الفاصل بين قفصه الصدري وجلده، فتظهر عظامه كما لو كانت بغير بشرة

تكسوها، وتنبعث منه رائحة كريهة تبعث على نفور كثيرين، ويحمد للظلام دوره في إخفاء حذائه الأسود القديم، ويهزأ بمرارة كأنه يعترف بصنيع الحذاء في إخفاء قدميه المملوءتين بالحراشف. مد يده ليتأكد أن بنطلونه الأسود المليء بالثقوب يستر ساقه المصاب بالدوالي، وشغل نفسه بالنظر على جانبي الكشك، فلا شيء غير ظلام يتخلله بكاء أطفال آتٍ من نو افذ البيوت وهدهدة الأمهات الساهرات، وكلاب بعيدة ينصهر نباحها في فضاء منقبض، فتصنّع بسمة شماتة وهو يتذكر قصته مع دكانه الذي أجره منذ ثلاثين سنة، وأحبه كثيراً وتمسك به، وندم المالك وعرض عليه مبلغا من المال كي يتركه ورفض، فاضطر لبيع بيته الواسع العتيق بثمن بخس، وظلت طو ابقه الثلاثة خالية ومحكمة الإغلاق، وبقي هو في الطابق الأرضي يجاوره مستودع دقيق لا يفتح إلا نادرا، وفجأة ضاق ذرعًا حين تذكر زوجته تطالبه بالمال فالبيت خالٍ من الطعام، فبصق مخاطا وزعق:

- أفٍ، زوجة سيئة، وحشيش مغشوش ومزاج فاسد.

سمعه موسى الرومي حين كان يتمشى ويبحث عن طعام للكلب، ومع اقترابه من الدكان قال بصوت مكتوم:

- سهران كعادتك يا عم ياقوت؟

- تعال يا موسى، اجلس.

قعد جواره واستند بظهره على حائط الدكان، ثم تنهد بأسى وقال مغبوناً:

- تؤلمني عظامي كلها.

- احمد ربك أنك نجوت من وباء عائلتك.

قاطعه متأوهاً وكأن عظام صدره تنطبق على قلبه.

- أنا تعبان يا عم ياقوت.

وعلى سبيل الرشوة وكي يتجاذب معه أطراف حديث عن بديعة رستم، تكلم ياقوت بصوت كريم:

- عندي لك دواء قوي يا موسى.

- إليّ به.

وفي ظلمة الدكان فتش بالأدراج عن قطعة أفيون كان يدخرها، ولما عثر عليها أشعل سيجارة محشوة بالحشيش المغشوش وقدمهما له.

- هذا دواؤك يا موسى.

ومع علمه بما يفعل، ابتلع موسى الأفيون ووضع السيجارة بجيبه، وشرع الآخر يحدثه عن بديعة رستم، ويسأله عن آخر مرة رآها، ويهز موسى رأسه بينما يتسلّل مفعول الأفيون إلى دماغه فيشعر بتركيزه يتكثف.

- موسى؟

- نعم.

- ألم تحدث مشادة في بيت بديعة؟

- لم؟

- أجبني.

- لمَ تحدث مشادة؟

- مع زوجة ابنها؟

- لا.

- عال.

ويجيء التيار الكهربي، ويرسل مصباح العمود الكهربائي حزمة ضوء، يحفّ طرفها بحذاء موسى.

- هل ما زلت تتحاكى بقصتك القديمة عن حجر سقط عليك من السماء وقصم ظهرك يا موسى؟

وحينئذ؛ انطلق أذان الفجر، وسمع فجأة أزيز طائرة هليوكوبتر، وحين همّ ياقوت بالكلام سكت ينظر لأعلى؛ لأن الهيلوكبتر كانت تقترب من الأرض حتى ابتلع صداها صوت الآذان، وعظُم الأزيز كأنه سيدمر المباني ثم تلاشى بنفس الطريقة التي تراءى بها. والآن وعلى مسافة بعيدة من جانبي الدكان، ظهرت ظلال مُجسمة

لرجال أشداء قادمين في صرامة وخَطْو ماكرٍ، ويحملون أسلحة نارية. في ذلك النور الأصفر الباهت والطنين الغامض، كانت أحداث تلك الرو اية المعقدة تكتمل في ذهن موسى، وبصوت خفيض أمره ياقوت أن يلم قدميه ويسكت، فقد اعتقد أن القادمين تابعون للحكومة، ولما اقترب الرجال دقَّقَ موسى النظر في أجسادهم حتى يتأكد أنه أمام حقيقة، إنهم تكسوهم ملابس دكناء ذات رُقطٍ رملية، وإذ يتحركون يكشفهم الضوء أكثر، فيجلب أقصى ما لديه من تركيز حتى يتبين ما يستشعره فيهم، أنفاس قوية، وأجسام متقاربة طولا وعرضا، عيونهم لنمور صيّادة تلمع وتتحرك نحو فريسة معلومة، فنظراتهم صُلبة، والتفاتاتهم القديرة تثبت أنهم مدربون ومأمورون باغتنام صيد بعينه، فتمركزوا على مسافة قريبة من الدكان، فجمدت يدا ياقوت على فم موسى حتى كاد يحطم أسنانه، لكن موسى كان مشغولا في ربط قصته القديمة مع الحجر بما يحدث الآن، وخلال صدى إقامة صلاة الفجر، بدا في أفق الشارع أشباح ترتدي جلابيب بيضاء، وتسرع نحو المسجد، فلمحهم ياقوت، وودّ أن يناديهم، لكنهم اختفوا وعاد الأزيز، ونظر لأعلى، فإذا بالهليوكوبتر بعيدة كحشرة سوداء ضخمة تحوم وتترصد، وتظاهر موسى بالهلوسة. الآن بالتحديد ومع اقتراب الطائرة، وحركة الرجال الأشداء صوب الدكان، تثلجت أطراف ياقوت وتبخر عقله، ووقفوا علي مسافة أمتار قليلة منهما حيث بقعة الضوء أوسع، وعلا صوت أحدهم عبر لاسلكي، كان يوضح أن كل شيء مؤمَّن، وحين دخل ياقوت وصاحبه الدكان، كانت الهليوكوبتر تقترب من الأرض، والهواء يضغط على كل شيء دونما اهتمام بمن يفزع صارخًا أو يهرول هاربًا، ولا بأسطح بيوت تهشمت عششها وفزت طيورها، وهرع سكانها شبه عرايا، ينظرون من الشرفات والنو افذ، ويضغط أزيز الهليوكوبتر على المنطقة فتتزلزل الأرفف في الدكاكين وتتساقط محتوياتها، ويخلق الهواء دوامات تتصارع ضد نفسها فيعمّ التراب الكثيف، وتُنزع الأغطية الحارسة لكل من اتخذ من السوق مبيتًا، ثم تتطاير مناضد السوق، ويشتد أزيز الطائرة أكثر، فينسى ياقوت الأرض، ويشعر كأن الكون

كرة صغيرة ترتج في بطن الهليوكوبتر، ويبعثر موسى بصره في كل الجهات، وكأن اللا معقول هو الواقع؛ لأنه الآن يرى أربع سلاسل ضخمة، تنتهي بكلبشات حديدية، عنكبوتية لامعة، تنزل من الطائرة، كأفواه أسطورية ستغرس أسنانها الحادة في سطح الأرض وتزيله، في نفس الدقيقة وكأن الأرض انشقت عن ثمانية رجال أقوياء، يحملون أربع توابيت حجرية، يتقدمون نحو الكلبشات، غير عابئين بالريح الرهيبة، وفي حنكة يضعون ما يحملون في مستوى الكلبشات، فجذبتها وانغلقت بتلقائية، وتأكد الرجال من الإغلاق المحكم، وفي الوقت نفسه كان أحدهم قد أنهى حديثا صارما عبر اللاسلكي، وارتفعت الطائرة ببطء وأخذت معها التوابيت، وكان بعض الرجال ينظرون للتوابيت وهي ترتفع بينما الآخرون تتحرك أعينهم في جميع الجهات، ولما ابتعدت الطائرة، ودونما قلق يعتريهم، عادوا من حيث أتوا، ولم يخرج ياقوت من دكانه، إنما جلس يزفر الهواء من رئتيه كالذي يزيح كابوسًا مدمراً.

- هل رأيتهم يا موسى؟ أو أنني كنت أحلم؟

- الآن حصحص الحق، إنها مافيا الآثاريا عم ياقوت.

شملته نوبة قهقهة دامعة، ثم استرخى شاردًا، يتأمله ياقوت فيستشعر أن الشاب يعرف أسرارًا، ومن المؤكد أن شيئاً خطيراً يحدث في المندرة، فاستخرج سيجارة، وقبل أن يشعلها، رأى رجلاً آتيا، فسقطت السيجارة منه، ورفع يديه مستسلما، ورغم الرعب نقشت ذاكرته وجه الرجل. رأسه المستطيل متلائم مع بنيانه المشدود، ومصفف الشعر وضيق الجبين، ورفيع الحاجبين، وضيق ولامع العينين، وأنفه طويل حاد، وشاربه رفيع كأنه خُطّ ليزخرف وجهه المثلث، إنه مفرود الصدر ونحيف البطن، ويلمع خاتم ذهبي في إصبعه البنصر، ومن ثم رأى ياقوت أصابعه الغليظة وذراعيه القويين، واختلس النظر لرجليه الممشوقين وحذائه البوت ذي اللون الجبلي والرباط الأبيض، فتقدم خطوة، وسحب نفسا عميقًا، وصوّب عينيه للاثنين، ثم التف صوته حول رقبة ياقوت، كأنه يتهمه:

- ما اسمك؟

- ياقوت.

- و أنت؟

- وما شأنك؟

- ما شأني؟ سمعتك تقول كلمتين، من فضلك كررهما.

- مافيا الآثار، هل أكررهما لك بطريقة مسرحية؟

رغم ركبتيه المرتعشتين؛ انحنى ياقوت وصفع موسى على وجهه، وأمره بالوقوف والاعتذار، وحين أحس أن الهواء يحتك بخديه، رفع رأسه فلم يجد الرجل، فقعد جوار موسى الباكي، وأشعل سيجارة أخرى، وشغله التفكير أنه ما يزال أسيرًا للحشيش المغشوش، وبينما يتمدد ضاحكا، أحس بالماء يبلل سرواله، ولما تحسس موضع البلل؛ قام مرهوبًا، وخرج من الدكان، فصدمه غيْم ضبابي يغطي الأرجاء، وكان نور الصباح يجتهد ليكشف عن صفحة السماء، فحدق في الغيم الضبابي، وقبل أن يدخل في ضحك هستيري، انحشرت ضحكته في صدره، وأطاح الذهول به كُلياً، فحين تحركت كتلة من الضباب كشفت الرؤية أمامه عن الباعة، و اقفين بين الحطام، ومتبلدي النظر والحس، حتى الكلاب لا تهز أذيالها، وكأن الناس سُخطوا تماثيل، ثم وكأن يدا سحرية تحرك أجسادهم نحوه، فيبعثون بأنفاس سريعة ونظرات خائفة، ويهمسون متسائلين عن تلك الضربة القاضية التي عصفت بالسوق وحولته لكوم حطام، وتقدموا جميعا نحوه، فارتعب وتراجع بظهره، فتعرقل بموسى وسقط في الدكان، فسدّوا عليه الباب، وتكالبوا يصرخون:

- ماذا حدث؟

(١٦)

عليها ينام (سليمان) وأخوه (إبراهيم).

مَرْتَبةٌ مشبعة باللُّطَعِ السوداء والرُّقَع، وممزقة الأطراف وتنشع صنانًا قديما، وتسكنها حشرات ماصّةٌ تتغذى على دمائهما، وحين اقتحم أذنيه أزيز الهيلوكبتر، فزع (سليمان)، وقعد هُنيهة يتسمع دقات قلبه في الظلام، فقد سيطرت على أنفاسه، وجعل يفكر في تيقظه بهذه الطريقة، هل كان صوت الطائرة حقيقة؟، تذكر أنه قبل أن ينام كانت معدته تَخور من الجوع، فقالت أمه:

- نم يا (سليمان)، أعرف أنك حزين وجائع، سامحني يا حبيبي، وأعدك أننا في الصباح سنشتري طعاما من دكان مانو.

تفكر بضع دقائق وأحس بالقلق فتساءل:

- تُرى، أين أنت يا موسى؟

نزل من فوق الفراش برفق، خمسُ خطوات كانت كافية ليقف أمام باب الحجرة المجاورة، التي يُحاذيها ممرٌّ ضيق يطلق عليه اسم الصالة، في جداره نافذة مهشمة الخشب، والحجرة؛ يعبئها أبوه بدخان السجائر، ويرمي أعقابها أرضاً، ويطرد البلغم من صدره فيلتصقُ بجدرها، وهناك ينام أبواه وأخته. تحركت قدماه لمنتصفها، رأى أمه المكدودة، وأحسها كتلة آلام حيّة نائمة، فاقترب من وجهها، وكانت أنفاسها متقطعة، كأنها تهرب من غربة النوم المضطرب، الذي كشف عن ساقيها المتسخين، فتذَكَّر عودتها من خدمة زنجو، تحمل بعض أرغفة وبقايا أطعمة مطبوخة، وألقى نظرة غضب لوجه أبيه ذي الشارب الرفيع، والخدين الأسمرين الممصوصين المليئين بالحفر، ورأسه الأصلع ببقايا شعره الأجعد، وبطنه المنتفخة كجيفة يأكل الدود أحشاءها، فتنهد بأسى بالغ وهو يركز بصره في ركن الحجرة، حيث تنام أخته نور، وشعر بجسدها يتنفس، فكتم تساؤله عن أحزانها

الدائمة، وصعد مغتمًا إلى السطح، وكان الضباب كيَدٍ ضخمة ومخلبية الأظفار تتمدد نحو الأرض، ووسرعان ما تقعّرت نحو السماء وبدت كقبضة مارد غضبان، وحين صوب عينيه أعلى عشة الطيور، هبتْ ريح ساخنة اخترقت الضباب وخلفت فراغا دائريا، فإذا بقطٍ أسود، رأسه ضخم، وعينه طولية وحادة، وأوداجه منتفخة، وبقفزة واحدة كان عند قدميه، فتراجع يفتش عن صوته الذي هرب، وخشي أن يتدحرج على السلم فتسمر مكانه وأغمض عينيه، و اقتحمت رائحة القط أنفه فتجمد قلبه، ومر القط بجانبه، ور اقبه ينزل على السلم الضيق والحلزوني، فاطمئن لأنه لم يدخل حيث تنام عائلته، وفكر أن يدخل عشة الطيور، لكنه تراجع خوفًا من جلبة قد تحدث، فتمدد على القش ينظر السماء، واستدعى من ذاكرته أزيز الهليوكوبتر وما أعقبه من هدة، فاستنار عقله بقصة موسى مع الحجر، وربط الأحداث شَرطيا، وتقلب على جنبيه ينظر لسطح جاره (بدير العدوي)، ويمر شعاع بصره من السياج الخشبي الفاصل بين السطحين، فرأى (بدير) يقعد كما الذي يختبئ، فتفكر في جِلسةِ الرجل المريبة، وتوارى بقدر ما يستطيع، فرآه يسترق النظر نحو بيتهم، كأنه في انتظار شيء ما، ولما أدرك أن لمعة الخوف والرهبة في عينيه قد تكشف عن وجوده، قرَّر النزول حتى لا يتهمه بدير بالتلصص أو السرقة، وبرشاقة مذبذبة عاد من حيث أتى، فكانت أخته نور استيقظت وجلست على الكنبة تنظر لوالديها النائمين، ولما رأته حيران أمام الحجرة ابتسمت وهمست:

- أين كنت؟
- على السطح.
- في هذا الوقت؟
- كنت أبحث في عشة الطيور عن بيضة آكلها.
- وهل وجدت؟
- لا.

رفعت طرف المرتبة وأخرجت جنيها ورقيًا، واصطنعت البشاشة حتى يسعد، فنظر لوجهها، وتأمل أسنانها الضاحكة فرآها نجوما ملأت الحجرة ضياءً، وتسري قشعريرة طيّبة في فؤاده، ويشرق وجهه وهي مقبلة عليه، والشفقة تنسكب من عينيها، فأمسكت يده الرطبة، وفي خفة وحنان نزلت به إلى الطابق الأرضي، وكأنه يوم عيد، وكانت تضحك فرحانة وتؤكد عليه أن يشتري أرغفة طازجة وجُبنًا أبيض وعذب المذاق من مانو، وتوصيه ألا يتعجل في طلبه، لأن مانو بخيل وسريع الغضب، وقد يرفض أن يبيعه خبزا وجبنا مقابل جنيه، ثم تحسست شعره الناعم وهو يومئ إيجابًا، وحين خبرته أنها ستصعد للسطح لتفتش جيدًا عن بيض في عشة الطيور، أحست بالفزع يدب في أوصاله ثم اعتلى الغضب وجهه وبيدٍ مرتعشة أمسك ذراعها، وصرخ:

- لا؛ لن تصعدي يا نور.

- لم يا (سليمان)؟

تركها وتوغل في الحارة، وفي منتصفها وقف يشتت بصره في بيوتها، فقد أزال الزمن كثيرا من كسائها الأسمنتي، فانتشرت بها النقر والشقوق، وكان يرسم الصور في وجدانه المطاطي، يتأمل التجاويف التي صنعتها العِرسُ والفئران، والفراغات الدقيقة التي خلفها النمل، وأعشاش العصافير المتناثرة في أعالي الجدران، ويستشعر ما وراء النوافذ القريبة من الأرض كزفرات بشرور وائح طعام، والصبح؛ هو أفضل الأوقات التي تعبئ ذاكرة (سليمان) فيها هذه الحياة ذات النبض البطيء، وتحركت قدماه الحافيتان بانسيابية، يحف الهواء بطرف أنفه وخديه وجبينه، ويرفرف شعره وهو يتنقل في رشاقة متجنبًا أن يدوس طينا أو براز كلب أو طيرًا نافقًا، ووقف عند الناصية ملياً؛ ثم تأكد أن الجنيه ما يزال بحوزته، ويدعو ربه ألا تكون أخته صعدت لسطح البيت.

(١٧)

(نور عبد المنتقم).

لما طلب منها (سليمان) عدم الصعود للسطح كان هدفه ألا ترى الهيئة التي يتربص بها بدير لبيتهم فتفزع، لكنه لم ينتبه لبسمتها الزائفة ووجهها الحيران، فإذا كان هو يعاني من فوضى أخلاق أبيه وأخيه وتبرُّأ آل عبد المنتقم منهم، فقد جلب له الحظ أستاذه وصديقه موسى الرومي فآنسه وعلمه الكثير، وشد من أزره ودفعه للتمسك بالمدرسة والإبقاء على الإنسان الصُّلْبِ فيه مهما حَلَّتْ النكبات، ومهما مَغَّصَتْ بطنَه جوعًا أو مرضًا، كما علمه أن يكون قويًّا حقيقيًّا لا متظاهرا، وحين اشتكى من تشرد أخيه وطغيان أبيه الفاسد والعراك الناشب على الدوام بينهما ومراهقي الحارة الذين كانوا يعتدون عليه، التفت ثقافة موسى حول دماغه وعبأت فيها أن تلك الممارسات ناتجة عن فعل مُوجّه من خارج أدمغة كل من تحول لعربيد كأبيه وأخيه، وعلمه أن فطرة الإنسان طاهرة، غير أن النفس طيعة نحو السوء طالما توفّر، فما أصاب أخاه و أباه كان بفعل أمرين؛ هوى النفس ومخطط قديم، وكثيرا ما احتج (سليمان) عليه، لكنه يملك رحابة صدر وخفة ظل استخدمهما في تمرير علمه الذي يقر أن إبراهيم و أباه فهيم ضحيتان، ويستنكر (سليمان) هذه الفلسفة التي اعتبرها لا منطقية، فيراها تخلق ذريعة لإشباع هوى الذات، وفي إحدى المحاضرات ولما زاد عناده؛ وقف موسى في عرض الشارع وكانا على مقربة من دكان مانو وتعمد أن يكون كلامه قويا:

- إن لم تقتنع أنهما ضحايا حرب أزلية فماذا أكون أنا؟ يهينني الناس في كل مكان أروح إليه، أنا مُعذب بغير سبب، والله لولاك يا (سليمان) لقتلت نفسي.

ثم تطايرت دموعه، وتربع أرضًا، وخلع ملابسه الممزقة، فانكشف جسمه ملطخًا بطين جاف وصرخ يائسا:

- وأمك وأمي وأخو اتي و أبي، صفهم لي، صدقني يا ولد، أنا تعبان يا صديقي وأجاهد الذل.

- آسف.

ويدوي صراخ موسى في الفضاء، وتجحظ عيناه الداميتان الباكيتان:

- و أنت أيضا يا (سليمان)، ألم تسرق كليتك؟ قل لي أين ذهبت؟ من ذا الذي يسرقنا يا صاحبي؟

- أنا آسف، سامحني.

- علمتك كل شيء، فلم يبق من الزمن ما يستدعي الخطأ، كن بطلًا يا ولد.

- حاضر.

- قل معي، أنا (سليمان) بن عبد المنتقم، لن يعرف الخطر لي طريقًا، و أنا من سيبحث عنه.

منذ ذلك اليوم قرر (سليمان) نسيان القروح النفسية، وسحق كثيرٍ من ذكرياته الأليمة، وحاول معاملة أبيه وأخيه كضحايا الحروب، واهتم بتعليمه ومذاكرة دروسه وكان ينال النجاح بتفوق، ولم ينتبه أحد لأخته نور عبد المنتقم، فلم يسألها أحد عن سر صمتها ووحدتها و انعزالها عن العالم، وهي التي لا يمكن أن تبوح بسر آلامها أبدًا، فحتى الآن لا يعلم أحد أنها لم تنجُ من ياقوت وكاميرات زنجو، فلما بلغت السابعة عشرة ارتأى أبوها أنه حان الوقت للاستفادة منها، فأجبرها على العمل في المحلات التجارية، ولأن جسدها نضج مبكرا وأصبحت ثرية الأنوثة، فرغم ضيق عينيها السوداويين فإن رموشهما الطويلة تسحر القلوب، وورثت عن أمها شعرها الأحمر الطويل واللامع، وصدرها المدملج، وخصرها النحيل المتناسق مع رجليها اللينتين، ولأنها بلا حماية كانت تتعرض للمعاكسات، ولما شكت لواحد من أصحاب الدكاكين التي عملت بها، فوجئت به يحاول الاعتداء عليها، فقررت الامتناع عن الشغل، وتعرضت للضرب من أبيها وعادت للعمل منكسرة، وحين أرسلها أبوها لياقوت لتجلب منه قطعة حشيش، استغل انكسارها واستسلامها

لليأس وأغلق دكانه وأسكرها واستطاع أن يُطيح بعذريتها، وفي الفوضى المدمرة في بيتها سكنت مع أحزانها، لا تجد من يواسيها ولا تجد خلاصًا من مأساتها، ورغم هذا واظبت على دراستها وحصلت على الشهادة الثانوية العامة، ومنعها أبوها من تكملة دراستها، وحين حدثته أمها عن استطاعتها الصرف لتكمل تعليمها، ضربها وحذرها من الخوض في هذا ثانيا فإذا كانت تجلب أموالا، فذلك للصرف على البيت وليس على تعليم ابنتها، وآزره ابنُه الكبير، وخضعت للأمر، وذات صباح وبينما هي على السطح أشار إليها بدير العدوي بالاقتراب وهمس لها بمعرفته بما فعله ياقوت فيها.

- ماذا تريد؟

ومن بين سياج السور الخشبي مد يده وجذبها بعنف فاصطدم وجهها بوجهه، ثم انطفأت جبينه. إنه يأمرها بتسليم جسدها له وإلا فضحها.

- وأول من يعرف أخوك (سليمان).

وخرق السياج الخشبي وأدخلها منها، وفي ركن من سطح بيته وفي حجرة مبنية بالطوب القرمزي ومغطاة بالقش والحطب، كان يغتصبها كلما أراد، وهو من قام بتصويرها.

(١٨)

لبعض الوقت؛ وكي يتنفس؛ يزيح الصباح الضباب فيتلاشى؛ ثم يعود كأنه يتحداه، وخلال تلك المُعاندة؛ خرجت بديعة واجمةَ الوجه، وعلى جانبي عينيها حمرة خفيفة، ووقفت دقائق أمام بيتها كغريبة؛ تلتفت يمينًا ويسارًا لتتعرف ماذا جرى في الليل، وما سر انقطاع التيار الكهربي المتكرر، والهيلوكبتر الحائمة بالقرب من بيوت المندرة، فرفعت بصرها نحو الطابق الثاني ومنعت نفسها بقسوة من التساؤل عن ابنها وكيف قضى ليلة زفافه الغريبة، وتقسم سرا؛ إذا استشعرت في كاميليا خداعًا، أو أحست بقلب ولدها ينفطر لحرقتها حية وعلى الملأ، ورغم إرهاقها، وكان خروجها المبكر؛ لشراء فطور طازج وخضروات ودجاج، فمشيت تبحث عن نسيم الصبح العليل فتنعش بدنها، وعند ناصية الحارة رمت نظرةً لدكان ابنها وتبسمت إذ تتخيله نائمًا، وتمشت بشارع النطرون، فدققت السمع لما يقوله الباعة عن قدوم طائرة كادت تصطدم بالأرض، وتناثرت كلمات عن أشباح تحمل توابيت وتربطها في سلسلة ضخمة ذات كلبشات عنكبوتية ثم ترفعها الهيلوكبتر،

فاصطنعت لا مبالاة، وحتى لا يشغلها الريب؛ صدقت ما تريده مؤقتا، وهو إن الناس يقولون أكاذيب وخرافات، خصيصاً باعة السوق، فهي تعرف أنهم مدمنو حكايات خارقة لا تحدث إلا في الظلام، ومع تأكيد البعض لما يقال افترضت أنه حقيقة، وهزت رأسها تستنكر: "ألم يسمعوا أصوات طائرات قطّ؟، ألم يظهر هؤلاء الأقوياء المجهولين من قبل؟، لا بد أنها الحكومة، فليس ثمة جديد فيما يقال إذن"، ولمحها ياقوت الأحمر تقترب من دكان مانو، فوقف أمامها فاشمأزت وضاق صدرها من زفيره النتن، ولما زجره مانو:

- دعني يا مانو أملي عيني بهذا الوجه الذي يشع نور الجمال الكامل.

لا مانو ولا غيره؛ يجرؤ على الإمساك بيد بديعة فيبعدها خطوة واحدة عن موضعها؛ لكن ياقوت شدها فاصطدم وجهها بصدره، وفي التو بصقت في وجهه، فمسح بصقتها بسبابته، ثم نظر في عينيها وقال كأنه يغرس خنجرا في بطنها:

- عرفت أن ولدك الهمام تزوج، إيه يا بديعة؛ هل أعجبتك كاميليا؟

دفعته بيديها، تتظاهر بالسيطرة على حنقها وتقززها منه، لكنها عجزت عن إخفاء تعجبها من ذكره لكاميليا، فظهرت عليها أمارات ارتباك، فشده مانو من ياقته وعنفه:

- ماذا بك؟

أدرك أنه لو تمادى في تحديه لبديعة، قد تصرخ وتستغيث، وسيجتمع عليه القوم يركلونه فتتكسر ضلوعه، وهو عليم بخبرة سنين عاشها في المندرة، أن الرجال سيؤازرونها ويفتكون به وهو السكير ذو السمعة السيئة. فتفحص وجهها ثم تراجع نحو دكانه، وسكب على موسى جردل ماء وأمره بالرحيل، ثم قعد يتفكر في وجه بديعة الذي اربدّ، ويهز رأسه عازما على إتمام خطته.

- الآن تأكدت أنها كانت تعرف مسبقا عيب كاميليا الفاضح، وارتضت بها زوجة لابنها القبيح! سقطوا جميعا في قبضتي، لن يفلت جسد بديعة مني.

وبينما يفرد جسمه على الكنبة، كانت أذناه تلتقط بضع كلمات من المارين بالقرب من الدكان، فوقف أحدهم وخطب فيهم:

- أتدرون أن الفضاء البعيد، أرسل سكانه لزيارة سرية للمندرة.

ويزعق ثانٍ مستهزئً بقصة الفضاء الخارجي وسكانه، ويُجزم بأن الذين جاؤوا في الليل الفائت عصابة إجرامية من دولة مُعادية، تُخطط لدفن المندرة، ويستسلم للنوم على ثالث حديث التقطته أذناه، وكان مانو يبارك لبديعة على زواج ابنها.

- هل زرت إكنار من قبل يا مانو؟

تجاهل سؤالها وتظاهر بالانشغال في العمل، فلمحته يعض نواجزه، فأومأت أرضا تفكر، ثم سألته تارة أخرى:

- هل تعرف شيئا عن كاميليا رضا المغربي يا مانو؟

- لا.

أدركت ارتباكه وتوتره الشديد، فلم تسأله ثانيا، وغاصت عينها في جدران دكانه العتيقة والبادية كأضلاع تبةٍ خرسانية شديدة العمق، وفي لجلجة غامضة شرع يتحدث عن ارتفاع أسعار الأطعمة وأن كارثة غذائية قد تحدث قريبا، وتنهد بمكر:

- الناس في غفلة.

(١٩)

يتربع مانو على عرش منتجات الألبان في المندرة ونواحيها، وتستفز أغذيته البطون وتثير فيها جوعا لا يسكت، وتنبه الألسنة نحو لذّة لا تنضُب، وتترك في الألسنة مذاقًا يمتزج بلعاب الآكلين فيدوم حسه وقتًا طويلًا، وقد ورث عن أجداده علوما فلسفية يستخدمها في طبخ أطعمته، ولم يفشِ أجداده سر الصنعة لغير سلالتهم ويعدونه من الأسرار المقدسة، وحتى الغرباء القليلون الذين اشتغلوا تحت إمرتهم؛ فقد ظلوا معهم سنين طويلة وماتوا يجهلون سر عائلة مانو، وتوارثت سلالة هذه العائلة علما اجتماعيا يقضي بأن غيرهم من البشر مجرد آلات تتغذى لتخدمهم، ولن ترقى لمستواهم الإنساني، ولن يعرف غيرهم أسرار صناعة الوجود وتخليد الذكرى الأزلية التي ستستيقظ من سباتها العميق في ساعة ما؛ لتحكي للخلائق الجديدة كيف أن عائلة مانو أيقظت الحقيقة الأبدية و أقامت وبنو جنسها في الأرض الخالدة، ولقنه أبوه نقلا عن أجداده بنود دستورهم المهني الشبيهة بشعيرات صلبة متفرعة من جذر معدني، إنها عقائد استخدمتها هذه العائلة في التوغل البطيء ثم الاختراق المفاجئ، وحين كان يستفهم من أبيه عن المقصود من هذا فيجيبه أن هذه سلسلة تاريخية متشابكة من أعمال العائلة العتيقة، وعلى كل فرد فيها أن يكمل ما بدأه الأجداد، وأن هذه العقيدة المهنية لا يمكن أبدًا أن تمزج بغيرها أو تستبدل، ولا يتأتى ذلك إلا بنسف تاريخ الزيف والسفه بحسب اعتقاد الآخر، و أيًا كان لون أصحاب نفس تجارة هذه العائلة أو جنسهم أو دينهم أو لغتهم؛ فلا بد وأن يدمروهم، ولهم في ذلك طريقة مذهلة وفعالة، إنهم يعلمون منافسيهم الكذب، ويتركوهم يتمادون حتى يصدقوا كذبهم، ومن هنا تكون خدعتهم نافذة، فإما أن يصاب الواحد منهم بجنون العظمة فيجدف أو يذمه البشر في سكون، وفي كلا الحالتين يفوزون، ومنذ أزمنة سحيقة

وهم حريصون ألا ينقلب سحرهم ضد أدنى أهدافهم، لذا فقد رسخ في معتقدهم المهني والأيدلوجي، أن أي ضد لتعاليم تجارتهم يعرف بالباطل، ومن ثم عمد بعض أفراد هذه العائلة على اختراع علوم من شأنها الحنث بالو اقع ومن أخطرها علم الجغر افيا السياسية، الذي من شأنه إثارة الجدل حول التوزيع المكاني للبشر، وهذا بدوره مهم لتحقيق أهدافهم الاقتصادية البعيدة المدى، وأما عن الأصول التاريخية لهم، فهم يدعون فخرا أنهم مصريون ويتباهون بانتشارهم في العالم، ويدعون انتسابهم لمؤسس مدينة المندرة عبد الأمين الشيوعي، من أجل هذا، لا يتعجب أحد من رؤية مانو في المسجد أو في الكنيسة، بل إنهم يحترمون فيه وطنيته ودعوته المستمرة بالوحدة، ويحبون زهوه و افتخاره بمسعود الحبشي المدفون في الضريح، لكن سكان المندرة يجهلون علاقته بصحراء إكنار، ولا يعرفون أسرار أعماله الخفية مع أبناء عمومته، لا سيما الإناث منهم.

وهذا الدكان المتين؛ أهم المراكز المشهورة في بيع شتى أصناف الجبن المُعبأة في علب من الصفيح، وتشاركه زوجته سارة و ابنته نانسي البالغة عشر سنوات، أما ابنه ذو الخمس السنوات، فلا يشاركهم العمل بيده، فحتى الآن شغله الأساسي مقتصر على تخزين الأسرار في الذاكرة لحين استرجاعها عند اللزوم، وقد أتقن مانو التعامل الصحيح مع تجار المواد الخام خاصة جالبي الألبان، ومارس منذ مراهقته أن الضروري أولا شراء النفوس قبل الخامات، ورغم بخله القاسي كان يشتري الخامات بأكثر من ثمنها حتى يتمكن من استعباد جالبيها على المدى البعيد، وكلما يمر الزمن، فيقدمون له فروض الولاء، ويقسمون بأغلظ الأيمان أنهم لن يبيعوا بضائعهم لغيره وإن ضاقت عليهم الأرض، وبدورهم علموا أبناءهم أن أفضل تاجر وأشرف إنسان في العالم هو مانو، ويتهافت عليه أصحاب المخابز الأفرنجية ليعرض منتجاتهم على الطاولة النظيفة أمام دكانه، وبداخل الدكان فاترينة شيقة تتراص على أرففها البلورية قطع الجبن الأبيض والأصفر، وكلها مغلفة بورق البلاستيك الشفاف، أما الزيتون الأخضر والأسود والفلفل المخلل فمعبأةٌ في علب زجاجية،

وترسل للأعين إغواء شهيًا، وجوف الدكان مساحته خمسة عشر مترا مربعا، وكل جدرانه رفوف خشبية عتيقة تلفت الأنظار لشدة قدمها ونظافتها ومتانتها، وعليها المنتجات بمختلف أنواعها وألوانها، غير أن الذي يميز الدكان تلك اللوحة الزيتية المعلقة في صدر الحائط المقابل لبابه، وهي تضم نجمة داوود وهلال وصليب ونجمة تساعية، وكان حين يسأل عن اللوحة؛ لا يفسرها ولا يعلل سبب وجودها، لكنه ومع منتصف الثمانينات من القرن العشرين، بدأ يتفاخر بصوته الكهين:

- هذه لوحة تثبت عظمة بلادي.

وهو حريص على النظافة، فيكنس أمامه ويرش الماء، ولا يبيع أقل من كيلو جرام في الوزنة الواحدة، لكنه في فترة الصباح الباكر لا يرفض أن يبيع أي وزن من بضائعه لأي زبون، لذا كان على نور عبد المنتقم أن توصي أخاها ألا يكثر من الكلام معه، ولا ينعم النظر في وجهه، وهي التي انزعجت حين سمعته يصرخ ويمنعها من الصعود للسطح، فوقفت مشدوهة تنظره يختفي وكأن الضباب ابتلعه، ثم صعدت إلى السطح قلقة بشأنه، ووقفت هُنيهة تفكر في رنين صوته حين صرخ، ودخلت عشة الطيور ولم تبال بخيوط العنكبوت التي تعلقت بشعرها، فكانت تقاوم هواجسها، وأحست بأنفاس الطيور الناعسة والملتحمة ببعضها، فدققت النظر في ركن العشة فرأت دائرة من البيض، وعلى الفور أدركت أنه لم يدخل هنا، وإلا رأى البيض وحدثها عنه، فخبطت بيدها على صدرها وشهقت تقول:

- هل يعرف؟

(٢٠)

- أنا لست نبيا.

قالها موسى لسيجارة الحشيش، وقعد تحت مظلة أسمنتية حتى أنهى نصفها وأطفأها ووضعها في جيبه، وضاع ثباته، وبدا الكون في عينيه سائلا زلاليا وممتزج الألوان، كأن وجوه البشر نسيج جلدي ينضح عجبا وطنينا عن حادثة الهيلوكبتر، فأشاح بيده مستاءً من جهلهم، وكلما مشى خطوتين تعرقل وسقط مكبوبا، فاضطر يزحف على يديه وقدميه حتى وصل لبيته ونادى الكلب: - برنس.

وجلسا معا واعتذر:

- آسف يا برنس لقد أسكرني ياقوت وكنت أعلم، لم يكن بيدي حيلة، لقد نسيت كيس طعامك في دكانه اللعين.

ويكب عنقه أرضا ويبكي كمن استشعر خطرًا عظيمًا، فعلى مبعدة منه أحس بظل يترقبه، فعلم أنه الرجل الذي اقتحم دكان ياقوت واختفى في طرفة عين، فنظر للكلب بعين دامعة.

- أين أنت يا (سليمان)؟ أشعرك بالقرب مني لكن لا أراك، ليتني أعطيتك الحجر، وليتني ما قلت مافيا الآثار.

ولما أحس الكلب بصاحبه خائفا وآسفا لهذه الدرجة، جعل يزوم كالذي يواسيه،

وحاول موسى مرارًا الوقوف حتى استطاع، ومشى بكلبه متجها شرق المندرة، وكلما أحس بالظل يراقبه، تأكد من الخطر القادم، ويتذكر التوابيت التي رفعتها الهيلوكبتر فيوقن أن الحجر المحفوظ في داره حين سقط عليه قديما كان منها، وهذا الظل المرعب يفتش عنه، وكلما أسرع أحس به يحاصره، فانحرف في حارة ومنها لممر ضيقٍ يتجه مباشرة نحو الشرق، وكان هدفه الانفراد بكلبه في ملعب عبد الأمين الشيوعي، ولما وصل وجد بمنتصف الملعب حجرا أثريا ضخمًا، فعرف سر الهدة العنيفة التي حدثت.

(٢١)

ومانو؛ في الخامسة والأربعين من عمره، و إنه كشر الوجه، ورأسه يشب لأعلى فظهرت جبينه ممطوطة كما لو حرقت و انصهر جلدها ثم تشكلت مستطيلا، وشعره كستنائي وقصير على الدوام، وعيناه واسعتان خضراوان، وخداه عظميان وذقنه مدبّب، ومنخاره طويل ورفيع وطرفه منحنٍ إلى اليمين فيبدو مكسورًا، وعنقه أبيض وطويل وشديد النحافة، وصدره عريض الكتفين وبارز العظام، ورجلاه الطويلتان الرفيعتان تحملان بطنا مربعة بلا كرش، والملابس التي يستعملها؛ ورثها عن أبيه وكلها قيمة ومتينة، وإن كان بوجه عبوس فإن جودة بضائعه وصدقه المريب كانت عوامل فعالة وناجحة في جلب الزبائن، وفي بسمة صفراء وكما أمرت بديعة أحضر كيساً شفافاً ووضع الخبز الطازج، وقطعة جبنٍ مغلفة، وقرطاسًا مليئًا بالزيتون الأخضر والفُلفُل الحار وقدمه لها، فأعطته النقود، ورمته بنظرة شك في نكر انه لكاميليا، وحين انحرفت لتتوغل في السوق، كان (سليمان) أمامها مباشرة،

وتفحصت وجهه فأحست بجوعه وحرمانه، فاستدارت تنظر لمانو فوجدته قد انشغل مع الزبائن وبدا في وجهه ضيق شديدٌ، وبشفقة وقلب حنون التفتت لوجه (سليمان) مباشرة، فشعر بالخجل وأومأ أرضًا، فاقتربت منه حتى وقفت قبالته بالضبط وهمست:

- كم معك؟

- جنيه.

تنهدت فمسح نفسها الدافئ وجهه، كأن سِحْراً ناعماً سلب قلبه و أنساه الجوع، وتفكرت لثوان ثم ابتسمت بلطف وتحسست شعره وهمست:

- (سليمان)، خذ هذا.

ونظر ليدها، فإذا بكيس طعام مانو، ولما أخذه، وضعت كفيها الناعمين على خديه؛ فاقشعر.

- اذهب بهذا الإفطار الشهي لبيتك، ثم ارجع لي.

وكالتي تداعبه طبعت على ذقنه قُبلة، وأكدت مطلبها، فبُهر من رقتها وطيبة قلبها، فقد أحس حنانا بليغا في بسمتها، وأمومة صادقة في قُبلتها، ولثوان معدودة أغمض عينيه يتجول ببصيرته في بعض الزو ايا الزمنية القديمة في حارة سيدي جلال الدين، وحين فتح جفنيه ود أن يصرخ: "إن ما يحدث معي الآن؛ حياة حقيقية تنسف العبث القذر الذي أعيشه"، لكنه لملم إحساسه في كلمة واحدة:

- حاضر.

قالها وأمسك بالكيس، وهرول إلى بيته، وفي زاوية إعداد الطعام، ذات الجدارين المكسوين بالهباب والأرضية الدهنية اللزجة، كانت نور تحاول إشعال الموقد الغازي لتسلق البيض، ففوجئت به يضع الكيس.

- هل جُن مانو حتى يُعطيك كل هذا مقابل جنيه؟

- لا تأكلوه كله سآخذ منه لموسى.

ألقت علبة الثقاب، وتأملت وجهه المدور والعرق يتساقط منه، فأحسته سعيدًا راضيا، كأن هذا الطعام سيعيشون عليه للأبد، ومع انصر افه السريع خرجت وراءه تناديه، فأشار بما يقضي أنه سيعود، وعادت لركن الطبخ، وكانت رائحة طعام مانو قد شبّعت هواءه، ورأت أن قطعة الجبن لا تقل عن ربع كيلو جرام، وأخذت حبة زيتون وتذوقتها وهي تظن أن أخاها سرق هذا الطعام، وودت لو هرولت تبحث عنه، لتحصل على إجابة ترضيها، وتنظر للأرغفة الطازجة وتهمس في رعب.

- هل سرقت طعام مانو؟

وقفت منقبضة عند باب البيت وتهمس بضيق:

- ماذا فعلت؟ و أين ذهبت؟ لن يتركك مانو، لن يتركنا جميعا.

وتلمع دمعة حزينة في عينها الرقيقة ويرتعش خداها وتغوص الكلمات في أعماقها:

- كم أحبك يا (سليمان).

واستقبلته بديعة في ناصية الحارة، ووضعت يدها على كتفه كأنها تحتضنه وقالت:

- هيا.

ومشيا معًا إلى شرق المندرة، حيث الملعب ومزرعة الدواجن، ويسمعها (سليمان) تتساءل بهمس حائر:

- ما الذي أربك مانو حين سألته عن واحة اكنار؟ ولم أنكر كاميليا؟

ود لو خبرها بما تعلّمه موسى، لكنه سأل:

- أين نحن ذاهبان يا خالتي بديعة؟

- مزرعة الدواجن، كثيرا ما جئت معي هناك، هل تود العودة؟

- أنا أحبك و أفرح عندما أساعدك.

ولما سطعت الشمس جعل يراقب ظلها، فيحرك رأسه كقطٍ صغير يحتك بأمه، ولما أدركته تبسمت واشترت له كيس حلوى، فأشرقت نفسه وانفرجت أساريره، وبينما يقرمش الحلوى فاجأته:

- (سليمان)، هل سمعت أزيز طائرة في الليل الفائت؟

- نعم.

- إذن كان حقيقة؟

- موسى يعرف الحقيقة.

- موسى؟

- نعم.

- أي حقيقة؟

- كل الأسرار.

- إياك أن تدخل بيتهم أو يمسك جنونه.

- موسى ليس مجنونا.

ويعقد حاجبيه حين سمع نباح الكلب، فعرفه:

- لا بد وأن موسى يجلس الآن عند طرف ملعب عبد الأمين.

وحين اقتربا من الملعب، بدا موسى خائفًا والكلب ينبح مذعورًا، فهرول إليه ينادي:

- موسى.

ويشير موسى في جميع الجهات، كأنه يرى من يتوعده، ويتلفت (سليمان) فلا يرى شيئا.

- مالك يا موسى؟

وفجأة، تسمع مكابح سيارة شرطة، وقد ترجّل عنها أربعة رجال وجروا موسى، وألقوه في السيارة و انطلقوا، ويسرع الكلب وراءهم، وتنظر بديعة للسيارة تغوص في الأفق الأدنى، وسقط الكيس من يد (سليمان) وتبعثرت قطع الحلوى، ولمعت الدموع في عينيه وهمس بمرارة:

- ضاع موسى.

(٢٢)

اخترقت أسهم الشمس زجاج النافذة مباشرةً لوجه كاميليا، ففتحت عينيها فوجدت نصر الله ممددًا جوارها وينفث دخان سيجارته متوترًا، فقد تأكد أن كل ما وقع في الليلة المنصرمة حقيقة مؤكدة، فأخذت منه السيجارة وشاركته فيها، وتحسست خديه، وقبلت جبينه.

- مالك يا حبيبي؟

- من أنتِ؟

- زوجتك وحبيبتك، وسأكون أم أولادك، هل تحب الذكور أم الإناث؟

- لكن...

- لا تتكلم.

وانصاع وهي تسحبه في هدوء لدورة المياه، فطلبت منه الاستحمام ريثما تعد إفطارًا، ولما جلسا يتناولان الطعام، كان يرمقها بنظرات تساؤل،

فأحسها تستعطفه، كالتي تطلب منه كتمان سرها، فاحتار فيها، وودَّ لو احتضنها، فعلى الرغم من تواجدها بين يديه، فهو لا يعرف سر اشتياقه المستمر لها، ودون دراية همس بوجه حزين:

- لا تخافي، لن أفشي سرك لأي مخلوق، أنا أحبك.

- لست خائفة طالما أنت معي.

وأمسك يدها وقبلها وبكى حزينا عليها، ولما سألته، فوجئت به يأمرها بشفقة ألا تتركه أبدًا، وكما الطفل انساب لعابه وامتزج بدموعه، وخبرها عن معايرة الناس لخلقته القبيحة، وأنه يعيش منذ طفولته بلا صاحبٍ أوونيسٍ غير أمه، ويرتعب لو ماتت فكيف يعيش بدونها؟

- لن يرحمني أحد.

وكأنه بهذا الحديث نزع فتيل أحزانها، فضمته بقوة لحضنها وقررت أن تكون أما وأختا وزوجة وصديقة لهذا البائس، وتحسست رأسه ومسحت خديه وفمه، فحملها وطاف بها الشقة، وحين عادت بديعة منهكة، وبينما تصعد السلم، سمعته يتحدث عن أمه التي ستفرح كثيرًا حين تراه سعيدًا، وانتقل حديثه معها عن المندرة وجمالها، فهزت رأسها ثم دقت الباب، ولما أدخلها صدمت كاميليا بنظرة شكٍّ، وحين لمحت في وجهها انكسارًا ورأت ابنها مبتهجًا، شرعت تحكي عن موسى وما حدث، وطلب منها أن تعد دجاجًا، ومكرونة، وأرزا باللبن والسكر وجوز الهند، وصينية بسبوسة بالقشدة، وتحضر مزيدًا من الفاكهة، وكان طبيعيا أن يسمع منها زغرودة، فتهلّل الثلاثة، وصحبت كاميليا معها للأسفل حتى تشاركها إعداد الطعام، وكلما تذكر نصر الله الليلة الفائتة هز رأسه نفيًا، واستحضر يقينًا أن زوجته لا عيب فيها ولا عار، وارتمى على الفراش والفرحة دثاره، ثم اعتدل على ظهره وهمس:

- منذ الآن؛ كاميليا هي أمي وأختي وصاحبتي وحبيبتي وزوجتي، تنزع عني آلام قبحي وسخرية الناس.

(٢٣)

وقفت السيارة.

إن شارع الشرطة في المندرة رائحته قابضة، والإسفلت فيه مهذب القشرة، لكنه أدكنُ وغامض، وعلى جانبيه شجيرات منكمشة، أور اقها منطفئة قليلا ما، وفي المرات القليلة التي مر فيها موسى به، كان يرتعب من الحارس القابع على ناصيته، فوجهه قمحي عريض، وبارز الصدغين، ومترهل الخدين، وعيناه الحمراوان طوليتا الحدقة، لكن موسى الآن حبيس علبة السيارة المعدنية، ومع تثاؤبه بعفوية؛ كانت أصابع جافة وقوية تشده من ياقة قميصه، وخربشت أظافرها السميكة جلد عنقه الضعيف، وضربته قبضة عنيفة في ذقنه، فأغمضت عينيه، وعاص بصره لأعماقه، ورأى الكون كله دفعات متتابعة لدوائر حمراء، وترسبت أوجاع محكمة بجانب أذنيه، فتح عينيه يحاول الرؤية فصُفع على وجهه، وتطاير المخاط من أنفه وسال الدم، وبركلة قوية في بطنه، فقد السيطرة على أمعائه ومعدته، فتقيأ وتبرّز في آنٍ واحد، وبضربة عنيفة في مؤخرة رأسه سقط أرضًا، و اقتحم عادم السيارة رئتيه فتملكه دوار حاد، وزحف مبتعدًا، فغُرس وجهه في برازه، فانقلب على ظهره، ولا شيء أمامه غير سراب بنفسجي وهاج، فرفع يديه يبعد هذا السراب حتى يفهم، لكن لا شيء غير صدى ضحكات شامتة، سأله ضميره: من هؤلاء؟، وجاءته الإجابة: فجعلوا يدفعونه بأقدامهم في اتجاهات مختلفة، وقاوم حتى يرى، فالتقطت عيناه صورة المتفرجين بعيدًا، إنهم أناس من المندرة، ودفعته نفسه ويداه قسريًّا على رد الفعل باللائم، ففتش عن موضع برازه، ولملمه بكفيه، وبصعوبة وقف، فضُرب بقدم في بطنه،

فانحنى غير متأوّه، ونظر للأقدام تحوم حوله، ولما استشعر ظلا يقترب منه، غرس يديه الملطخة بالبراز في وجه الظل، وتكالبوا عليه جميعًا، يطعنونه بالأيدي والأقدام حتى فقد الوعي، وجروه من قدميه وألقوا به في حجرة الحجز، ولساعات طويلة في خمسة أمتار مربعة ومحشوة بثلاثين من بني آدم، وفيها بخر أنفاس لزج

ولاذع، ومع ذلك يدخنون سجائر وحشيشا، يعلو منهم صوت قبيح، يطلب فتح النافذة لأن أحدهم سيموت خنقًا، ولا أحد يجيب، فيشتم البوليس و أقرانه في الزنزانة، ويصرخ فيه أحدهم بالامتناع حتى يفتحوا النافذة، فاشتبكوا جميعًا، وفي لمح بصر آلت الزنزانة لغابة مشتعلة، وكان المحبوسون كوحوش مخنوقة، تزأر وتخور وتنبح، كأنهم احتشدوا هنا للحرب، وتتبدد دماء على الحائط المتسخ وترسم لُطع موحشة، وتتطوحُ قطع جلدية من أجسامهم، ولا بد إذن أن ينال موسى حظه من هذا الزلزال الحيواني، كان يرفع يديه للدفاع ولم ينجُ من ارتطام الأقدام بوجهه، وحاول أن يستغيث وفي الوقت نفسه تساءل صارخا: بمن أستغيث؟

شده أحدهم من شعره، وقبل أن يغرس سنا حادا في رأسه، فُتح باب الزنزانة وهجم عليهم جيش صغير من مخبرين وعساكر وضابط وحيد، وانهالوا عليهم ضربا بأحزمة معدنية وسلاسل، واخترقت السقف رصاصة من مسدس الضابط فسكتوا، فأشار الضابط نحو موسى الجالس مرعوبا في المنتصف، فأخذه أحد المخبرين إلى حجرة يجلس فيها ضابط جامد الوجه ويرتدي قميصاً كحلياً ونظارة شمسية سوداء:

- فتشوه.

ويستخرج المخبر بقايا سيجارة الحشيش، وأمر الضابط بأخذ عينة بول منه، ثم تحدث عن اتهامه بالتجارة في الآثار، ثم رفع حجرًا صغيرًا ووضعه على المكتب.

- وجدناه تحت فراشك، ما رأيك يا موسى؟

وقف متجلدا كأن الكلام لم يكن له، وتأتي نتيجة التحليل، فيقرأها الضابط ويتمتم: - حشيش و أفيون و آثار.

ويأمر بعرضه على النائب العام، وقُيد من رسغيه الداميين بكلبشات صدئة، وترك جسده يتحرك وفق الأحداث، معتقدا أن ما يحدث فيه منذ سنين قديمة أكذوبة أسطورية أوشكت نهايتها، فتمنى لو أغمض عينيه حتى يوقظه صوت أمه فتتحول الأسطورة القذرة إلى أرض رغدة، ومن سوء حظه أن مكتب النائب العام

يقع بالقرب من شارع النطرون، وكان يسير في كدر وإعياء وحسرة، والناس تراقبه بعيون تتهمه ويقولون:

- كان يتنكر ويدعي الجنون، لا بد أنه الإرهابي الذي قتل الناس في ضريح مسعود الحبشي، هو ولا شك أبدا.

يتخيل أمه المريضة تراه على هذا الحال، فضاقت عليه الأرض بما رحبت، ونظر للعسكري الذي يصحبه، فوجه أسمر، وحاجبان رفيعان يتحركان بمكر هادئ، ويرتدي الحلّة زيتية والباريه، والحذاء الميري، ويسير في بطء شديد؛ كأنه ينادي الناس أن يشاهدوا هذا المجرم الذي قبضت الحكومة عليه، وتلفح شمس الظهيرة جسد موسى الضعيف، فيتوسل العسكري أن يتوقف في الظل قليلًا، ويأمره العسكري بشراء طعام فهو جائع لم يأكل منذ أمس، ويتلفت في كل النواحي يفتش عن (سليمان) فلا يجده.

- أين أنت يا (سليمان)؟

رفع رأسه لأعلى ويسأل الله النجاة من هذا الجحيم، لكنه رأى زوجة مانو تطل من نافذة بيتها، ناداها:

- ارحميني.

ردت نداءه بأمر مباشر للعسكري أن يقف فارتكن في الظل.

- ماذا فعل موسى؟

أخبرها أنه مجرم خطير، ثم جَرهُ، ويسأل المارة موسى عم فعل؟، فيومئ أرضا، فيسألون العسكري، يجيبهم أن القضية كبيرة وجرم خبيث، فيؤكدون:

- نعم هو الإرهابي.

في مكتب وكيل النائب العام، استجمع ما بقي فيه من قوة، وجعل يصغي لصوته وصرير قلمه:

"تجارة آثار وتعاطي أفيون وحشيش؟ أنت مدهش يا موسى".

- يا عسكري، عد به للزنزانة، ثم عد به بعد أربعة أيام.

(٢٤)

ومشهد القبض عليه؛ كان من أخطر الصور التي حفرت بذاكرة (سليمان) عبد المنتقم، وبينما ينطلق نحو شارع النطرون كان يتذكره.

- يا (سليمان)، إن الناس يقولون عني مجنون، وسيقولون عني ما ليس في، هل تصدقني يا صاحبي؟

- نعم يا موسى، والله أنت صادق.

وحين وقف يلهث أمام بيت عائلة الرومي كانت بسيمة تائهةً تبكي.

- يا أم موسى، هل أخذوا الحجر؟

- نعم؟

ويشب الصبي وينتحب ويهمس في أسى:

- ضاع أستاذي، وصدق نبؤه القديم.

وتتخبط المرأة المريضة في جدران البيت، وتنفطر حزنًا على ولدها، وتتذكر كلماته عن هذا الحجر، وهي التي لم تبالِ بشيء مما يحكيه، وارتدت جلبابا أسودَ، وعبأت ما وجدت من أطعمة في كيس، وهرولت تسعى.

(٢٥)

بعد أربعة أيام.

- هذا هو الدليل الدامغ على أنك تاجر آثار.

قالها وكيل النائب العام وهو يضع الحجر على مكتبه، وينظر لموسى بوجه صلب، فإنه لا يشك أبدا في التصاق الاتهام بالواقف أمامه يتأوه من آلام عظامه.

- تكلم يا موسى.

- ماذا أقول؟

- احك لنا عن الذين تبيعهم آثار بلادك.

وضع وجهه بين كفيه وهمس:

- هنا بالتحديد، لا يمكن عكس اللا معقول.

- من هم زبائنك يا موسى؟ وثق أن الحق سيظهر، لا باطل يستمر أبدا. يتوسله أن يتمدد على ظهره، ويسأله المحقق عن سبب آلام ظهره، فيجيبه بالحقيقة كاملة، ويحكي له قصة الحجر، ويقسم أنه سقط عليه وكسر له فقراته القطنية، وكان هذا منذ سنين، وبعنين واثقتين وصوت جزل أخبره أن السماء لا تمطر أحجارًا، وحتى لو فعلت فإنها لن تمطر هذا النوع تحديدًا نظرا لأهميته التاريخية وقيمته العليمة، فالعالم يستعطف دولتنا ليحصل عليه، فنقوشه العلمية لو فكت شفرتها لعاش البشر دون مرض وربما دون موت.

- أتوسل إليك أنا أتألم.

كان المحقق يسترسل ويقرأ أوراق التحريات، فهي تثبت أنه حين تم القبض عليه عند ملعب عبد الأمين الشيوعي، كان على مسافة أمتار من أثر قديم أكبر ومهم، وهذا الأثر لم يكن موجودا هناك من قبل، ولم يظهر إلا في هذا الصباح، وإن كان الحجر الصغير له تلك القيمة الخطيرة فإن الحجر أكبر وأعظم في قيمته وأثمن

بكثير، ويصرخ موسى في جنون ويخبره أن الحجر الكبير سقط ليلًا، ويضحك المحقق في ثقة.

- سقط من أين؟

- سقط من الطائرة يا سيدي، أتوسل إليك دعني أتمدد، لا أقدرعلى الوقوف.

- أي طائرة؟

- التي كانت في السماء، صدقني.

- ولم أصدقك؟

- لأني متأكد أنك سمعت أزيزها، أتوسل إليك دعني أتمدد و افعل بعد ذلك ما تشاء.

- لم أسمع شيئا.

- اسأل ياقوت الأحمر فلقد رآها بعينه.

ويستدعي ياقوت ويسأله النائب العام.

- هل رأيت طائرة هيلوكبترفي سماء المندرة؟

- طبعا.

- متى؟

- مرات كثيرة.

- يقول موسى أنه كان معك ور أيتما هيلوكبترقريبة من الأرض.

- موسى المعتوه؟

- موسى الرومي يا ياقوت.

- يا سيدي وهل يُصدق موسى؟

ولما كانت نتيجة تحليل البول تؤكد أن موسى يتعاطى المخدرات، كان على المحقق أن يشك أنه أمام شاب مراوغ وبارع في فن التمثيل، لكنه ونظرا لضراوة العقوبات القانونية التي ستجيء كنواتج حتمية لهذا النوع من الجرائم؛ أحس

بوخز في ضميره جعله يستدعى ضابطَ الشرطة المسؤول عن القضية، ويسأله بنفسه دون الرجوع لأوراق تحريات ومحاضر محررة، وسأله عن وجود شهود غير الأوراق والتحريات، ويستفهم الضابط عن فحوى السؤال فيريكه المحقق:

- في لحظة القبض على المتهم؛ هل كان في ملعب عبد الأمين الشيوعي بشر غيركم يا حضرة الضابط؟

- نعم.

- من؟

- امرأة وصبي.

- من هما؟

- أرملة اسمها بديعة رستم، أما الصبي فاسمه (سليمان) عبد المنتقم.

- أحضرهما.

ولما ذهب العسكري لبيت (سليمان) لم يجده، وسألته نور عن سبب القبض على أخيها، فأخبرها أن الشرطة تريده وهذا كل ما يعرف، فسرحت بخيالها بعيدًا وهمست:

- لا بد أن مانو أبلغ الشرطة، وكان أخي يسرقه ليطعمنا، يا للمصيبة، ترى أين أنت يا (سليمان)؟

- أين أجد أخاك؟

تركته وهرولت إلى حيث يلعب أخوها في نيران الزبالة، وشدته من ياقة قميصه.

- هل سرقت مانو يا (سليمان)؟ لم فعلت يا حبة عيني؟ لم يا (سليمان)؟ لم يا حبيبي؟

نظر لعيني أخته التي غاصت في جمجمتها من الخوف عليه وتبسم، ومسح بيده على جبينها واحتضنها وحب كبير يغلفهما ثم دمعت عيناه من أجل موسى وهمس بصعوبة: - لم أسرق.

(٢٦)

نظر المحقق لبديعة مليّا، وربما كان يفكر في كونها شريكة موسى في تجار الآثار، فتحزلق يسأل:

- لماذا كنت ذاهبة إلى شرق في هذا الصباح؟
- كنت ذاهبة لمزرعة الدواجن.
- و أين تلك المزرعة؟
- بجوار الملعب مباشرة.
- ولم كنت ذاهبة للمزرعة؟
- لأشتري دجاج.
- لم؟
- ألا تشتري زوجتك دجاجا؟
- تأدبي.
- ماذا تريد؟
- لم كنت ستشترين دجاجًا في هذا الصباح بالتحديد؟
- لابني.
- لم؟
- لأن ليلة دخلته سبقت هذا الصباح بالضبط.
- ألا يوجد في بيتك دجاج؟
- كان.
- إذن؟
- ذبحتهم جميعا.
- ولماذا لم تشتريه مسبقًا؟

- اشتريت.

- ثم ماذا؟

- ما اشتريته أكله الناس.

- من؟

- المعازيم.

- لماذا لم تشتري من السوق؟

- هل تتهمني بشيء؟

- أنا فقط من يسأل.

- ولماذا تسألني؟

- ولماذا اصطحبت معك الصبي (سليمان) عبد المنتقم؟

- ليحمل عني ما اشتريه.

طلب منها الانتظار ريثما يجيء العسكري بعامل المزرعة وصاحبها، وبسؤالهما أجاباه أن (سليمان) أتى معها مرات كثيرة وحمل عنها الدجاج، ثم كانت الضربة القاضية التي ثبتت دعائم الاتهام في شخص موسى الرومي، إذ لما سألهما عن حجر أثري وضخم كان بملعب عبد الأمين.

- متى ظهر؟

- صباح القبض على موسى.

و اقتنع المحقق، لكنه قبل أن يصرف بديعة سأل عن وجود أناس في ملعب عبد الأمين الشيوعي في ذلك الصباح غير موسى، فأومأت برأسها نفياً، واعتقد أنه ليس مهما استدعاء الصبي (سليمان) عبد المنتقم، لكنه أصدر أمرًا صارمًا بإعادة تفتيش بيت موسى في وجوده شخصيا وفحص كل شيء يخصه، وقبل وصول بديعة لشارع النطرون كانت سيارة الشرطة تقتحم بيت الرومي، و انتشرت الأنباء في المندرة عن موسى وأهله، فيتحدث الرجال على المقاهي عنه كتاجر آثار ومدمن مخدرات لا مثيل له، ويتحدث آخرون عن كونه يخبئ كنزًا من الدولار الأمريكي في

مخابئ عميقة تحت أرض المندرة، ومن أجل هذا يزور المدينة غرباء لا يعرفهم أحد، وإن هؤلاء الغرباء يأتون لتبادل تجاري عظيمٍ بينهم وبينه، وإن الشرطة كشفت تلك الجريمة النكراء، ويتهامس آخرون عن كونه إرهابيا خطيرًا وعلاقته وطيدة بأفغانستان، ويمر الزمن على الناس، وكلما وجدوا ظلا تجمعوا فيه للراحة ما ينفكون إلا ويفتحون أحاديثهم في شأن المجرم الخطير موسى الرومي وعلاقته بالعصابات الإجرامية التي كانت تقلقهم وتسلب النوم من جفونهم، وكان الشاهد الأكبر على كونه رأس الأفعى في هدم راحة أهل المندرة، بعض نسوة رأينه من شرفات بيوت شارع النطرون وبائعات السوق في فجر الهجوم الغريب، وتتوالى الضربات القاضية في حياة موسى الضائعة، إذ بعد التفتيش الدقيق في بيته عثرت الشرطة في وجود وكيل النائب العام على مُجلد عبد الأمين الشيوعي، ولما كان منهج المُجلد ونقوشاته التي قيل عنها إنها من فعل الشيطان، وإن ذلك لا يتفق وعقائد سكان البلدة رغم اعترافهم بأفضال كاتبه وترحمهم عليه لأسباب روتينية، فكانوا وما يزالون يقولون كلما حطت سيرة عبد الأمين الشيوعي:

- رحمه الله، هو مؤسس البلدة وصاحب الفضل علينا، جعل الله الجنة مثواه ونعم أجر العاملين.

وصُبت كل المصائب على موسى الرومي، فقد انتشر نبأ عجيب عن وريقات كتبها وعُثر عليها في مقتنياته، وكان يصف فيها مسعود الحبشي باليهودي وأن أحفاده صهاينة أوغاد، وما يقام عنده من احتفالات مجون وعربدة، فلقبه محبو مسعود الحبشي بالخائن الأعظم، ولما بلغ الخبر (سليمان) عبد المنتقم ضحك مسعورا وصرخ:

- كاذبون جميعًا.

ويبكي على أستاذه، حتى بديعة نفسها بكت على موسى البريء، وهي تسمع فيه زورًا مبينًا؛ فيقال إنه كان يستخدم طلاسم مُجلد عبد الأمين في فك العقد وهدم الحوائل الشيطانية التي تمنع وصوله للكنوز الأزلية المدفونة تحت أرض

البلدة، ومثل النار في الهشيم انتشرت الأخبار على صفحات الجرائد في الدولة كلها، واخترقت الأنباء حدود الدولة وعبرت إلى أبعد مكان في الأرض، فعندما يضع الصحافيون صورة موسى يحتضن الحجر وإلى جواره مُجلد عبد الأمين الشيوعي على الصفحات الأولى للصحائف إلا ويتلقفها الإعلام العالمي، ويتمدد الناس على الأسرّة يشاهدون صور موسى ويقرؤون قصته وهم يتدثرون بالبطاطين الصوفية ويستمتعون بالدفء، ويحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، ويصرخ من عذابِ الألم والظلم والبهتان، وقبل ترحيله للسجن العام، وقفت أمه تنوح أمام قسم الشرطة وتتوسل العسكري ليرضى فقط أن يأخذ منها الطعام، ويقدمه لابنها المريض، ولما أخذه منها، فتح الكيس، ثم انزوى يأكل ما به، ولما رأته تحسرت المسكينة وشهَقت ثم زفرتْ، ثم خرجت روحها من جسمها وسافرت إلى بارئها، فكُبت على وجهها وكان آخر ما قالت:

- إلهي، أنت المنتقم العزيز!

(٢٧)

وقد فقد (سليمان) في موسى عينيه الضاحكتين، وصوته الحزين و إيماءاته المثيرة للتساؤل والتنقيب عن الحقيقة، وحسه الرقراق، وصدقه الأمين، لكنه لم ينسَ ولن ينسى العلوم التي دقها في دماغه وضميره، وكانت هذه الثقافة الكثيفة بمثابة الجدر الحامية له من مغبة الضياع في الحياة، وكلما كان أبوه وأخوه الأكبر يسيئان لأمه وأخته كلما كان أكثر تحملا، فلم تنجح الحيرة والمرارة في تحويل مسارِ حياته نحو التمزق النفسي، لكنه في بعض الأحيان تتملكه آيات يأس حين يرى أمه تعود من قصر زنجو وتقدم لأبيه زجاجة خمر حتى لا يهلكها شتائم أو ينتهز فرصة الانفراد بها ويضربُها بقسوة، وفي كثير من الليالي يهيج ويوقظها من نومها ويزعق فيها أن تخرج ولا تعود إلا بما يريحه، وحين تخبره أنها ستجيء بما يريد في الغد يهدّدها بطردها و ابنتها، ولم يكن أمامها إلا الرضوخ، وكان ابنه الكبير يؤازره في ذلك الشطط والاعوجاج، لكن سرعان ما يشتبكان معا فيحطمان أثاث البيت الهالك، حتى ملابس كل من في البيت تتمزق وتسكب الخمر فوقها وتشتعل،

وتقف نور منزويةً وتبكي بحرقة على حياتها المدمرة، ويهجر (سليمان) البيت وينفرد بنفسه في ضواحي المندرة، وكاد يشتبك مع أحد حراس ملهى زنجو لأنه وقف هناك في منتصف الليل وجعل يشتم هذا الملهى وصاحبه معتبرًا إياه منبع الجحيم في حياة كثيرين، لكنه تراجع خشية أن يتعرضَ لكارثة فتضيع أخته نهائيًّا، وكان شخصه الكامن في أعماقه خليطًا من ثقافات موسى وشجاعة آل عبد المنتقم، فعقد العزم على خلق بؤرة استقامة، وجسرِ قوة تعبر عليه أخته وتنتشل من الحياة المريرة، وفي مرات كثيرة كان يجلس معها في الصالة الضيقة وأخريات على السطح يأكلان مما تجلبه أمه ومما تقدمه لهما بديعة، ويتبسم في وجهها المنقبض ويربِّت على كتفها، ولما سألها عن عدم قبولها الزواج، تحججت بأنها لا تريد مفارقة أمها المريضة، وكلما مر به الزمن ازداد طولًا وعرضًا وصلابةً وشجاعة، وبدأ يتحدى

أبناء الحارة الذين كانوا يتفكَّهون به قديما، ثم قرر الانتقام، فعلى الرغم من كونهم جميعًا أكبر منه سنًا إلا أنه كان مغامرا، وعلّم نفسه استخدام المطواة، وإذ يقرر إذلال أحدهم؛ ينزوي تحت المظلات الصغيرة، ويظهر على حين غرة وينقض عليه ويصفعه فيرتعب ويبكي ويعتذر:

- كنا صغارًا يا (سليمان).

وفي شارع النطرون، لمح في شمس الصبح (ياقوت) يلوح بذراعه في وجه بديعة وتجرأ وأمسكها من ياقةِ جلبابها، وفي طرفة عين كان ياقوت تحت قدميه وسن المطواه يشج رأسه وصوته كالحد المسنون:

- هل جننت؟

فيتراجع ياقوت بنظرات ثعلب ضعيف، وترى بديعة في (سليمان) غضبًا جبارا فتطلب منه ألا يتهور، وتأمره بالانصراف فيمتثل، ومع بلوغه السابعة عشرة رفض أوامر أبيه بترك المدرسة والذهاب للعمل في ورشة نجارة أوميكانيكا، وتحداه علنا:

- أنا أكرهك يا هذا، و أقسم أنه لو لم تكن أنت ابن ثريا هانم جدتي لانتقمت منك أشر انتقام وعذبتك حتى تموت.

لكن الأب كان يتمادى في تسخير زوجته المريضة، وكلما رأى ابنته التي أصبحت في منتصف العشرينيات من عمرها، أرسلها لياقوت لتجلب له الحشيش، ولم يسألها مرة وحيدة عن انطوائها ورفضها للزواج، ولم يلحظ أحدٌ أنها تختفي في بعض الأيام لوقت متأخر من الليل، وكلما سألها (سليمان) عن عينيها الحمراوين:

- لا شيء.

وجعلت تواسيه في حزنه من أجل أمه التي رفضت الامتناع عن العمل في قصر زنجو، وكانت حجتها أنه لا بد من وجود مالٍ في البيت حتى تستمر الحياة، ثم إنها اعتادت على ذلك، لكن الحقيقة المدفونة في قلب (دلال ديلم) أنها تكره زوجها، وقد بلغ حس الكراهية، أنها تخشى لو قعدت في البيت ور أته أمامها بشكل

دائم لقتلته، ففضلت الاستمرار في قصر زنجو على ارتكاب جريمة، والتزم (سليمان) بأوامر موسى القديمة واهتم بتعاليمه، وفي بعض الأحيان كان يفتح مجلدَه ويقرأ بعضًا من فلسفته التي تلزم الإنسان بهيمنة مطلقةٍ على الحياة في حدود عقيدته الربانية، فالأولى لن تتأتي إلا بالتسليم النهائي للثانية، ولما نضج جسده أصبح مثل الفهد اللئيم، وعامله الجميع بحذر وخوف، فكان شقيًّا بين أقرانه، وعنيدًا مع الذين يتحذلقون بفحوى الثقافة، ولا يقدر أحد على صده حين يزعق بصوته الخشن أن ما يقوله هو الحق المبين، وكان ينجح بتفوق، ولم تتركه بديعة عرضةً للفقر والشعور باليأس، وحين كانت تراه يتسكع في الحارة، تطلب منه الذهاب لدكان ولدها وهناك تطعمه وتقدمه له مصروفًا وملابس وتحدثه بعنين مشرقتين وقلب طيب:

- (سليمان)، هل تدري أنني منذ رأيتك على كتف أمك رأيت فيك ابني الذي لم تحمله بطني.

وتطلب منه أن يحمل طعاما ويقدمه لآل الرومي ولا ينسى موسى، فيخبرها أنه سيزوره، وكلما مر الزمن كانت علاقته بأبيه تزداد سوءًا، حتى كاد يطرده لولا أخته نور:

- اتركه يا (سليمان)، فقد ضاعت حياتنا بسببه، فأمثال هذا لا يستحقون القهر، هل تدري لماذا؟ لأنه لا شيء.

وكان يصحب برنس ويجوب الحارات والشوارع وكل الأماكن التي زارها مع موسى، لكنه عزف عن الذهاب لملعب عبد الأمين الشيوعي، فهناك كانت أجمل الذكريات، فيقف وحيدًا على ضفة النهر وتمسح زرقةُ النهار الأخيرة جبينه العريض وجواره برنس حزينًا على فقدان صاحبه، وتنساب دموعه وهو يتذكر أستاذه القدير حين كانا يجلسان في القَيظ وتخبطهما الريح الحارة من كل جانب، فيأخذان (برنس) ويقفز الثلاثة في ماء النيل الشفاف، وتتناثر الضحكات وهما يدفعان الماء في وجهيهما!

(٢٨)

وإذ نوت (كاميليا) الخير لنصر الله؛ كشف لها الزمن ما أثبت صدق (بديعة) حين وصفته بأعظم رجل في العالم، فكان طيب الطلعة والجلسة، ورغم كونه مدخنًا شرهًا وعرقه غزير؛ لا يبدر عن جسده غير نسمات عطرة، وكان سخيًّا في صرفه عليها وجياشا في حبه الكبير، والذي أدهشها فُحولته التي أشبعتها لحدٍ بعيد، ولأنه قوي ومرحٌ حين يحملها؛ كان الضحك يسكرها، وكان ذكيا فلا يفعل إلا الذي ترغبه، فرأته بطلا وفيا ورجلا نادر الوجود، وأحبته حبا عظيما، تتوه في عينيه البريئتين وتهمس:

- أنت حبيبي، لن أتركك ما حييت، وإن كان اسمك نصر الله فإن حظي منه كبير.

وعلمته تنظيم الطعام حتى تقل سمنته ويُنحت جسمه، وتحدثت مع حماتها بشأن شراء ملابس أنيقة وعطور ثمينة له، فبدا وسيمًا حيويًّا يقبل على عمله باستبشار، وبعد أن وضعت مولودها الأول وكان اسمه (قنديل)، تأملته بديعة ورأت ملامح ولدها فيه، فسعدت كثيرًا، وطلبت منها كاميليا إصلاح التالف في دكان الحلاقة، فذهبتا لمالك العقار، ورُفعت قيمة الإيجار فأصبح يعامل نصر الله بحب ورضا، ووضع التصميم الجديد، وجلبت المرايا الملونة والإكسسوارات الحديثة، وتبدلت اليافطة وجيء بأخرى كبيرة ومضيئة تحمل اسم (كوافير نصر الله)، وتمر أوقات سعيدة وهانئة، وقلما كانت تذهب لشارع النطرون حتى لا ترى أمها المعذبة في سوق السبت، ولا ترى دكان ياقوت فيذكرها بالماضي، وحين رأت بديعة (سليمان) يعاكس الفتيات عند ناصية الحارة، نهرته:

- ألا تعمل وتتربح بدلًا من هذا؟

- أين؟

وأخذته لدكان ولدها وطلبت منه أن يجعل (سليمان) مساعدًا له، فأومأ موافقا، وكان يقدم أجرته الأسبوعية كلها لأمه، ثم ادخر مبلغًا كبيرا وسافر للصحراء الغربية، حيث السجن الذي فيه أستاذه، وحين رآه موسى سقط على ركبتيه يشهق ويدمع ويضحك ويقبل الأرض ويرفع وجهه للسماء ويصرخ:

- والله، كنت أعلم أنك ستجيء يا (سليمان)، مرت سنون طويلة ولم أظن أبدًا فيك سوءًا يا رفيقي، فكنت دائما في انتظارك يا ولد.

ولم يبك (سليمان) وهو يحتضنه بل همس في أذنه:

- لن يخيب ظنك يا موسى، أبدا.

وتحت المظلة الحديدية يتكوم المساجين والزوار، وينظر جل المحبوسين بفرحة لموسى الذي لم يزره أحد قط إلا الآن، ولما أزاح (سليمان) الأغطية عن أواني الطعام، وشم موسى رائحته قال في هذر ودموع:

- هذا طعام بديعة رستم الجميلة، يرحمك الله يا أمي.

ولما سأله عن الكلب برنس، أجابه أنه يحرس بيتهم وينتظر عودته،

- (سليمان).

- ماذا؟

- هل ما تزال الهيلوكبتر تجيء؟

- أكيد.

- هل ما تزال تجيد الفرنسية؟

- والإنجليزية.

- لقد علمت نفسي الروسية أفلا أدرسها لك؟

- موسى؟ تعقل.

- يا ولد لا تكن غبيا، طيب اسمع، ياقوت الأحمر كذب في شهادته قديمًا عند النائب العام، حاول أن تعرف لم فعل هذا؟

وكان ياقوت فشل مرات عديدة في الحصول على صور كاميليا من زنجو، ورغم مرور سنين لم تنقطع رغبته في بديعة، فكلما أهانته ازداد إصرارًا في الحصول عليها حتى وإن مات بعدها، وفي إحدى النوبات لما أطاح الحشيش المغشوش برأسه، وقف أمام الملهى يزعق ويهدد حتى خرج إليه زنجو.

- ماذا تريد؟

- أنا أهددك؛ إن لم تعطني الصور التي أريدها فسأبلغ الشرطة. وأمر زنجو حراسه بضربه، فركلة واحدة في بطنه وكانت كافية لينام مسطحا في عرض الطريق.

- أبعدوه وإن عاد احبسوه في البدروم مع الفرنسي الأعمى.

وأصدر أمرًا بإحضار الكاميرا وجهاز الفيديو والأشرطة والتلفاز من دكانه، ومع ذلك ازداد ياقوت عنادا، وكلما مر الزمن زاد غيظه وغلُّه، وكلما بصقت بديعة في وجهه رمقها بنظرةِ وعيد، ودفعه الشطط الأعمى لسرقة الصور، فتخيل نفسه يبتز زنجو ويتلذذ بجسد بديعة، ولما كانت دلال ديلم تعبر أمام دكانه ناداها.

- خيريا ياقوت.

ذكرها بمعروفه القديم فلولاه ما عملت في القصر، ثم سألها عن أحوال زنجو، وعرف منها مواعيد غيابه، حين خبرته أن له ابنة في القاهرة يزورها يومين كل شهر، و انقض على الفرصة، فلما سافر زنجو، وكانت هي وحيدة تنظف القصر نهارًا، وحين وصل هناك أوقفه الحارس.

- أنا قريب دلال.

ولما سألها الحارس أومأت إيجابًا، فدخل وطلب منها أن تعد له كأسَ خمر، وجال ببصره يتأكد من خلو القصر إلا منها، ثم بحث عن أقرب نافذة للأرض وفتح ترباسها، في منتصف الليل وفي غفلة من الحراس قفز من فوق السور ودخل القصر، وفتش كل الأدراج حتى عثر على مظاريف معبأة بصور كثيرة للنسوة اللائي صورهن فتبسم يتذكر ماضيه، و انتقى منها مظروفا يحوي صور كاميليا وأخريات،

وأسعفته الرغبة نحو نهايته البشعة، وفي شارع النطرون وبينما كانت المرأتان تتمشيان بصحبة الطفل قنديل، أوقفهما.

- سقطتما في قبضتي، سأكشف حقيقتك يا كاميليا، أما أنت يا بديعة، سأطلع ولدك القبيح على صور زوجته العارية، وسأنشرها في المندرة حتى يعرف الناس الحقيقة.

ولما كان صوته عاليًا وكادت كاميليا تسقط أرضا، تأكدت بديعة أن حياة ولدها وحفيدها تتعرض لخطرٍ كبير، فهدأته ووعدته بأنها ستكون بين يديه قريبا، وفي البيت وأمام إلحاحها قصت لها كاميليا كل شيء، فضغطت ضروسها وهمست:

- كنت أشعر أنك معيبة، وكنت سأتصرف، لولا حبك الكبير لولدي وغرامه بك.

- والعمل؟

- ياقوت لا يريدك أنت، فلا تقلقي ستعيشين عزيزة وسيعيش ولدي سعيدًا وإن كنت أنا الثمن.

ووضعت خطة محكمة التفاصيل للحصول على سر فضيحة زوجة ابنها وحرقه للأبد، إذ طلبت من (سليمان) عبد المنتقم مراقبة ياقوت جيدًا وسرقة كل شيء في دكانه.

- وإن وجدتَ خنجرًا مسنونا أحضره.

وتلك كانت أول مرة يلمح دموع الشر في عينيها، فأدرك أن ياقوت أغضبها لحدٍ بعيد، وهو العارف أنه حاول النيل منها منذ سنين، ومن أجل هذا؛ لم يضيع وقتا، فلما نام الناس وهدأ شارع النطرون، ودخل ياقوت دكانه وأغلقه، جاءت الدقائق الأشد نحسًا في حياته، سمع دقًا.

- من؟

- (سليمان).

وكأنها القاضية، فحين فتح الباب كان (سليمان) كغربيب أسود يسد الأفق، فضربه بقبضته فسقط يتلوى، وجمع كل شيء أمامه، وأخذ المظروف وحين لمح خنجرا مسنونا تبسم ثم أخذه وقال:

- هل رأيتني الليلة؟ لو علمت أنك تفوهت بحرف أقسم بشرف جدتي لأنفينك من الحياة.

وبينما يسرع نحو بيته، بُعثرت الصور، وانحنى يجمعها، وكانت الطعنة النافذة التي قتلت قلبه، كأن عينيه سقطت من مقلتيها وهو يرى صور أخته، عارية ويلطخ الدم فخذيها.

- أختي؟!

قعد حزينا على ضفة النهر، فقد انكشف سر آلامها، وعرف لماذا كانت ترفض الزواج حتى بعد أن بلغت السادسة والعشرين، وتذكر يوم أن نجحت بتفوق في الثانوية العامة ومنعها الفقر من دخول الجامعة، وارتضت بالحياة في بيتهم المعدم، لتأكل بقايا طعام زنجو وتخدم أباها العربيد، الذي أجبرها على العمل وأخذ راتبها، وتتحمل غضب أخيها الأكبر، ويطالبها الجميع بما لا تقدر عليه، وكلما تشتَّتَ ذهنه استعاد عينيها وأنينها ووحدتها ودموعها، ويلمع سطح النهر في عينيه فيبتلع ريقه المر وهو يتذكرها تطعمه وتهمس.

- (سليمان) لا تحزن من أجلي، أنا راضية بحياتي.

على سطح البيت وفي شمس الصباح أوقفها أمامه وكانت واهنة ومرتبكة، ولما احتضنها؛ همست:

- جمعت بيضًا كثيرا، هل أعد لك الفطور؟

- أنا من سيفعل؟

واشترى لها إفطارا، وجلس يطعمها وكانت آسفة وتشعر بمرارة وكدر عظيم.

- نور لا تكوني حزينة هكذا.

- حزينة لأجلك يا (سليمان).

- لن تحزني بعد اليوم، فمنذ الآن سأضع قانونا يحميك للأبد. وكلمها بلهجة آمرة ألا تطيع أباها، ولا تخشى غضب أخيها إبراهيم، وأعطاها كل المال الذي معه، وأمرها تشتري ملابس جديدة، وإن أرادت الخروج تكون مرفوعة الرأس، ثم اندفع نحو دكان نصر الله، وجاءت بديعة ور أته غاضبا.

- ماذا؟

أعطاها المظروف وطلب منها تفحص الصور فيه، وتهتزُّ أعصابها حين رأت كاميليا عارية، لكن جبينها تعرق ودار رأسها وهي ترى نور بنفس العري والدم، فأدركت حجم الغضب في صدره، فعضت أناملها، ومكرت بياقوت مكرًا جبارًا، وخبرت (سليمان) بالخطة، فأومأ يفرك يديه، وذهبت بنفسها تحمل فاكهة، وحين رآها ياقوت حكى ما فعله (سليمان)، وزعق:

- هل تعتقدين أنكم فلتم مني؟

- اهدأ.

- أنا أملك صورًا غيرها فأنتم سذّج.

- أغلق الباب.

نفذ أمرها وقبل أن يحتضنها همست:

- أنا محرومة منذ زمن بعيد.

وحين همَّ بها، سمع دق على الباب، وتظاهرت بالخوف، فحدثها أن هذا أمر لا يهم، وطلبت منه أن يمتعها في مكان آمن.

- أين؟

أعطته مفتاح بيتها القديم، وطلبت منه أن يدخله فجر يوم الاثنين، ولما استفهم، أجابته أن البيت قبالة دكان ولدها وهو لا يفتح هذا اليوم.

- حتى نتمتع براحتنا.

وقبل الموعد بقليل مضغ حبوبًا مخدرة تعرف في عالم البلطجة بالصراصير، وكان تصوره أن يصيب الخدر أطرافه فيتمتع أطول وقت ممكن، وقبل شروق

الاثنين كان في البيت، وحين دخلت سحبته لحجرة خالية ومصمطة وسميكة الجدر، ولما غلقت الأبواب، برز (سليمان) و(كاميليا)، وقُيد بسلسلة من حديد، وغزه (سليمان) بالخنجر فقطع أذنه، وسألت بديعة:

- من يعلم غيرك بهذه الصور؟

وفي هلوسة كان يحكي القصة الكاملة مع زنجو، لكن المصيبة الفادحة حين ذكر (بدير العدوي)، وتحدث أنه ذات مرة فتح حديثا معه وحكى عن نور عبد المنتقم، فابتزها بدير وكان يغتصبها، ثم أخذ الكاميرا وصورها عارية وحمض الفيلم واحتفظ بنسخة من الصور، وبعد ذلك أتى حارس زنجو وأخذ كل شيء.

- صور أختي عند بدير العدوي؟

- هذه هي الحقيقة.

- وكيف استدرجتَ أختي؟

ولما تلجلج في الحديث ضربه بقبضته وحطم أسنانه:

- تكلم.

خبره أنه في بعض الأحيان كان يمد أباه (فهيم) بالحشيش، ولما كانت نور في صفها الأول الثانوي استخدمها فهيم كوسيط النقل، ولما كانت يائسة، قدم لها وجبة طعام، ثم أسكرها، وفعل فيها كما فعل بغيرها، وتزيده الحبوب المخدرة شجاعةً فيخبره أنه فعل بأمه نفس الشيء، ثم ضحك في غل محسور:

- ربما كان أبوك على علم.

- و أين الكاميرا والأفلام؟

- عند زنجو.

- ولماذا كان زنجو يفعل ذلك؟

- اسأله إن استطعت.

- لم كذبت في شهادتك أيام قضية موسى؟

- جاءني رجل وأعطاني (حشيش و أفيون) وطلب مني ذلك.

- صفه لي.

وجعل يصف الرجل الذي ظهر عقب تلاشي الهيلوكبتر، ليجز (سليمان) عنقه بالخنجر، وتصب كاميليا البنزين عليه، وتلقي بديعة بالثقاب فيشتعل، ويشاهده الثلاثة يفني من الوجود.

(٢٩)

ورث (سليمان) عن آل عبد المنتقم القدرة على التحايل والالتفاف واستخدام الزمن، ولهذا فإن رد فعله يبدو بطيئًا، لكنه يختزن كل شيء حتى يتمكن من إعطاء رد الفعل اللائم في أنسب وقت، ولا مانع من تكشّف مزيد من الحقائق وربطها بالعلوم القديمة التي تعلمها من موسى، والدموية عنده لا بد وأن تسير وفق بنود مقنّنة بحرفية، ودون ترك أثر، لكنه لا يعلم أن أخته مصابة بالإيدز، وكذلك هي، لأن زنجو منذ أخذ الأفلام من ياقوت وحمضها، أعجبته نور، وعرف أنها ابنة خادمته دلال، وقدم لها مبلغا كبيرا من المال وطلب منها أن تشتري طعاما جيدا وملابس لأولادها، فقبلت المرأة يده وشكرته ودعت الله أن يزده رزقًا، وبعد فترة سألها عن فتاة تصلح للعمل كموظفة في الفندق، لكنها خشيت أن تدله على أحد، فاستدرجها لحديث عن عائلتها، وتحدثت عن كل شيء وذكرت ابنتها الحاصلة على شهادة الثانوية العامة ولم تدخل الجامعة، فتظاهر بجهله ورسم على وجهه بسمة زرقاء، وأصدر أمرا.

- أحضريها.

ولما دخلت نور القصر، انفرد بها وعرض عليها الصور، فركعت تتوسله الرحمة، ومنذ هذا الحين وهو يقدمها وجبة نادرة لزواره الأثرياء، واعتبرها جوهرةً لا مثيل لها، فكان لا يستخدمها إلا مرة كل شهر، أو حسب الطلب والفائدة، وكانت تفعل ذلك خشية عار يقتل أمها المريضة، أو يعرف (سليمان) بشأن صورها فينهار ويدمر، وقد عاشت تحمل بداخلها نفسًا مضطربة، فرغم أن اليأس بلغ منها مراحل أفقدتها حيثيات الحياة؛ منعت نفسها عن الانتحار، ولما كان بدير العدوي محتفظا بنسخة من صورها، كلما رآها وحيدة على السطح وخاصة أوقات الصباح، اغتصبها غير عابئ بدموعها ولا بحسها المفقود، وبينما تُستغل في الفندق انتقل إليها الإيدز وطبيعي أن ينتقل منها لبدير، وبعد حرق ياقوت الأحمر كان سهلا

على بديعة أن تجمع بقاياه وإلقائها في مصرف صحي يرتد ماؤه القذر للنهر، ولم يسأل أحد عليه، وأما كاميليا فسعدت بالاشتراك في قتله وكانت تفرح كثيرًا وهي ترى حماتها تلاعب حفيدها وتنبثق منها الكلمات:

- قنديل، طالما أعيش؛ أنت و أبوك وأمك في حمايتي.

واجتمعت بديعة بـ(سليمان)، ونصحته بالتزام الصمت فترة ريثما يستطيعون النيل من زنجو وطلبت منه مر اقبة أخته جيدا، وكان زنجو قد أرسل واحدة من عاملات الملهى كي تُعلم (نور) أنها مطلوبة، وطبيعي ألا تذهب العاملة لبيتها، و إنما كانت تعطيها إشارة متفقا عليها، فتظل تروح وتجيء بالجهة الخلفية من الحارة حتى تراها، ثم تعطيها إشارةً بالأمر والموعد، ولما عادت دلال منهكَة ونامت على الفور، وكان البيت خاليا، وقرب الثامنة مساء خرجت نور تخفي نصف وجهها بطرحة سوداء، وكان (سليمان) متظاهرًا بالانشغال في دكان نصر الله، وحين رآها تتبعها حتى دخلت الفندق، و انتظر يأكله الغضب، وكان زنجو قد تطور فلم يعد بحاجة لكاميرا فوتوغر افيا بل كان يتم توثيق البغاء بكاميرا الفيديو، وخرجت نور من الفندق بعد ساعة،

تقبض في يدها على مبلغٍ ضئيل، وتكب وجهها في الإسفلت الساخن، وحين وصلت البيت كان (سليمان) وراءها، فنظر لها بعين متحجرة، وسألها عن شيء تحتاجه فهزتْ رأسها نفيًا، ووقف يتفكر كيف يحميها في الوقت الراهن من هذا الإعصار الفاسد، فقرر ملازمتها على الدوام حتى عجزت عن تلبية أمر زنجو الذي احتار، لكنه أجّل النظر في أمرها، وجعل يقلب الصور القديمة ليبحث عن بديل، وبدورهما قامتا بديعة وكاميليا باستدراج نور لبيتهم ومصاحبتها وفتح أحاديث معها وقلما شاركتهم الضحك، ثم تجرأت بديعة وطلبت منها ترك بيت أبيها لتعيش معها فو افقت، وكلما سأل زنجو (دلال) عن أحوال بيتها حكت له كل شيء.

- كيف تسمحين لابنتك بالمبيت في بيت آخر؟

- ماذا أفعل؟

وجاءت بداية انتقام (سليمان) من بدير العدوي، ففي يوم امتحانه بالثانوية العامة ذهب للمدرسة ثم قدم الورقة دون إجابة وخرج مبكرا، وأشعل سطح بيت بدير كالذي يُدمر مكمنًا مهينا، وحين رآه يحوقل ويدعو ربه الستر والرحمة، وتذكره قديمًا حين طرده من المسجد وتخيله يغتصب أخته.

- ساعدني يا (سليمان) فالبيت يحترق يا بني.

ويتركه ويمضي، ثم كررها في السنة التالية، وأصبحت كاميليا ونور صديقتين، وبديعة تحرس حفيدها، فتذهب به للمدرسة وتنتظر خروجه كأنها تحميه من العالم المخيف، فلم تنسَ قط يوم أن رأت (سليمان) ملقىً عند طرف ملعب عبد الأمين والدم يغطي لحمه الغض، ولما أعلنت شركة للأمن الخاص عن حاجتها لشباب أشداء، استأذن من بديعة ترك الدكان واللحاق بها، فعرفت فيم يفكر.

(٣٠)

للسياسة خُدّامها الأوفياء؛ وقد رسخ في معتقد بعضهم أن خدمة الوطن لا بد وأن تعبر على جسر الجوهر الإنساني المحدود؛ فالجسد يجب أن يتمتع بكل المتاح، المؤقت أو المستمر، فالإنسان عند فلاسفة السياسة هو رب الوجود الأدنى، وعليه؛ فإنه لا مانع من تخليق البؤر الجاذبة للبشر طالما أن المنفعة متبادلة، فبعد تعرض مصر لانتكاسةٍ اقتصادية في مطلع التسعينيات للقرن العشرين، أغزر الرئيس من خطبه الواثقة عن مكانة الوطن السياحية، وهب المسؤولون يقدّمون الخطط العاجلة والمبشرة بثمار اقتصادية لا تعطب أبدا، ولم يمانع الرئيس في ذلك طالما أن حدود الوطن يحرسها الجنود، وكان من ضمن الخطط التي طرحها بعض المسؤولين، فتح المعبد المغلق في واحة إكنار، وحين عُرض الأمر على بعض خبراء الاقتصاد انفرجت أساريرهم وهو يتخيلون إكنار مركزًا دينيا عالميا، وقد عبّرت بعض الصحف عن سعادتها، وصار الشعب يتساءل، فتحدث كبار المسؤولين بوضوح شديد أن ذلك الأمر ينفع ولا يضر، وتساءلوا محتجين عن ما الذي يمنع الناس من ممارسة عباداتهم في حرية، وقالها أحدهم على شاشا التلفاز:

- معبد إكنار له مريدوه في العالم، وفتح أبوابه إشارة عظيمة أن مصر صدر الدنيا الرحب، كما أن هذا الأمر ينشط السياحة ويدخل مزيدًا من الاستثمارات للوطن.

ونشرت الصحف العالمية الأخبار عن فتح معبد واحة إكنار، ويتمادى المسؤولون في إخلاصهم للوطن، فيقترحون إعادة النشاط لضريح مسعود الحبشي تارة أخرى طالما أن فيه نفعًا ماديا، ولما تحدث البعض عن كون مسعود الحبشي يهوديا، وصارت نقاشات حادة في مجلس الشعب والصحف وبرامج التلفاز، وفي النهاية أقنع السياسيون الجميع أنه لا ضرر مطلقًا، طالما أن زوار مسعود أبرياء وليسوا جنودا، وإذ يعلم الناس في المندرة بهذا، تذكروا موسى الرومي حين عُثر

قديما على وريقاته التي أرخت هذه الحقيقة، فاكتفوا بهز رؤوسهم وإلقاء كلمات قيلت في أزمنة غابرة:

- صدق موسى.

ويتبسم زنجو الجالس يشاهد التلفاز، وهو يرى المسؤول يدعو رجال الأعمال ألا يتكاسلوا عن المشاريع المطروحة، ويعدهم أن الدولة ستمهد السبل فلن يجدوا المعوقات في حالة الاهتمام بواحة إكنار والضريح، ويُبهر مانو ويتراقص في شارع النطرون، ويهتف باسم الوطن ويبارك له بعض سكان المندرة، لا سيما مؤيدو الأفكار الباحثة عن مخارج أزمات اقتصادية تريح الشعب، وتجعل الوطن في مقدمة الأمم كما اعتقدوا، ولما كان مانو هو مُصدّر منتجات الألبان والمخللات لفندق وملهى زنجو، ومع علمه أن الضريح كان وما يزال تحت إشرافه وأنه قريبا سيفتح كمزار ديني لليهود، اتصل بأقاربه في الولايات المتحدة وكان يتوسّلهم أن يسمحوا له بالصلاة في الضريح ولو مرة واحدة فحذره واحد منهم:

- يا مانو أنت رجل اقتصاد، حاول تستفيد من كل شيء حولك، وضريح مسعود هو أحد مسببات ذلك، لكن لا تندفع، واعلم أن معبد إكنار فرصتك الاقتصادية العظمى، وإياك أن تنشغل عن أبناء عمومتك، تفهمني بالطبع. وحين جاءت سيارة الفندق لحمل منتجاته؛ قرر الذهاب وسؤال زنجو عن آخر توسعاته، ويعرض عليه الاهتمام بمعبد إكنار، خصيصًا إنه أقرب رجل أعمال إليها، وحين رآه اعتقد أنه جاء ليأخذ ثمن منتجاته، فأمر أحد عماله أن يقدم له كأس خمر، وتحدث عن منتجاته القيمة التي يحبها زائروه ثم قدم له مبلغًا من المال.

- يا زنجو بيه جئتك لأمر مهم.

- خير.

وفي حزن مبالغ فيه كان يتحدث عن ضريح مسعود وكيف أنه قيمة دينية تاريخية، وأن اليهود في الدنيا بأسرها سعداءُ بقرار الحكومة بعد الاعتراف به

حاخامًا يهوديا قديرا له كراماته، وود زنجو حينئذ أن يطلق ضحكة لكنه كان يهز رأسه وينتظر نهاية الحديث، ويبكي الآخر وهو يطلب منه الاهتمام بالضريح وتنظيفه من براز الحيوانات وتطهيره من الزواحف والخفافيش.

- حتما سأفعل ذلك، فأنا أحب مسعودا حبًا عظيمًا.

وقرر زنجو إنشاء فندق وملهى في واحة إكنار، وجعل يربط بين المشروعين في آن واحد، وبينما يتحدث عما سيفعله بالضريح باغته في الحديث عن اليهودية، وما من ثمة عيب في هذا، بل إن المؤرخين الحاليين يمدحون علماء اليهود، ويرجؤون لهم الحضارة الحديثة.

- لكني وأصدقك الحديث يا مانو لن أستفيد من الضريح بقدر ما يمكنني الاستفادة من واحة إكنار، سمعت إن هناك معبدا كان الناس يأتونه من كل بقاع العالم.

- أعرف كل شيء في إكنار.

- عظيم.

- أنا محبوب هناك أيضا.

- أنت محبوب في كل مكان يا مانو.

- أستطيع مساعدتك.

- كيف؟

- قل لي فيم تفكر يا زنجو بيه؟

- حدثني أنت أولا عن هذا المعبد إن كنت تعرف وأظنك كذلك.

ودفع الخيال المادي مانو إلى الحديث عن واحة إكنار ومعبدها الديني، وكيف أن الناس هناك على درجة ممتازة من الوداعة، وكل ما في الأمر أنهم قلة منبثقة عن الديانة الأصلية للبهائية، وقد فصلوا أنفسهم هناك، واختاروا عبادة الله الواحد من خلال طقوسهم ولا عيب في ذلك، وأسرع في الحديث عن كونهم في الأصل أثرياء وهم الذين بنوا المعبد من أموالهم طواعيةً لربهم الغفور، وكانوا في ثلاثينيات

القرن العشرين يتصرفون بحرية بعد أن نالوا أحكاما قضائية تسمح لهم بممارسة عبادتهم في حرية والدعوة لعقيدتهم السمحة، فهم أناس يهتمون بالروحانيات الربانية الكريمة فقط.

- الروحانية فقط يا مانو؟

- والباطنية.

- الباطنية؟

- نعم.

- لا بد أن هناك علاقة بين باطنيتي وباطنيتهم.

- ماذا؟

- أنا باطني.

- أنت؟

ويرمقه زنجو بعين خبيثة فاهمة ويفاجئه:

- أنا من حي الباطنية يا هذا، فهمتني الآن.

- ليس هناك داع للكلام الموارب يا زنجو بيه.

- وليس هناك داع للتظاهر بالجهل، دعنا نلعب على المكشوف.

- فهمت، تقصد أن الروحانيات خاصتهم تتأتي باطنيا بعد الاتصال بالمدد.

- والمدد يأتي من هناك، من باطنيتي أنا، هذا هو الكلام المنطقي، أكمل. واسترسل يسرد تاريخهم وكيف أنهم بنوا بمعبدهم عدد من الحجرات كاستراحات مؤقتة وقاعات صغيرة لتعليم دينهم لمن يريد، لكنهم تعرضوا لنكبة كبرى حين تعرضوا للتسفيه القاسي من أبناء جلدتهم، واعتبروهم قلةً منشقة عنهم، وتزداد حياتهم تعقيدا حين أغلقت الدولة معبدهم بقرار إداري في ستينيات القرن العشرين، فاستسلموا للواقع، وعقد بعضهم العزم على البقاء في إكنار على أن يقتاتوا مما بقي من أموالهم حتى أفلسوا، فاضطروا لرعي الأغنام وانتظار الفرج، وحتى لا يتعرضوا للإساءة أكثر والشعور بكونهم أقلية منبوذة اضطروا لكتمان أمر

دينهم، وفي بادئ الأمر استخدموا الحجرات الصغيرة كبيوت معيشة، وكان ذلك عن طيب خاطر منهم، ولأنهم يحترمون دينهم ومعبدهم اضطروا للعيش في خيام وبرية وحجرات أسمنتية على مبعدة منه، وظلوا يعبدون ربهم ويدعونه هداية الناس جميعا، وكانوا وما يزالون يعلمون أبناءهم أصول وفقه دينهم الداعي للوحدانية، والآن قد فتحت الدولة ذراعيها لهم، ودعت لزيارة هذا المعبد فمن الأكيد إنهم سيفرحون ويتعاونون مع من يساعدهم في استعادة مجدهم القديم.

- الدولة لا تهتم بالدين يا مانو.

- مصر دولة عظيمة وعتيقة و...

- ولكن قل لي كيف عرفت كل هذا عن إكنار؟

- أنا؟

- نعم أنت.

- أنا أحب قراءة التاريخ، ولست وحدي من يعرف ذلك.

- أشعر بعلاقة وجيهة بينك وإكنار، هل أنت يهودي يا مانو؟

- هذا هو اللغط بعينه، يا زنجو بيه لا علاقة للبهائية باليهودية، أنت بذلك تكرر كلمات المحتجين على انسيابية الحياة، ولكن دعني أخبرك ما يقال في معتقد عائلة مانو.

- تفضل.

- يقول أناس إننا يهود ويقول آخرون إننا مسيحيون، ويقول البعض إننا مسلمون.

- و أنتم ماذا تقولون عن أنفسكم؟

- نحن معتقدنا الأول الاقتصاد، وضريح مسعود الحبشي مصدر رزق عال.

- بمعنى؟

- أنا شخصيا أنتمي للا دينيين.

- يعني تعتبر ديانتك هي الاقتصاد.

- الاقتصاد ليس ديانة و إنما علم.

- حدثني فيه إذن.

وحدثه مانو عن معارف و أقارب له في بقاع متناثرة بالأرض، كانوا يراسلونه منذ سنين وحنيما يجيؤون لمصر من أجل واحة إكنار، وباعتباره مصريًا كان يصحبهم لزيارة المعبد، ثم تكلم بشجاعة:

- ولا عيب في هذا.

- وما علاقة هذا بالاقتصاد؟

- يا سيد زنجو إن هؤلاء هم زبائنك الجدد، وعلى درجة عالية من الثراء.

- فهمت، وبذلك نساعد الدولة في الظهور بروح السلام العالمي، ثم نفيدها ونستفيد، وبما أنك تعرف إكنار وأهلها ومعبدها فنحن شركاء، ستكون شريكًا في الإدارة فقط.

- الأمر لك، ولكن لا تنس وعدك بإعادة أمجاد الضريح.

- لا تخف.

ومشى مانو على وعد بالسفر معه لزيارة إكنار، وكان (سليمان) يرقب الفندق وهو يتظاهر بكونه يتمشى في مدخل المندرة، لكنه تعجب من رؤية مانو يستبشر فرحا وهو يودع زنجو، فتوارى حتى لا يراه فهو يعرف أنه داهية يشك في كل شيء، وكان يتحين فرصة لاستدراج زنجو وحيدا، لكنه لا يسير إلا بحراسة، وخط سيره محدد بين القصر والملهى والفندق، وتطول أيام المراقبة وتحل أيام امتحاناته في المدرسة، ولما حدث بديعة عن رغبته في عدم حضور الامتحانات، صفعته وخبرته أنه رسب في الثانوية مرتين على التوالي، فامتثل صامتا.

- أختك في بيتي، اترك مراقبة زنجو وتعقل لفترة، بقيت شهور وتبلغ العشرين سنة.

وفي أيام امتحاناته كانت كاميليا تراقب زنجو لبعض الوقت، وفوجئت بمانو يزوره ويذهبان معا باتجاه الضريح، فانقبض قلبها وتذكرته قديما حين كان يزور

معبد إكنار مع رفقائه ومعارفه، وكانت تخشي أن يصحب زنجو هناك فقد انتشرت بعض أخبار عن صيانة معبد إكنار وقريبا ستفتح أبوابه لكل زوار العالم، وكانت موقنة أن زنجو سينشئ مشروعًا كبيرا هناك، فبكت بين يدي بديعة، لأنها أصبحت تشك أنه عرفها ويخبئ أصول صورها ليستغلها في مسقط رأسها، وصحبت بديعة حفيدها وذهبت لدكان مانو وسألته عما يحدث، فجعل يخبرها بقدوم خير كبير، فالبلاد فتحت صدرها للعالم، وانزلق منه الكلام عن إنشاء فندق وملهى بواحة إكنار، ولما سألته عن سبب قبول زنجو مشاركته.

- أستطيع جلب العالم كله لإكنار.

- هه.

- والمندرة أيضا.

- بارك الله فيك يا مانو.

وبينما هي عائدة ألقت نظرة على ولدها نصر الله، فرأته مرحا في جوف دكانه المزدحم بزبائن يطلبون منه الإسراع في عمله، فما ينفك إلا ويمازحهم، فتبسمت بمرارة وكادت عيناها تدمع وهي تتخيله يرى صور زوجته عارية، وتنظر لوجه حفيدها الضاحك مثل أبيه، وتومئ أرضا تتفكر في زنجو صاحب السلطان العظيم فهو لن يتردد في تدمير حياة ولدها، ولم تدرِ بنفسها تعض أناملها غيظا وهي تنظر لبيت عائلة الرومي وتتذكر صاحبتها بسيمة وكيف عانت من مرضٍ غريب حتى ماتت أمام بوابة السجن، ولم يحملها أحد خوفًا من مرضها المعدي، وبقيت جثتها ملقاة في الأرض حتى تعفنت فردموا عليها بالتراب، ولما اسودت الدنيا بوجهها همس لسانها:

- تُرى أين أنت يا (سليمان) وماذا تفعل يا بني؟

عادت تجرجر قدميها تفكر كيف تصنع له ممرا آمنا يخترق به هذا العالم الفاسد والمحيط بهم، وأخفت حزنها وهي تتحدث مع كاميليا عن أقوال مانو

ومشاريع إكنار، وسهدت أياما تدبر خطة، وفي الصباح وبينما تشتري الجبن من دكانه تبسمت غصبًا وقالت:

- ألا تخدمني يا مانو؟

- أنت المرأة الوحيدة التي أحترمها يا بديعة، عيوني لك، بم تأمرين؟

طلبت منه عملا لـ(سليمان)، فخبرها أن هذا متاح، فالفندق الجديد في إكنار سيحتاج لحراس، فذكرت أنه نال دورة في الحراسة الشخصية.

- لا بد من شهادة معتمدة يا بديعة.

ثم خبرها أن الوقت متاح، فلم يبدؤوا بعد في بناء مشاريعهم، وعادت وأبلغت كاميليا بالأمر فهدأ قلبها، ونجح (سليمان) في الثانوية، والتحق بجامعة الإسكندرية، البعيدة عن المندرة، فاضطر للعيش فيها نزولا على رغبة بديعة، وشارك زنجو في تجديد معبد إكنار وانتهى من بناء الفندق، وعين ابنته (برلنتا) مديرة له، وكان مانو سكرتيرا، وباستخدام اتصالاته ساهم في جلب الزوار من شتى بقاع الأرض، ويضيق صدر زنجو حين يأتيه أحد زبائنه القدامى ويطلب (نور عبد المنتقم)، وفي الوقت نفسه كانت دلال ديلم بلغت من المرض مراحل خطيرة، فتركت نور بيت بديعة واهتمت بها، وتحاول بديعة كثيرا في إبراهيم أخيها الأكبر أن يحرسهما فلا يبالي، فاضطرت للجلوس أمام باب دارها وهذا لم يكن عادتها قط، إنما فعلت ذلك لحسها أن زنجو سيبعث رسولا في القريب، وكان (سليمان) مشغولًا في دراسته بالجامعة في وكلما حدث بديعة عبر الهاتف تخبره أن كل شيء آمن حتى الآن، ولما اقتحمت سيارة حارة جلال الدين، وترجل عنها أحد حراس الملهى، تصدت له.

- جئنا لزيارة دلال الخدامة أليست مريضة؟

ومن حسن حظ نور أن الحارس حين دخل البيت ماتت أمها في التو، فتراجع أمام صراخها، وعلى الفور اتصلت بديعة بـ(سليمان) فعاد لدفن أمه، ولأنه ذو شكيمة وجسد قوي وحس شديد البأس، حمل مقدمة النعش بمفرده وتقدم

الجنازة، ورغمًا عنه وبينما يُقذف التراب على وجهها سالت دموعه وهو يتذكرها تقف تائهةً أمام قصر زنجو، ولما أشاح بوجهه بعيدًا كانت صورتها تلوح في الآفاق وصدى أنينها يدمر الهواء حين قالت لزنجو:" أنا الخدامة يا سيدي"، فابتلع ريقه واهتزت حنجرته ونطق:

- فليرحمك الله يا أمي.

ثم سافر امتثالا لأمر بديعة، وعادت نور تعيش معها، واعتذر زنجو لزبونه على وعد بتحقيق مراده، وحين حام بدير العدوي حول نور، استدرجته بديعة لبيتها القديم و انقضت عليه هي وكاميليا وقيدتاه بسلسلة قوية لحين عودة (سليمان)، وكان يصرخ ولا مجيب له وترمي له بديعة بالطعام أرضا فيأكله بالتراب، ولما أعلن مانو عن حاجته لأشداء يعملون في واحة إكنار، ذكرته بديعة بوعده، فسألها رؤية (سليمان)، ورغمًا عنها اتصلت به وطلبت منه ترك دراسته بالجامعة لفترة، ولما رآه مانو أعجب بفتوته، وعينه من ضمن أربعة حراس في نقل منتجاته لواحة إكنار ثم عرضه على ابنة زنجو، فقبلت به أحد حراس الفندق الجديد، وفُتح المعبد والفندق الجديد في إكنار، وظهرت الواحة في التلفاز بمظهر مشرف، وحضر المصورون من أرجاء المعمورة وتناقلت الأحاديث عن زيارة الرئيس وحرمه لها قريبا، وفرح المسؤولون وهم يرون الناس من العالم يجوبون الواحة بأريحية تامة ويدخلون المعبد في سكون وقناعة، ويغتاظ مانو حين يرى زوار الضريح قلة خائفون بينما إكنار بلغ صيتها مغارب الأرض ومشارقها، ويلعن نفسه ألف مرة؛ لأنه يعتبر نفسه السبب الأوحد في ازدهار إكنار، وبدأ يلح على زنجو أن يتدخل لإعادة مولد مسعود الحبشي.

- ألا ترانا ناجحين في إكنار ثم إن الضريح مفتوح لزائريه.

- الاحتفال بالمولد شيء والزيارة في سكون شيء آخر.

ويلحظ زنجو تهديدا في لهجة الآخر كالذي يخبره أنه بإمكانه منع معارفه من زيارة إكنار، فوافق على طلبه، و اقترح إعادة المولد في حدود ديانة المدفون وحصل

على الموافقة، وتحقق هدف بديعة من تشغيل (سليمان) عند مانو، فلما حل موعد الاحتفال بمولد مسعود الحبشي وازدحم الملهى والفندق وامتلأ مدخل المندرة الجنوبي بالزوار، اضطر لاستدعاء (سليمان) كي يحرس منتجاته الكثيرة المنقولة للفندق والملهى، وهو لا يعلم أنه قدم له خدمة من أعظم ما يكون، ولو عاش (سليمان) على طول مائة سنة ما نال فرصة مثل تلك، فبعد وصوله لبدروم الملهى، وبينما تنقل المنتجات، سمع صوتا حبيسا يتحدث الفرنسية، ولأنه يجيدها عرف ما يقال.

(٣١)

ورغم أنها أعلمته بحبس بدير العدوي منذ فترة، لم يتعجل في الذهاب إليه، وكان ذهنه مشغولا في أخته، فقد لاحظ عليها أمارات مرضية أقلقته بشدة، كصداع مستمر وطفح جلدي في عنقها وغثيان وقيء مستمر، فتابعها عن كثب، واهتم بمطالعة جميع الأخباروالنشرات العالمية المنوطة بالإيدز، ويتحول قلقه لتوتر حاد بسبب ما يشاع في العالم عن هذا المرض، وهو إن العلماء لم يكتشفوا له علاجا حتى الآن، لكن حدة توتره قلت بعد اطلاعه على تاريخ الوباء الكبدي، فلما أشاعت الحكومة المصرية أنه وباء يصعب علاجه، يئس كثيرون وماتوا متليفي الأكباد، ولما أعادت الحكومة النظر فيما قالته، وقلبت أقوالها وأصبحت تردد أن بالإمكان علاج الكبدي الوبائي عن طريق الحقن بمادة الانترفيرون، وبمقارنة ما يشاع قبل وبعد؛ فإن ما يقال في الإيدز هو الآخر قد يكون محل لغو، وإن هذا المرض في سنوات قادمة وباء يعالج بالحقن أو غيره، فما من داء إلا وله دواء، لكنه الآن بحاجة للتأكد، ولما شكت أخته من نشران دائم في العظام، وضعفا حادا في المناعة، عرضها على طبيب في القاهرة واشترط أن يكون الأمر سريًّا، ويساعده القدر؛ فحين عاد لبيته بحارة جلال الدين؛ جاءه رسول من جدته ثريا هانم، فسافر إليها في الإسكندرية، حيث تعيش في أحد قصور عائلة عبد المنتقم، وكانت جدته نائمة، فتيقظت وأمسكت عن الدموع بصعوبة بالغة، وخشيت لو تكلمت ينفجر نحيبها على حفيدها الذي ما تزال تراه بطلا، وأعطت إشارة لأحد خدامها فاستخرج دفترا بنكيا وقدمه له، فعرف أنها ومنذ كان رضيعًا وضعت له مبلغا ضخما من المال، وأرادت أن تعطيه إياه، ويتعجب الجميع من صلابته وعينيه الجامدة، ولم يكن متسرعًا فيسأل عن علاج لأخته التي تأكد أنها مريضة بالإيدز، فقبّل رأس جدته وقبل أن يرحل همست:

- (سليمان)، هل تدري شيئا؟
- لبيك يا جدتي.
صمتت وتبسمت، ثم أبحرت في وجه حفيدها القوي وقالت:
- لن تخيب نبوءتي أبدًا.
قعد جوارها مُتعجبًا، واحتضنها فبكت، ومسح دموعها وسأل:
- وما نبوءتك يا جدتي؟
- ستعرفها يوما ما يا ابن عبد المنتقم، إياك والضعف، عش قويًا و انتصر دومًا، اذهب يا بني، وعد متى تشاء.
و ابتهجت نفسه قليلا وهو يضع رصيدا ماليا في مستشفى خاص بالقاهرة، ثم نقل أخته للعلاج فيه، ويبلغهم أنها نور سليلة آل عبد المنتقم العريقة، ويطمئنه الطبيب:
- لقد مرت أختك بالأعراض الأولية للإيدز أما الوقت القادم فستكون بأمان بين أيدينا.
طلب منه كتمان السر نهائيا ولو أتيحت فرصة علاج لها في الخارج كل ما عليهم أن يبلغوه، وقبل أن يترك أخته أعلمها أنه عارف بما جرى، وخبرها أنها بأمان تام ولا تقلق، وعاد إلى المندرة، فدخل بيت بديعة القديم، وقعد قبالة بدير العدوي، يتأمل وجهه القمحي المترهل، ويجوب ببصره نحو شفتيه الزرقاوين وأسنانه الصفراء، وشاربه الأبيض، وعينيه الخبيثة، وعنقه المعبأ بنتوءات بنية كحشرات قبيحة.
- سامحني يا بني.
- يراودني شعور أنني سأحتاجك في زمن قادم، متى آخر مرة اغتصبت أختي؟
- لا أذكر، وآسف سامحني.
- طيب صف لي بما تشعر دائما.
ولما تحدث بدير عن شعور بالضعف والتيه، كان يظن أنه سينزع شيئا من رحمة وهو يتوسل إليه:

- (سليمان) أريد ماء.

- عطشان؟

- نعم.

- لك ما تريد، لكن لا بد أن آخذ أنا ما أريد.

ويرتدي قفازا سميكا في يديه، ويجيء بحقنة، ويغرس سنها في وريده، ويملأ أنبوبة الحقنة بدمه، ثم يضعها في حقيبة صغيرة.

- أين تخبئ صور نور؟

- في البيت.

- في أي مكان فيه؟

- دعني أخرج وأجلبها لك.

- لن تخرج من هنا ولا أريد صور أختي.

وإذ يستخرج الخنجر من جيبه الخلفي، صرخ بدير يطلب نجدة، ولما انتهى من الصراخ، تحدث كالذي يساوم، واعترف بمكان الصور، صندوق معدني ومحكم الإغلاق وفوق السطح، وبالفعل وجده (سليمان) هناك، تحت كومة أحجار، ولما فتحة وعثر على الصور حرقها في الحال، ثم ذهب لدكان نصر الله وسلم عليه ثم اتصل ببديعة، وطمأنها على أخته، وتتعجب وهي تسمعه يطلب منها الحفاظ على بدير العدوي فهو بحاجة ماسة إليه، وعليها ألا تخشى شيئا فهو في طريقه للقضاء على ما تخافه وستعيش كاميليا ونصر الله وقنديل بأمان دائم، والأمر كله مسألة وقت وترتيب جيد، وفي عيادة التحليل عرف أن (بدير العدوي) مصاب بالإيدز فقهقه حتى أدمعت عيناه، فقد صدق اعتقاده في حاجته إليه.

(٣٢)

وهذا السور العريض؛ لونه صحراوي، وارتفاعه مهيب، ويحاصر مساحة شاسعة، ويلتصق بحافته العليا سلك شائك وحاد الأسنان، وعلى مسافات محسوبة فيه أنشئت طوابي، في كل واحدة يقعد عسكري حراسة، وله بوابة حديدية وعملاقة وذات فتحة ضيقة للزوار والمساجين، أما الكبيرة للسيارات، فأمامها ممر مسفلت، وتصطف شجيرات جرداء على جانبيه، وبعد الدخول مباشرة، دائرة طوبية واسعة، تحاصر طينا جافًا، وتتناثر فيه نخلات قصيرة، وإلى اليمين منها مبنى الإدارة، وخلفه عنبر العساكر، وأما عنابر المساجين فتقع بالمنتصف، وتحاصرها الشمس الحارة طوال النهار، ويخبطها صفير الريح وعواء الذئاب طيلة الليل، وكان موسى نائمًا بأرضية العنبر، ومع اقتراب الفجر سمع أزيز هيلوكبتر قريبة من الأرض، فهب يصرخ:

- أنقذونا.

وينظره المساجين بسخرية، وتعلو ضحكاتهم وهو يحذرهم من هذا الهجوم، ويتمتم كثيرون بالرحمة من خرافاته، فكلما سمع أزيزًا استنجد بمأمور السجن (أحمد عبد العدل)، فيأتيه شخصيا ويفتح معه حديثا عن أسباب مخاوفه.

- نحن نُسرق يا سيدي.

ولأن هذا المأمور رحيم القلب، كان يسمعه حتى ينتهي، وكانت تعجبه أحاديثه عن المنطق والحرب المعلوماتية القادمة، وتوقعاته بقدوم إعصار فوضوي تحت اسم الاقتداء الثوري العالمي، وأنه يجب على الحكام الانتباه لذلك.

- وما علاقة الهيلوكبتر بذلك يا موسى؟

فيستاء ويزعق: - لا تكن غبيا يا حضرة المأمور.

ينقض العساكر عليه فيأمرهم بتركه، ويحكي قصته القديمة عن الحجر الذي سقط عليه من الهليوكبتر، وكان الآخر يتظاهر بتصديقه، لكن ومع تكراره وإصراره أنه يقول الحق، عقد المأمور حاجبيه وزل لسانه:

- ربما.

ويتهلل موسى، لكنه حين يتقافز، ينهار أرضا ويتأوه بشده من الآلام القوية في عموده الفقري، ومن شدة الوجع كان يغشى عليه، وحين يُفيق يجد المأمور يتأمله في شفقة بالغة وقد أحضر له مسكنات قوية، وبينما ينظر لعينيه أدرك أن الرجل يصدقه حقا، فاقترب منه مثل القرد الأشعث:

- أريد شكارة كبيرة.

ويقهقه المأمور ويأمر بإحضار شكارة، يأخذها ثم يعدل قامته ويقدم التحية:

- يا حضرة المأمور.

- نعم يا موسى.

- أنت تصدقني، وهذا لا شك فيه، أشكر معاليك على الشكارة.

- ماذا ستفعل بها؟

- سأناضل بنفسي.

- لم؟

- لأنك عاجز عن النضال.

- لم؟

- لأنك مأمور، وهذا هو المطلوب إثباته.

- موسى؟

- نعم سيادتك.

- اعتبرني صديقك، اطلب ما تشتهي.

يغمض عينيه، فتنساب دموعه وهو يتذكر السنين القديمة، وملعب كرة القدم حين كان يحرز هدفًا، فيحمله أصحابه على الأكتاف، ويهتفون باسمه، وتنتقل الذاكرة لكارثة الضريح والرجل الشاذ الذي كان يتحدث الفرنسية ويتحسس وجهه، وبداية ضياعه ووصفه بالمعتوه، ويتذكر آخر مرة رأى الكلب برنس وهو ينبح حزينًا خلف سيارة الشرطة، ويلج في الآفاق وجه (سليمان) وضحكاته حين كان طفلًا يسمعه باهتمام ويربّت على كتفه، وينفجر بكاؤه وهو يتذكر أمه المسكينة فيهمس في أسى:

- يرحمها ربي.

- من؟

- لا عليك، لكني أود رؤية عائلتي.

- يزورك (سليمان) عبد المنتقم منذ سنين.

- (سليمان) تلميذي، وهو البطل الأوحد إن لم يكن الخارق، لكنه ليس من عائلتي، إنه عائلة بحد ذاته.

- ماذا تقول؟

- تذكر هذا وحسب.

- سأرسل في جلب عائلتك.

- شكرا لمعاليك، ولي طلب أخير.

- اؤمر.

- آمرك أنت العساكر والضباط بمعاملتي كمثقف محارب وينبغي عليهم تركي أفعل ما أشاء، فالذين في حجمي الثقافي لن يهربوا من السجن، ثم إني مريض لن أستطيع، وإن هربت فمن ذا يتقبلني؟

وحين أرسل المأمور في جلب عائلته، فوجئ المبعوث أن الناس في شارع النطرون يتعجبون، و اقترب منه البعض وحذره من الوباء الكامن في هذا البيت

وسكانه، ولما اتصل بالمأمور و أبلغه، بدوره سأل موسى، حكى له عن أبيه، و أنه منذ عاد آخر مرة من ضريح مسعود الحبشي وكان سببا فيما آلت إليه العائلة.

- هل كان أبوك هو أول المصابين؟

- نعم.

الآن أدرك أحمد عبد العدل صدق ما يقوله، فلو لم يكن هناك حجر فذ بهذه الطريقة لطالته العدوى، ولما كان لا أحد من داخل البلاد وخارجها يزوره طول هذه السنين غير (سليمان) عبد المنتقم، فلا بد أنه لم يتاجر في الآثار مطلقا، فلو كان كذلك لظهر ما يثبت أو على الأقل عولجت عائلته من هذا المرض الغريب، فأبى قلبه الرحيم ألا يرى موسى عائلته، فأخذه بنفسه في سيارته الخاصة، وأمام البيت كان الكلب يتقافز وينبح فاحتضنه وبكيا معا، ثم دخل البيت فرأي أباه كومة عظام رصاصية تتنفس ويكسوها جلد أزرق ضعيف، وأخواته البنات جمعيهن بلا شعر ولا شعور، ورموشهن متساقطة وعيونهن جاحظة، وأثداؤهن مختفية وجلودهن ضامرة، وقاعدات في حجرة وحيدة يأكلن خبزا جافا، فحاول مع أبيه ليعرف ماذا حدث آخر مرة في الضريح، فيشير الرجل إلى عنقه ويعطي إشارة أنه حقن في وريده، ففهم ما يعنيه، وحين جاء ليرحل تبسمت له واحدة من أخواته:

- موسى، اقتلنا فنستريح.

- لا، ستعشن، وستعود إليكن أرواحكن.

خرج يدمع، وقص لأحمد عبد العدل ما رأى، فاستاء كثيرا، ثم هز رأسه قانعًا بأنه لا يقول إلا صدقا، ويهمس: "من ذا الذي يدمر حياة الناس بهذه البشاعة؟"، واشترى أطعمة وفواكه، وأعطاها له فأدخلها البيت، وبينما هما عائدان للسجن أيقن موسى أنه مصدق إياه وحزينٌ لأجله لكن ما بيده حيلة، فقرر عدم الحديث معه بشأن عائلته ثانيا حتى لا يشعره بالضآلة، وكان الهدف من الشكارة؛ أنه قرر إعلان حرب على طريقته، فبينما يكسر المساجين الأحجار كان

ينتقي المناسب لراحة يده ويعبئه فيها، ولما سمع أزيز الهيلوكبتر في منتصف الليل، اعتقد أنها ستقترب منه، ووقف بمنتصف فناء السجن، يقذفها بالحجارة ويصرخ:

- العين بالعين، أنا موسى الرومي لا أخشاكم أبدا، هل تذكرين ما فعلت في قديما، سأصيبك في عمودك أيتها الهيلوكبتر الحقيرة.

ولما خارت قواه، اكتشف أنه كان يقذف عمود الإنارة البعيد، فأدرك أن الهيلوكبتر حين مرت فوق السجن لم تقطع من الزمن شيئا يذكر، ويأتيه المأمور ويسحبه في بطء نحو العنبر ويسأله عن أسباب قدوم هيلوكبتر.

- موسى تعقل.

- أنا عاقل.

- طيب، على الجانب الآخر من السجن، وكل فترة زمنية محسوبة، يتم التدريب مع الجيش الأمريكي، وهذا نوع مهم من المناورات الحربية، فمن أجل هذا تمر الطائرات فوقنا.

- ما اسمها؟

- الطائرات؟

- المناورات.

- النجم الساطع.

- من فضلك أعطني سيجارة وأشعلها أولا.

- ماذا بك يا موسى؟

- هل تدري شيء يا حضرة المأمور؟

- ماذا؟

- كنت أعتقد أن البشر والحجر والشجر والورق والضمير وكل ما في وطني يُسرق إلا شيئا وحيدا، هل تدري ما هو؟

- ماذا؟

- السجن.

- والآن؟

- كلنا في مهب الريح، إلا رجلا وحيدا، هل تدري من هو؟

- من؟

- (سليمان) بن عبد المنتقم.

(٣٣)

عانى جون ماكسيم في بدروم الملهى سنين طويلة، فبعد أن أمر زنجو حراسه أن يحملوه ويذهبوا به للفندق ومداواته على نحو جيد، وحين أحضروا طبيبًا فزع الطبيب، فأعلموه أنه أحد السياح وقد اعتدي عليه بهذه الطريقة الوحشية أثناء مجزرة الانتخابات، ولا يعرفون من طعنه خلف عنقه وخلع عينيه، كما أنهم مسؤولون عن علاجه ورده لبلاده، وأشرف الطبيب على علاجه حتى أنقذه من الموت، وكلما يرطن بالفرنسية يسمع ضحكات ساخرة، وكلما بكى أو صرخ صفعه زنجو ونعته بشاذٍ قذر، وكان اعتقاده من الاحتفاظ به أن سيستخدمه في بناء درع يحميه في زمن قادم، فلما بلغ من الثراء حدًّا لا يصدق، وسيطر على تجارة الحشيش في المندرة ونواحيها والباطنية، اعتقد أنه سيعيش بأمواله زمنا لا نهاية له، فاشترى العقارات في القاهرة، و أنشأ ملهى آخر في مدينة شرم الشيخ، ولما فكر في إنشاء فندق كبير هناك وجد الأمر سيكون باهظ التكاليف، وتعكر مزاجه حين عرف أن إمبراطوريته الكبيرة لا تساوي شيئا مقابل آخرين، وحين عامله بعض رجال الأعمال معاملة مهينة كأنهم يعرفون تاريخه القذر، ولمعرفته أن بعضهم يتاجر في أسلحة، ابتسم منتصرًا لاعتقاده القديم في جون ماكسيم، فأحضر مترجمًا وقرر استخدامه في جلب الأسلحة من مصنعيه بأفريقيا الوسطى ويتاجر فيها مقابل الإفراج عنه ورده لبلاده، فرفض جون ماكسيم نهائيا، و انتابته نوبات صراخ مستمر كأنه ينادي مغيثا، فربطه بحبال متينة وحبسه في حجرة البدروم التي يخبئ فيها كل أسراره، وكل فترة يتفاوض معه ولا ينول غير صراخ، وحين سمعه (سليمان)، فهم أنه يقول:

- أنا جون ماكسيم، أنا فرنسي، وأريد العودة لوطني، لكني لن أتنازل عن أملاكي أبدا، وجئت هنا وكان معي كلبٌ أسود وصغير.

فتيقن أن سرا خطيرا قد يؤلم زنجو لو كشف أمر هذا الرجل، وكان أكثر حذرًا ألا يعرف أنه يعمل تحت إمرة شريكه مانو، ولأنه يعرف أن مانو شديد البخل لم يطلب منه إجازة ليزور موسى ويطلعه بما عرف، وعلى الدوام كان يظهر أمامه منكسرًا ومطيعا، لا يمل من تنفيذ أوامره ولا يطلب أجرا إلا إذا أعطاه، وأصبح يتحين فرصة ذهابه تارة أخرى لبدروم الملهى، وكاد أن يسهو ويقع في خطأ حين كان يتجول وفد سياحي فرنسي بإكنار، وود لو أخبرهم بهذا الأمر، لكنه سرعان ما تراجع، وكلما راوده الغيظ من مانو لعدم إعطائه إجازة، كلما تظاهر أمامه بالتفاني في العمل، لكن الوقت يمر وبديعة قلقة بشأن حياة ابنها، وقد ضعفت قواها، فاضطر للتظاهر بالمرض أمام مانو، فأعطاه إجازة يوما واحدا، وإن لم يعد سريعا فسوف يضطر لاستبداله، وعلى الفور كان في زيارة موسى، فاستقبله المأمور أحمد عبد العدل ببشاشة وكرم، وأجلسه في مكتبه ولما تأكد أنه انفرد بموسى ولأول مرة في حياته جذبه من ياقته.

- تأدب يا ولد.

- لا وقت للهذريا موسى.

وأسرع يحدثه بما سمعه في بدروم الملهى.

- هل رأيته؟

- لا.

ويقلب موسى في ذاكرته حتى عثر على الفرنسي الذي تحسس جسده منذ أزمنة غابرة، وتذكر الكلب حين كان صغيرا يسير وراءه فصرخ:

- هو.. هو يا (سليمان)، أقسم لك أن هذا الرجل صادق، إنه الفرنسي.

- لا بد أن نتأكد.

- ألا تثق بي.

- موسى؟ ليس هناك وقت، قل لي كيف أتأكد؟ مع العلم أنه يصعب دخولي هناك بل إن هذا الأمر شبه مستحيل.

ويجوب موسى حجرة المأمور، ويهرش ذقنه ثم ينظر للسقف، ثم طلب منه العثور على الصحائف الفرنسية القديمة وعلى وجه الخصوص السنة التي تولى فيها الرئيس الرابع حكم مصر وما بعدها بثلاث سنوات، وحين يعثر عليها ينقّب فيها عن أخبار الفرنسيين الذي غادروا بلادهم ولم يعودوا في تلك الفترة.

- ماذا؟ هذا أمر شاق، لو طلبت السفر لفرنسا كان أهون.

- سامحني يا إلهي لأني علمت غبيا.

- موسى؟

أمره بالتوجه فورا للمركز الثقافي الفرنسي بالقاهرة، فهناك يعثر على ضالته، وقبل خروجه من السجن أوقفه المأمور أحمد عبد العدل، وأعطاه رقم تليفون مكتبه، وبحس كريم طلب منه ألا يستحي في طلب موسى من خلاله، ويتعجب أحمد عبد العدل من رد فعله الجاف والمتعجرف، ومن ثم يتذكر أقوال موسى عنه: "(سليمان) هو البطل الأوحد"، ولما نما إلى علمه أنه من أحفاد عائلة عبد المنتقم؛ هز رأسه مصدّقا على كلام موسى، وسافر (سليمان) للقاهرة، وفي مكتبة المركز الثقافي الفرنسي عكف يفتش في المجلات والجرائد حتى عثر على صورة رجل يحمل كلبا صغيرا وأسود الفروة، ودقق القراءة جيدا فوجد اسمه تحت الصورة وما قاله موسى عن تغيبه و انقطاعه عن فرنسا، وتأكد أنه المحبوس في بدروم الملهى، وأن سرًا معقدًا في هذا الأمر لو انكشف لأصبح زنجو تحت التهديد بشكل دائم، ثم عاد رأسا للمندرة واستمر في عمله يتنقل بين إكنار ومخازن مانو يتحين الفرصة المناسبة لاقتحام البدروم وأخذ ماكسيم ومعرفة السر، ولم ينسَ الاتصال بأخته في المستشفى والتأكيد على الأطباء بسرية تواجدها ومرضها، وكان مراقبا جيدا لبيت بديعة ليحميها وكاميليا وقنديل من أي زيارة مشبوهة، وكان يشعر بجسده يتمدد كالزاحفة الرخوة التي لا تغيب عن كل الأماكن في آن واحد، وكان متعقلًا وحكيما، وفي شموخ وطيبة قلب ووجه صبوح يتأمل زوار معبد إكنار، وبمصداقية أصيلة في ذاته تطل عليهم قسماته وإنسانيته وحلمه، وكثيرا ما

شاركهم الأحاديث والضحكات، فإن هدفه الأسمى تدمير السفه المطلق الذي حاصر المندرة، وهو العارف أن ما يفكر فيه أمرا كاد أن يكون معجزا، وعبر الهاتف الأرضي اتصلت به كاميليا وفي حياء بالغ طلبت منه أن يعرف أخبار والديها، فعرف أن أباها أصيب منذ زمن بالذهان، وفصلت نفسه ودماغه نهائيا عن و اقع الحياة، وكثيرًا ما قعد يتسول بجوار المعبد، ولما يعطيه الزوار نقودًا يلعقها بلسانه وسرعان ما يمزقها، لكنه في الغالب يكون حبيس الحجرة ويحاول فتح صندوقه المعدني الذي كان يخبئ فيه أمواله، ولما ييأس يقعد عليه يضحك ويبكي، ثم تنتابه نوبة صرع لا يهدأ منها إلا حين ينام على فخذ زوجته ويبكي كالطفل الغارق في التيه، وعن أمها فتبيع حلوى للأطفال وزوار المعبد، ولما علمت كاميليا لم تحزن من أجل أبيها وطلبت من (سليمان) أن يسلم على أمها، ويرفع حاجبيه وهو يسمع فريال عباس، فحين أبلغها سلام كاميليا قالت: "ابنتي ماتت منذ تزوجت "، ولأنه حليم وحنون أبى أن يبلغها ما قالته المرأة العجوز، لكنه اكتفى بقوله الخالد الذي لن تنساه كاميليا ما بقيت في الحياة:

- أتاني السلام من الرب وبه أعيش حتى ألقاه.

وتضحك بغزارة لأنها اعتقدت أن هذا كلام أمها وأنها سعدت بسلامها، وودت لو طارت وحطت أمامها لكنها تخشى زنجو، وهي لا تعلم أن رأسه محشوة بآلاف الأفكار، وتجيء الفرصة التي ينتظرها (سليمان)، فلما اشتد الزحام في مدخل المندرة الجنوبي، بحجة التجمع في يوم موت مسعود الحبشي للبكاء عليه، وأصبح الفندق والملهى مكتظين بالزوار، افتعل حريقا في فندق إكنار، و انتظر يترقب، اتصل مانو بزنجو وطلب منه المجيء على الفور، وحين أيقن أنه في الطريق، ذهب إلى المندرة، وفي الزحام الصاخب والأضواء الصارخة، تسلل لبدروم الملهى واختبأ في ظلامه، ويقترب الوقت من الفجر، وخلال الصخب ودبدبة الر اقصين في صالة الملهى، وبضربة قوية بمرزبة ضخمة كسر باب الحجرة، وحل قيد جون ماكسيم، وكان معه ما يناسب هذا التجمع الديني، رداء حاخام وطاقية ونظارة

سوداء وباروكة، وارتدى الاثنان نفس الملبس، وكلما صرخ ماكسيم أمره بالصمت حتى يستطيعا الهرب، ثم همس فيه بالفرنسية:

- من فضلك اسكت حتى أستطيع الهروب بك.

وامتثل للأمر وخرج الاثنان علانية، وبعد انحرافهما من المدخل توغلا في أحراش الحقول، وفيها خلعا ملبسيهما ثم جلسا واستراحا هُنيهة، ثم سارا نحو الإسفلت، وأشار (سليمان) لسيارة أجرة، وطلب من سائقها الذهاب للقاهرة، وفي الطريق كان ماكسيم يريد الاتصال بسفارة بلاده فورا، فهمس الآخر بأذنه:

- سأذهب بك السفارة نفسها، من فضلك اسكت الآن.

لكن ماكسيم كان يتكلم بصوت مرتعش كالذي لا يصدق، فخشي أن يكون زنجو أرسله للقتل، وكلما تذكره علا صراخه حتى شك فيهما السائق و أنزلهما من السيارة، ومع ذلك أمسك (سليمان) عن غضبه، وتحسس رأس الآخر وطلب منه التمشية حتى يعثران على سنترال أو مطعم، ويبكي ماكسيم غير مصدق أنه يمشي على رجليه، ودون سؤال، جعل يحكي عن مأساة الضريح والواقعة الرهيبة التي حدثت فيه، فعلم (سليمان) أن زنجو هو من خلع عينيه وهو من حبسه بالفعل، وهو من طلب جلب أسلحة، وكان يهز رأسه ويختزن ما يسمع، ولما صادفهما كشك يبيع سجائر وأطعمة، سأل (سليمان) عن دليل الأرقام ليعرف رقم السفارة، فقدمه صاحب الكشك، ولما اتصل لم يجبه أحد فالوقت متأخر، فصرخ جون بشدة، وقرر الاتصال بالخارجية الفرنسية، وهنا زجره (سليمان)، وأمره بالانتظار فلولا تسرعه لكانا في القاهرة، وظلا يتمشيان حتى شقشق الصبح، وأوقف سيارة أخرى، و انطلقت بهما، وأمام السفارة وحين سمع كثيرين يتكلمون بلغته، سأله:

- ما اسمك؟

- (سليمان) عبد المنتقم.

- كيف أتصل بك؟

- لم؟

- أنت أول إنسان حقيقي أعرفه على سطح الأرض.

كان على (سليمان) أن يسرع في العودة قبل أن يكتشفوا غيابه، فهمس في أذنه بتواجده الدائم في فندق إكنار وطلب منه ألا يجاذب أطراف أحاديث عنه مطلقا.

- لم؟

- هذا طلبي الوحيد.

- و أين فندق إكنار؟

- هو الآن فندق عالمي، سهل الاتصال به، أو الوصول له من أي مكان في الأرض.

- في أول الأمر اعتقدتك ستقتلني، والآن أظنك من البوليس المصري أو ضابط مخابرات فرنسي.

- لا هذا ولا ذاك، من فضلك لا تفشِ اسمي لأحد.

- لا تقلق، ولكن قل لي اسمك تارة أخرى.

ولما قاله أدار جون عنقه في جميع النواحي، وضحك متعجبا، ومع ضحكاته كان يتساءل كالذي يعيش أسطورة:

- اسمك (سليمان)؟

- نعم.

- اقترب مني واهمس في أذني باسمك.

- لم؟

- حتى أنقش نبرة صوتك في أعماقي.

- حاضر

- واعتبرني منذ الآن خاتمك.

وفي السفارة سُئل عن الأحداث التي عاشها و أين قضى كل ذلك الوقت، وكي يفي بوعده لـ(سليمان)، أخبرهم أنه تعرض لحادث وفقد البصر والذاكرة لكنه

تذكر البارحة كل شيء، وفي سجل الفرنسيين المفقودين بمصر، استطاعوا معرفته، حتى أنهم عرفوا أنه كان في المندرة يوم مجزرة الانتخابات، فصدقوا ما يقوله على اعتبار أن الحادثة التي تعرض لها كانت أثناء هذه المجزرة، وبسؤاله عمن جلبه للسفارة أقر أنه لا يعرف وصرخ فيهم:

- ألا ترون أنني أعمى؟ ألا يكفي التشرد الذي عشته؟

ولما اتصلوا بأمه لم تصدق في بادئ الأمر، وأغلقت الهاتف، لكنها حين سمعت صوته فرحت، وحدثت السفير وحذرته من تأخير رد ولدها إليها في أسرع وقت، ولم تمض أيام وكان في باريس، ولم يصدق الخدم في القصر الذي تربى فيه أنه عاد بعد كل هذه السنين، وكان أبوه مات منذ زمن، وكلما أرادت أمه أن تعرف ما حدث، وكيف صار هكذا، يطلب منها أن تتركه في ظلمة حياته، وتمر الشهور وهو يعيد النظر في تاريخه الجسدي والنفسي، واستطاع جلب الأسباب المنطقية التي صنعت منه هذا الأعمى المقهور، والذي عاش ذليلا في حجرة لا يعرف لها لونا، و اقتنع أن الرغبة الذاتية التي اتخذتها نفسه سبيلًا هي السر الأوحد، والدافع الأصيل لهذه النهاية المأساوية، فقرر العودة لربه والتوبة بين يديه، فتوجه للكنيسة وكان يقعد فيها بالساعات يبكي ويعترف بذنوبه ويطلب الغفران من الرب، ولما اتخذه القس صاحبا ورأى فيه كاثوليكيا وفيا ويندر وجوده في هذا الزمن، آزره في توبته وحدثه عن الغفران الرباني الذي لا أول له من آخر، وحين ألح في معرفة أسراره ليخفف عنه وطأة اللوم والشعور القاتل بالذنب، كان ماكسيم يكتفي بالصمت، إن لحظات الأسى والضيق كانت تأتيه حين يفكر في كتابة مذكراته لأنه أعمى ولن يستطيع، لكن القس أرشده لتفريغها في شرائط كاسيت، ففرح لهذه الفكرة واحتضنه وشكر ربه كثيرا، وأرسل الخادم الزنجي ليشتري له الكاسيت والشرائط، وقرر السفر حيث أملاكه في إفريقيا الوسطى، ليقعد بين الأشجار ويحكي حياته للكاسيت، وتطلب منه أمه اتخاذ سكرتير خاصٍ يعاونه، فتبسم وهو يتذكر (سليمان) وقال:

- عندي ملاكي الأعـظم.
- ومن هو ملاكك هذا؟
- (سليمان) عبد المنتقم.
- على راحتك يا جون.

(٣٤)

بعد دخول جون ماكسيم سفارة فرنسا، انقضت الحيرة على (سليمان) وكاد صدره يضيق، لكنه استحضر قدرته على التحايل واستبدل الحيرة والتوتر لظنون قدرية يحسبها أطواق نجاة، وتوسوس له مخاوف عابرة أن هذا الفرنسي سيكون سببًا في عقد كثيرة، أو سيسافر ولن يراه ثانيا، وتعجب لكونه سمح له بدخول سفارة بلاده بهذه السهولة، فقد كانت الخطة استغلاله في إذلال زنجو، وخشي على موسى أن يعرف بما فعله فيحزن، ومع ذلك اتصل به عبر هاتف المأمور أحمد عبد العدل، وتعمد الحديث بالفرنسية وخبره بالوقائع الأخيرة، فقال موسى:

- إن فشلت خطتنا، حتما ستنجح خطة القدر.

فضحك وهو يخبره بقول جون ماكسيم: "اعتبرني منذ الآن خاتمك".

- فليرحمه الرب إذن.

- موسى؟

- تأدب يا ولد.

- تأدبت.

ثم ذهب في زيارة سريعة لأخته، واطمأن عليها، ووضع في رصيدها مبلغا آخر، وعاد رأسًا لإكنار، فوجد رجال أمن وإطفاء وقد سيطروا على الحريق، وطمأنوا مانو وزنجو أن الأمركان هينا، لكن عليهم توفير المزيد من وسائل الأمان أكثر، فالمنطقة أصبحت مركز جذب ومرموقة عالميا، وتسلل لواحدة من حجرات المعبد، وكان يظن أنه سوف يتظاهر بالنوم على أحد مقاعدها، لكنه التعب أخذه لنوم عميق، وظل على حاله حتى انتصف النهار، وصحا على صوت مانو يرحب ببعض تلاميذ المعبد، وحين رآه زعق فيه لتقاعسه عن العمل، لكنه تراجع حين لاحظ نظرات استياء من تلاميذ المعبد، وحين عاد زنجو للملهى، لم يصدق عينيه وهو يرى عماله و اقفين في البدروم وعلى وجوههم أمارات خوف وارتياب، وإذ يرى باب الحجرة مكسورا،

ينقض عليه الغضب فقد استشعر بمؤامرة وخداع كبير، وفي التو ذهب اعتقاده أن مانو هو المدبر الوحيد، فالحريق في إكنار لم يكن بالخطر الداهم الذي يجعله يستدعيه، ثم إنه عارف جيدا أنه لا يمكن ترك الاحتفال بمولد مسعود الحبشي في هذه الظروف، فجلس في مكتبه يفسر الوقائع التي تمت في الآونة الأخيرة، وارتاح للتفسيرات التي رسخت في عقيدته، وهي أن مانو كان على علم بوجود ماكسيم، وقد عقد صفقة كبيرة مع آله الفرنسيين، أو ربما كانت الصفقة مع الجهات المخابراتية الفرنسية، أو ربما أراد استغلال أسلحة ماكسيم، ومن أجل هذا لم يتردد في مشاركته، وإلحاحه على استعادة الاحتفال بمولد الحبشي كان ضمن خطة محبوكة، جاء في بنودها إشعال حريق في إكنار ثم استدعاؤه ثم تهريب ماكسيم، فضرب المكتب بقدمه وألقى بزجاجة الشمبانيا وصرخ:

- كيف فاتني أن مانو لا ديني وحويط؟

وأصبح يشك أنه مراقب، ويسرق التوتر عقله فيفكر في التوجه لإكنار وجلب مانو وتعذيبه، لكنه خشي من أذرعه الممتدة في الخارج، وحاصره الشك في جميع حراسه وعماله، وطردهم جميعا، وحذرهم أن بإمكانه حبسهم في حالة أن يبدر منهم أي رد فعل غير محسوب، وسحبه التوتر والرعب لجلب حراسة كثيفة وشديدة البأس، ويفاجئ الجميع بتخليه عن الضريح ومطالبة بعض المسؤولين بإلغاء الاحتفال نهائيا، وحين علم مانو أتى سريعا و اقتحم عليه مكتبه:

- هل جننت يا زنجو؟

أخرج مسدسا من درج مكتبه وضحك في شماتة:

- هل تدري ماركة هذا السلاح يا مانو؟ فرنسي، تأمله لعلك تعرفه.

ولما تأمل مانو المسدس تبسم وقال:

- أنت تمازحني؟

- قطعا لا.

- اسمح لي بالعودة لعملي يبدو أنك أكثرت ممن الخمر.

ولم يسمح له بالخروج من مكتبه إلا بعد توقيع تنازل عن الشراكة، ويحاول أن يذكره أنه لا توجد أوراق تثبت ذلك، فالشراكة كانت شفوية، ومهمته استخدام اتصالاته في جلب الوفود لمعبد إكناروأخذ السمسرة.

- يا زنجو بمنعي عن إكنار لن يجيء الزوار لمعبدها وسيخلو فندقك هناك.

- في ستين داهية.

في التو جلب تصورا أن زنجو مُسلِم متطرف، فمطالبته بإغلاق الضريح و إيقاف الاحتفال بمسعود الحبشي نهائيا، وعدم اكتراثه بمجيء الناس من العالم لمعبد إكنار، أدلة قوي على تطرفه، فيرمقه ويود أن يقول:"إرهابي يتخفى في تجارة الحشيش ".

- على راحتك يا زنجو بيه.

وسافر زنجو لإكنار، وتجول فيها مسعورًا ويصحبه حراسه أينما ذهب، فيسب سكانها الأصليين، وحين سمع فريال عباس أم كاميليا تشتمه وتدعو ربها بالانتقام منه، صفعها على وجهها، ويراه (سليمان) فيتوارى مختبئا، واعتقد أنه يعاير المرأة بابنتها وعض أنيابه وهو يتخيله يأخذها رهينة ويفرجها على صور ابنتها، وتخيَّل بديعة تبكي خوفا على حياة ابنها وحطت في عينه صورة قنديل بن نصر الله يتشرد في المندرة، فود حينئذ أن يقتله، وفي الوقت نفسه كان مانو يجري اتصالاته بأصدقائه و أقاربه في أمريكا ويبلغهم بأمر زنجو الذي ظهرت حقيقته، فها هو يفكر في غلق الضريح ويرهب سكان واحة إكنار.

(٣٥)

ولما كان (سليمان) يخشى أن يراه زنجو في إكنار، وبينما يفكر في ترك الفندق، جاءه اتصال من فرنسا، وبصعوبة استطاع كتم مفاجئته وهو يسمع صوت جون ماكسيم.

- (سليمان) عبد المنتقم؟

- نعم.

- أنا جون ماكسيم.

في ثقة تامة طلب منه الذهاب للسفارة الفرنسية بالقاهرة، ويقدم لهم كل التفاصيل الشخصية، وبعدها يتواصل مع الموظفين في السفارة حتى يتم الأمر، ويستفهم عما يريده، فيخبره أنه بحاجة لسكرتير أمين بشرط إجادته للفرنسية، وحين سمع من (سليمان) لهجة مذبذبة حسم الأمر:

- أنا أرد لك الجميل يا صديقي لا أكثر، هل تخشى شيئا؟

- ولماذا تفعل ذلك؟

- أعرف أنكم تعيشون حياة صعبة، إن لم تكن معدمة، وهذه فرصة عمل لك، من فضلك لا ترفضها.

وبينما هو في طريقه للسفارة كان يفكر في إخبار موسى، لكنه عقد العزم على خوض المغامرة سرًا، لكن قلقه على أخته مكن الحيرة منه، فلم يشعر بنفسه وهو يسافر للإسكندرية لزيارة جدته، وحين دخل عليها، استشعرت فيه سؤالا مخفيًا وغضبا غامضا.

- مالك يا (سليمان)؟

أخبرها أنه قد يسافر للخارج وأخته محجوزة في مستشفى بالقاهرة، وتحتاج لحماية، ودون سؤال عن تفاصيل، أمرت واحدا من خدمها أن يحمل سلاحا

ويذهب بصحبته حيث يريد، وطلب منه أن يكون حارسا على حجرة أخته لحين عودته، وعاد للمندرة واتصل هاتفيا ببديعة رستم فأحسها واهنة خائفة.

- مالك يا خالتي بديعة؟

- أشعر باقتراب نهاية حياتي وأخاف على ولدي.

وخشي أن يخبرها بما هو مقدم عليه، وطلب منها ألا تخاف ولا تحزن، فحدثته بشأن بدير العدوي، فطلب منها أن تحافظ على بقائه أطول فترة ممكنة، وكانت مفاجأة حين خبرته أن زوجة بدير البالغة من العمر ستين سنة، لما انتابتها وعكة صحية، وذهبت للمستشفى وكانت نتيجة تحليل دمها أنها مصابة بالإيدز، وصارت فضيحة تناقلتها ألسنة الناس، وبدورهم اعتقدوا أن (بدير) كان يعرف، ولا بد أنه أيضا مصابٌ فأخذته الكآبة إلى الضياع أو الانتحار.

- هذا عظيم جدا.

- كنت تعلم يا (سليمان)؟ ولهذا تحتفظ به.

- هه.

- أنت لا تجيد الكذب.

ثم تكلمت عن استياء البعض من فتح الضريح و إقامة الاحتفالات، وأنهم يرجؤون أن الأمراض التي تصيب الناس سببها الأول زواره، ولما طالبوا بإلغاء الاحتفال، اعترض المستفيدون في المندرة، لكن البعض شهّر بزوجة بدير و اتخذوها دليلا على ذلك، فما كان من المسؤولين إلا ويتنكرون وقال أحدهم:

- كارثة! امرأة في الستين مصابة بالإيدز، هذا جنون، وما علاقة احتفالات الضريح بهذا؟، لا بد وأن غموضا رهيبا يلتف حول الوطن.

وكاد يضحك وهي تخبره أن بعض سكان المندرة عادوا لأحاديثهم عن غزو فضائي ينشر أوبئة في المدينة، وكلما أحسوا بقدوم هيلوكبتر؛ يختفي بعضهم كأنه تبخر من الوجود، ومنهم من ينتظرها، وحين يرونها يسعون في الحارات والشوارع والميادين ويتصلبون على أسطح البيوت والعمارات ويقذفونها بالحجارة ويشتمون،

ولما تنهدت، طمأنها أن ابنها سيكون بأمان وعليها ألا تقلق، وبقي متواصلا مع سفارة فرنسا، حتى جاءه اليقين، فأرسل إليه جون ماكسيم تذكرة سفر ودعوى، وفي صعوبة ومرارة مدفونة في صدره زار موسى وخبأ عنه الأمر، وفي أقل من أسبوع وبتدخل من جدته استخرج جواز السفر بمهنة طالب ومعفى من الجندية نهائياً لأنه بكلية وحيدة، وساعدته في الحصول على أصول أوراقه الهامة كشهادة الثانوية وكل ما يتعلق بشأنه قرابته بعائلة عبدالمنتقم، ثم توجه لمطار القاهرة في الموعد، وعلى متن الطائرة كان يستعيد قوله عن نجاح القدر، ولم يسمح لفؤاده أن ينقبض أو يصيبه توتر، وتحط قدمه في باريس فيرى عالما سحريا، فكل شيء لامع ومصقول، حتى وجوه البشر، وتطن أذنه وهو يسمع كل لغات الناس فيتذكر وفود إكنار، وكان بانتظاره جون بصحبة أمه كلوديا، وحين رأته عرفته من تلقاء نفسها فأشارت نحوه:

- أنت الملاك الأعظم (سليمان) عبد المنتقم؟

- نعم؟

وبينما يصافح ماكسيم احتضنه وبكى حتى أجهش، وجعل يشكره كثيرا فلولاه ما عرف الرب ولا تذوق حلاوة التوبة وطهارة الجسد، وفي رهبة محبوسة بأعماقه كان (سليمان) يربت على كتفه، وحين خرجوا من المطار برقت عيناه حين رأى سيارة بيضاء وفارهة تنتظرهم، وتنطلق بهم في باريس، ويطل برأسه من نافذتها فيرى الأجساد النحيفة والحركات السريعة وألوان بشر منمقة لم يرها قط، ويقتحم خيشومه هواء شديد البرودة تنفذ من ذراته نفحات من العطور الباريسية، وكل الشوارع واسعة ومَجلوّة ومنظمة، حتى الحارات القديمة نظيفة ومهذبة، فرفع بصره لأعلى فلم تصل أسهمه لسطح ناطحة السحاب، لكنه أحس أمواج سحبٍ عاتية تجثم عليها فتنشع جدرانها الرخامية توترا كثيفا، وفي حي النبلاء تتراص القصور وتتقاطع الشوارع وتنتظم المربعات المشجرة والدوائر الوردية. عبق جزيل الأريج هب فجأة، فسأل وأجيب أنه حي الأرستقراطيين، وتحدث جون عن جده

البعيد، فود (سليمان) أن يبلغه أن ماكسيم رجل بورجوازي ثائر وليس كونتا ولا نبيلا، وتُفتح بوابة القصر وتمر منها السيارة وتسير في ممرات بالغة اللمعة، ويزوغ ببصره في الورد والأشجار، ويتفحص سيقانها المدهونة بالأبيض المزركش ببقع خضراء، ويمسح عينيه بأوراقها المنكسرة وألوانها الوهاجة فيستشعرها مستفزة غصبا كي تراها الأعين جميلة، وفي حجرة جون الخاصة جلس يرحب به، ثم تحدث عن مصنعيه في إفريقيا الوسطى، وأنه لا بد من زيارتهما قريبا.

- وماذا سأفعل أنا؟

- أولا سأمنحك الشرف الفرنسي فتكون لي أخا، لكن عليك أن ترتاح وتتنزه في باريس أولا.

وكان هدف ماكسيم من جلبه هو الانتقام من زنجو، لكنه فكر كثيرا في معرفة سر تهريبه له، فربما كانت مؤامرة كبرى تضر بلاده، لكنه أرجأ التفكير بهذه الطريقة مؤقتا، ثم باغته:

- هل تعرف زنجو؟

- لم؟

- حتى أعرف لم هربتني من عنده، لا بد وأننا شريكان في هدف واحد.

- صحيح.

- ما سبب تهريبك لي من عنده؟

وشرع يقص عليه كيف أنه استخدم رجلا اسمه ياقوت الأحمر في تصوير نسوة من المندرة ونواحيها، وكان خطأ هؤلاء النسوة أنهن سلمن أجسادهن لياقوت، وكان من ضمن النسوة أمه وأخته وكاميليا، والذي يجلب الحيرة فيم كان يستخدم هذه الصور، فمن غير المعقول أن يكون الأمر ابتزازيا أو من أجل التربح، فلا بد وأن هناك أمرا آخر، ويفاجئه بإصابة أخته بالإيدز، وتهديد حياة أناس طيبين لم يفعلوا شيئا غير أنهم أصحاب نية صافية، ويعقد ماكسيم حاجبيه ويخفي دموعه بصعوبة بالغة وهو يقص عليه أن زنجو فعل هذا بناء على مطلب مجموعة شواذ ومن بينهم

هو، ويتشعب الغضب في صدر (سليمان) لكنه يحافظ على تماسكه، وينفلت صوته المسمط:

- إذا أنت المتسبب الأول في تدمير حياة الناس؟

ويرفع الآخر يديه كمن يستجديه المغفرة.

- اؤمرني أنفذ ما تريد فورا.

- وهل أخذتم الصور؟

- بعضها ولكنني لم أكن أهتم بهذا، فالذي كان يهتم قتل.

- من؟

- جوزيف فريمان.

- ومن الذي قتله؟

- حارس الضريح.

- يا إلهي! صدق موسى.

- موسى؟

- بالتأكيد أنت تذكره، وبالتأكيد تذكر كلبك الصغير.

- كلبي؟

وشرع يقص عليه أن الطفل الذي رأوه قديما في الضريح هو موسى الرومي أستاذه المثقف القدير، ووضح أن كارثة الضريح كان من ضمن نتائجها إصابة أبيه بهاء بمرض لا علاج له في مصر، وأصيبت أخوات موسى بنفس المرض، وماتت أمه مفطورة عليه.

- أنا آسف يا (سليمان).

وينهار ماكسيم ويعلو بكاؤه نادما على هذه الجرائم البشعة، ثم يتكلم الآخر عن فداحة الكارثة في المندرة، وإن كان هدفه الحصول على أصول الصور من زنجو وحرقها، فإن هذا أمرٌ هينٌ، لكن الذين مرضوا ألا يستعيدون شيئا من حياتهم؟.

ويتذكر ماكسيم أن أحد الذين انقضوا عليهم في الضريح هو من حقن بهاء في وريده السباتي، فيركع على ركبتيه ويتوسل.

- أنا أعرف من فعل ذلك في والد أستاذك موسى وسأساعدك في الأخذ بثأرك، لكن اعترف بأنك غفرت لي.

ويباغته (سليمان):- ما هو الشرف الفرنسي؟

- جنسية فرنسا.

- من هنا تكون البداية.

وبعد أيام من تجول في باريس لا ضحك فيه ولا مرح، ذهب ماكسيم للجهات المختصة وعرف أن كل الشروط تنطبق على (سليمان) كي يمنح الجنسية عدا شرط وحيد، وهو إقامته لفترة لا تقل عن خمس سنين في فرنسا، لكن إذا كان متزوجا من فرنسية لا بد وأن يمر على الزواج سنتين، ولما كانت كلوديا أم ماكسيم قد أحست نحوه بلهفة لا يبررها غير إعصار غرام هب فجأة، عرضت نفسها ليتزوجها وبهذا قد تحل المشكلة سريعا، وتزوج (سليمان) من كلوديا البالغة من العمر ستين سنة.

(٣٦)

وفي مصر: تحين فترة رئاسة جديدة، ورغم المذابح المستمرة في فلسطين، فبين ليلة وضحاها أباد اليهود مخيما بما فيه من بشر وأخضر ويابس، وبينما يتحدث إعلاميون في دول أوربية عن هذه الجرم المشين، كانت شاشات التلفاز في مصر مكتظة بتاريخ الرئيس، منذ كان قائدا لسلاح الطيران في حرب العظماء كما سماها اليهود، ثم تولى منصب نائب الرئيس، وقد اختاره القدر فنجاه من مجزرة المنصة، ويتحدث إعلاميون موظفون لذلك، عن كون هذه الأوقات كانت من أخطر الأزمنة، ويسهب مشايخ وقساوسة في العناية الإلهية التي عصمت هذا الجندي الباسل من القتل الغادر، كي يقود الأمة نحو عصور الرخاء والتنمية، وتصدح الأغاني الوطنية في الراديو والتلفاز، وتغزر اليافطات والمعلقات وصور الرئيس التي اعتاد الشعب على رؤيتها، وصور أخرى نادرة أعدت خصيصا لمثل هذه المناسبات، وتظهر حرم الرئيس في برامج موجهة، تتحدث عن إستراتيجيات طويلة المدى عن تطور الحياة الأسرية والاهتمام بالطفل وإلحاقه بالركب الحضاري، وتَضرب الأمثلة من شتى بقاع الأرض في جلب كل العلوم التربوية الحديثة، من أجل إبراز عبقرية الطفل المصري، وفي المندرة يقعد الناس على المقاهي فاتحي الأفواه، وترتسم على وجوههم بسمة مشرقة متصورين أطفالهم وقد باتوا علماء في كل فنون الإبداع، طالما أن الإعلام يترنم بالمصطلحات الإبداعية، ويزور المندرة حشد كبير من ثلاث وزارات دفعة واحدة، وتضاء البلدة بالمصابيح الملونة وتعلق الزينات ويخطب كبار الحزب الحاكم بالمحافظة بما وصل إليه الوطن من تقدم، فالرئيس وفر الأمن والرخاء، وانتشرت وسائل الترفيه في البيوت والشوارع، ويهتف كثيرون بحياة الرئيس حين يذاع بيانا رئاسيا بالعفو عن المساجين القدامى، وفي السجن يفاجئ موسى الرومي بالمأمور أحمد عبدالعدل يقتحم عليه خلوته ويبارك له بهذا العفو، ويتعجب من الحزن الذي قبض وجهه والدموع المحبوسة في عينيه:

- أين أروح يا حضرة المأمور المحترم؟

- انطلق للحرية يا صديقي.

- هنا الحرية، صدقني.

ويصر على البقاء، ويهرول في جنبات السجن، حتى يصل إلي مساجين يكسرون الأحجار، فيخترقهم وينهاهم عن العمل، ثم يصعد كومة أحجار عالية، ويقف عليها واعظا:

- أيها الناس، أنا موسى بهاء الرومي، أرفض هذا العفو من هذا الرئيس، فهذا عفو ظالم، لأن هذا الرئيس لم يبال بحياتي، من فضلكم انتبهوا لما أقول، فقد تولى هذا الرئيس الحكم منذ مطلع شبابي، ومنذ مطلع شبابي و أنا في السجن، هل فهمتم ما أعنيه؟ لا تكونوا أغبياء وسفهاء فإن المجد لكم.

ولما كان ضمن المساجين عدد من الجماعات الدينية التي تتهم الرئيس بالكفر والخيانة العظمى، أيدوا أقوال موسى وبدؤوا الهتاف باسمه:

- موسى..موسى..موسى..

زجرهم وقذفهم بالحجارة، وأصاب أحدهم بجرح بالغ وقبل أن ينقضوا عليه زعق:

- انتظروا، أما و إنني أعرفكم، فلا أستحي أن أقول، إن العاهرة أشرف منكم، هل تدرون شيئا؟ منذ سنين بعيدة كنتم أحد أسباب حبسي، و إنكم لمستكبرون والإثم عندكم عزيز.

فانقض واحد منهم عليه ولف ذراعه حول عنقه، و انطلقت رصاصة في الفضاء فصمت كل شيء، وكانت من فوهة مسدس أحمد عبد العدل، فأخذه وصرخ فيه بالمثول للأمر ولا يكون مسعورا هكذا.

- بقاؤك في السجن مستحيل.

وأمر أن يجيء له بعصير، فرفض وطلب فنجان قهوة وعلبة سجائر، وكان الحزن والخوف ظاهرين في كلماته وهو يسأل عن كيفية العودة للمندرة، فأخبره أن الطرق أصبحت كثيرة والوصول إليها لم يعد وعرا، وجاء بالحلاق وأمره أن يقص

شعره ويجلي لحيته، وبعد الحلاقة طلب منه أن يستحم وينتظر مفاجأة وكانت ملابس جديدة وعصرية، وعلى بو ابة السجن وقف أحمد عبد العدل يتأمل وجهه النحيف ذا الحاجبين الكثين، والجبين الضيق، وعنقه الرفيع وحنجرته التفاحية، ولما كان يخشى أن يلحظ المأمور عليه أمارات مرض بسبب عظامه عدل رأسه الضخمة، وفرد كتفيه، وتحسس كرشه الصغيروقال يمازحه:

- يا حضرة المأمور ستكون قضيتي هي الحرب ضد الهيلوكبتر، لكن ثمة مشكلة.

- ماذا؟

- من أين لي بالمسكنات حين تؤلمني عظامي.

- لولا أنني مشغول لجئت معك.

- لا تشغل بالك، لكن دعني أكشف لك الحقيقة.

- تفضل.

- أنت لست مشغولا.

- ماذا إذن؟

- أنت خائف، وهذا حقك، كتبت الخوف على نفسك منذ سنين ولا أعاتبك، أشكرك في جميع الأحوال.

قدم له المأمور مبلغا من المال وتركه، وبينما يخرج من السجن تجنب الحزن بقدر ما استطاع وهو يرى السجناء الذين نالوا العفو الرئاسي، وكانوا في فرح شديد يستقبلهم أقاربهم وأصدقائهم يحملون صور الرئيس ويهتفون باسمه، وتتناثر منهم كلمات عن السعادة بالحرية، فأومأ أرضا يهز رأسه يمنة ويسرة، ثم التفت لظله المترامي وكأنه يرى أعماق الأرض تحدثه عما حصل وما سوف يجيء، وظل يمشي مسافة طويلة حتى اختفى السجن وكان يتعمد ألا ينظر وراءه فيعود، إن الخوف الذي يجتاحه نتج من حسه بالضمائر والعقول، وخشي لو كشفت له الوجوه عن جلود ماتت قلوبها واستحسنت العبث لأبعد مما كان في زمنه القديم، والذي كان يؤكد بأعماقه هذا اليقين أن أزيز الهيلوكبتر لم ينقطع، بل إن الأمر تخطى ذلك

بكثير فلم تعد تأتي ليلا فقط، بل في النهار وعلى الملأ وتناور بالقرب من السجن، ولا تخشى الجنود، فرفع رأسه لأعلى وهمس:

- ربما كنت مجنونا ولا أدري.

ولما اختفي الناس من حوله استبصر أين هو، فوجد قدميه تمشيان في مدق صحراوي، وخشي لو عاد فينهره أحمد عبد العدل، فقرر المضي متتبعا آثار الأقدام، وتتحرك الشمس فأيقن أن النهار يرحل، وتحول مشيه لهرولة، ويجتاحه الذعر حين أحس بظل الرجل الجبار الذي لم يفارق مخيلته قط، واستشعره يلاحقه فصرخ يطلب الرحمة، ويتعقد الأمر أكثر حين تحوم هيلوكبتر، فسقط يسعى على ركبتيه ويديه، وينادي:

- (سليمان)..(سليمان)..

ويسمع صوتا جزلا:

- ماذا تفعل هنا؟

- أنقذني يا (سليمان)..

ويشعر بيدين قويتين تتحسسان ظهره فيدفن وجهه في الرمال، ومع سماعه لكلمات تهدئ روعه، اعتدل على ظهره، وضربت الشمس عينه فأغمضها، وكان متأكدا أنه سيطعن بخنجر فاستسلم، لكنه استشعر ظلا يزيح ضوء الشمس، ففتح عينيه فرأى جنديا أسمر الوجه.

- من أنت؟

- واحد من الجنود.

- أين نحن؟

- في الصحراء الغربية.

- هل ستأخذني للسجن؟

- يا هذا، أنا في إجازة منذ ساعتين وعلى السفر سريعا حتى أعود لزوجتي، ماذا تفعل هنا؟

- طيب، دلني على الطريق المؤدي للمندرة.

وفي طريقهما للإسفلت شرع يحدثه عن تاريخه وثقافته، والمدهش أن الجندي كان ينصت باهتمام، ولما وصلا؛ فوجئ به يقول:

- أنا أصدقك في كل شيء، لكني سأتركك هنا، وداعا.

- انتظر.

قدم له سيجارة، وعبث بجيبه واستخرج المال وقسمه نصفين، وأعطاه نصيبه.

- ما هذا؟

- ثمن تصديقك لي.

وضحك الجندي بغزارة وأخذ المال ثم انصرف، وكلما أشار موسى لسيارة تعجب، فلا أحد يقف، لكنه لاحظ أن السيارات فخمة ولم ير موديلاتها قط، فاعتقد أنه في بلاد غير مصر، فشرع في تجربة اللغات التي يجيدها، وكلما اقتربت سيارة صاح فيها بالتوقف، لكنها تمر بسرعة جنونية، وأخيرا وقفت واحدة، وطلب من سائقها الذهاب للمندرة.

- سآخذك للقاهرة ومنها تصرف أنت.

وتحرك السائق، وظل هو يثرثر عن تاريخه القديم وما سيفعله (سليمان) في السنين القادمة، وكان السائق يهز رأسه مصدقا لما يقول ويتعجب موسى من رد فعله، ويتذكر قول الجندي عن تصديقه، فينقض على السائق:

- لست مجنونًا أيها السائق اللعين.

- ومن قال ذلك؟

- إيماءاتك المقززة.

- يا سيدي كل شيء في زمننا جائز ثم إنك لم تقل غير هذر سخيف و أنت زبوني فلا يجوز غير ما أفعله الآن.

أدرك أنه كان محقا في خوفه من الحياة فالتزم الصمت، ولما توقف السائق في العاصمة، اشتم ريحا ذكرته بالضريح فرفض التجول فيها، وخشي أن يسأل أحدا

عن سيارات المندرة، فتمشى في الموقف ولم يسمع نداءات عليها، فاضطر يسأل وعرف أن أفضل وسيلة لها ركوب القطار، وكان متأذيا وهو يسأل عن المحطة، وكلما وصف له الطريق شعر بدوار فالزحام شديد والطرق متداخلة، فأُرشد لركوب المترو، وبينما ينزل سلم المترو كانت أكتاف الرجال والنساء تتخبطه فيدور حول نفسه، ويلمحه أمين شرطة فيذهب إليه ويبدأ في استجوابه عمن هو وماذا يفعل.

- أنا موسى الرومي يا سيدي لم أفعل شيئا سوي أنني أريد الذهاب للمندرة.

- لا يوجد خط مترو يذهب للمندرة، يبدو أنك لص أو شاذ.

ويقبض علي ياقة قميصه، فيرتعد ويبكي ويسقط على حذائه يقبله، ويذهل كل الذين تجمعوا وتتجمد أنفاسهم حين يسمعونه يتوسل:

- سيدي، أرجوك أعدني للسجن.

(٣٧)

أموال كثيرة صرفها جون ماكسيم كي يتجنس (سليمان) ويصبح فرنسيا، وكان يتعجل ليشعره بحسن النية والمصداقية، لكن الأمر تعثر؛ فبعد أن قبل الموظف رشوة كبيرة، وحرر عقد زواجه من كلوديا بتاريخ قديم، كاد أن يتعرض لمساءلة شُرطية، فكان يظن أن بإمكانه شراء كل شيء بأمواله، فلما تقدم بالأوراق اكتشف الموظفون أن (سليمان) وصل فرنسا حديثا، فتساءلوا كيف تم زواجه من كلوديا بهذا التاريخ القديم طالما أنه كان غير موجود في فرنسا، وبالضرورة كان عليهم استدعاء كلوديا، وكانت المرأة بالذكاء الذي جعلها تنهي الأمر قبل حبس (سليمان) أو ترحيله عن فرنسا، وكيف لا؛ وهي التي ذابت فيه عشقًا، واعتبرته الحب الذي انتظرته طوال عمرها، فبهمسة واحدة من شفتيه يتحول جسدها الذابل لوردة يانعة وتتقد نار الحب في قلبها، وتفور دماؤها الراكدة فتحرك جلدها المنكمش لنسيج حيوي يكسو عظامها الواهنة، وتتسع عينها وتشرق صلبتها وحدقتها وتنفرد رموشها ويضيق جبينها ويرفرف شعرها المصبوغ، وينتعش عنقها المكسو بالوشاح الفرنسي الشهير، فتبدو عروسا بهية الجمال، من أجل هذا كان عليها خوض مغامرة، فرسمت على وجهها بسمة واثقة وذهبت لمسؤول أمني كبير كان من عشاقها القدامى، وهو فرنسي من أصل مغاربي، اسمه نبيل بوقدير، وجلست تحادثه عن ماضيهما معا، فتعجب لكونها استعادت كثيرا من رونقها ورشاقتها وجمالها القديم، وتساءل عن سبب ذلك فمنذ سنين وهي عاكفة على حزنها في القصر، وقبل أن تخبره إذا به:

- كيف فاتني إجراء جراحات تجميل فأسترد جسدي و أيامي القديمة؟ أنت داهية يا كلوديا.

عرض خدماته كمسؤول كبير، ولما خبرته بما تريد، هز رأسه وتظاهر بالتفكر، ثم أمرها بإحضار مبلغ كبير من المال ليكون وسيلة فعالة لإنقاذ (سليمان) وتطلب من

ماكسم الانتظار حتى تنتهي المهلة الزمنية ولا يتعجل، ونجح نبيل بوقدير في تفتيت تلك العقدة الصعبة، ولن يعرف أحد أن بوقدير الذي لن يرى (سليمان) أبدا؛ أن هدفه الأسمى كان إنقاذ رجل مصري.

وفي القصر كان ماكسيم يجتمع كل صباح بـ(سليمان) يتحدثان بشأن العمل، وكان السكرتير في مصنعي إفريقيا الوسطى وخلال فترة غيابه يتصل بوالده فيأمرهم بتخزين منتجات المصنعين، وبيع القليل لدفع أجور العمال والمشرفين والقائمين على تطوير الأسلحة وجلب المواد الخام، وكان يأمره بالاستمرار حتى وإن مات هو، فمن الأكيد أن جون سيعود، واعتقد سكرتير المصنعين أنه قد يستولي على المال والسلاح في حالة موت هذا الأب، وكاد يغشى عليه كمدا حين اتصل به جون ماكسيم وأخبره أنه عرف كل شيء من أمه، وأمره بالاستمرار فيما يصنع لحين قدومه، ومن ثم خشي السكرتير لو جاء ورأى ما لا يسره، فتمم بنفسه على المخازن التي اكتظت بكل أنواع الأسلحة، ثم أمر بتخزين الأسلحة بحفر عميقة في الغابات، وعرف (سليمان) كل هذا وأصبح متشوقا لزيارة إفريقيا الوسطى، وكادا يسافران، لولا أن كلوديا أبدت رغبتها في التمتع بزوجها لمدة من الزمن، وطلبت منهما عدم التسرع وينتظران حتى يحصل على الجنسية، ويطوف (سليمان) معها أرجاء فرنسا، ويزوران الريف المحاذي للمحيط الأطلنطي، وهناك رأى ثروة بصرية لا نظير لها ولا ثمن، الآفاق حوله، حقولٌ ذهبية القمح، وسفوح جبال كمر ايا أبدية، وقمم جليدية وأخرى شديدة الزرقة، وفي كل منخفض تتراص أكواخ واسعة ومعظمها مطلي بالبني والأبيض، وتسير أمامها جداول ماء ضفافها مزينة بورد الآستر وعصفور الجنة، وتشتم أنفه العطور وإذ ينشرح صدره؛ يشهق ولا يتبسم، ومن بين عيدان النبات اليانع تطل وجوه البشر؛ مملوءة وداعة ورقة وصفاء، وأعينهم الباسمة زرقاء وخضراء وكستنائية، وشفاههم الضاحكة رفيعة وقرمزية وحمراء، وأسنانهم واضحة كلآلئ ناصعة، تبعث حركات البشر بومضات بريئة وأحاسيس لينة وأمزجة هادئة، ويرتاحان في كوخها الذي يعود تاريخه لأزمنة سحيقة، وفي

الصباح تعد الكرواسون والشاي والقهوة للإفطار، ويطبخ هو للغداء دجاجًا ومكرونة، وبعد تناول العشاء تتدثر بحضنه الأمين، عاشت كلوديا معه أسمى أزمنة حياتها، وكانت تقارن بين شعورها وهي في الستين وشعورها وهي شابة، فتمسك بعنقه وتتأمل وجهه، فيشعرها ستبكي غراما ويتبسم، وكان حريصًا أن يمطرها بكلمات الغزل فيزيد جنونها به، وتسافر به للجنوب حيث مدينة كان والمهرجان السينمائي العالمي، ويشاهد مشاهير العالم في التمثيل والإخراج وكل ما يخص السينما، ورغم اللمعة والأزياء المدهشة وقصات الشعر المبتكرة، كان يرى انطفاء في الأجساد وشعور بالخوف يبطن الضحكات المصنوعة، وتشده كلوديا فتلتقط له صورًا مع واحدة من الممثلات العالميات ويسمعها تهمس في أذنها:

- هذا زوجي.

وكان يعرف أنها تتباهى برجولته ووسامته وشبابه، وتبحر فيه أعين النساء المصطفات على السجاد الأحمر، وهو الذي لم يفلح بريق المدينة السينمائية العالمية في طمس معالمه، ويراه الجميع رجلا أسطوريا، فعيناه عسليتان وواسعتان ومُهيبتا البصر، وتكسوهما رموش رغم نعومتها تبدو مثل الإبر الحادة، وفوقهما حاجبان يتدلى طرفاهما فيبدوان كثعبانين رفيعين يحرسان جبينا واسعا ويرفرف أعلاها شعره البني الناعم. شعيرات قليلة وبيضاء وتتناثر في رأسه فتضفي عليه وقارا وعظمة، وإذ يضع سبابته وإبهامه السميكين على طرفي شاربه الناعم والمهذب ثم يتحسس شفتيه القرمزتين، يستشعره الجميع يفكر في أمر شديد الغموض، وبمنديل معطر يمسح وجهه القمحي والمدور الذي بحد ذاته رمزٌ للحزم والجبروت، أما عنقه المكتنز كعضلة حلزونية سمراء تتناثر فيه نقاط بنية متناهية الصغر، وعظام كتفيه متينة وعريضة ومنحوتة باستقامة، ومكسوة بجلد ليّن ومفاصلها معبأة بدهن كما الشحم الذي يدوم قرنا كاملا، وتطل من فتحة قميصه شعيرات تدل على أن صدره الواسع معبأٌ بشعر كثيف وقوي كمسامير رفيعة ومقلوبة وحادة الأطراف، وهذا الصدر منسوج مع بطن نحيف يستند على رجلين

طويلتين ممشوقتين، أما القدمان العريضتان فشديدتا الوقع والإقدام، وهذا الهيكل المتفرد يتدثر بمعطف فحمي، ويكسو عنقه بكوفية من الحرير الأحمر، فيتناغم مع قميصه الأبيض وبنطلونه الأسود وحذائه اللامع.

وتمر شهور في هذه النزهة التي شعرت فيها كلوديا بالحياة من بعد سني خوف ووحدة، وبعد العودة لباريس، كان جون ماكسيم أعد مفاجأة، فلأنه يعرف أن (سليمان) لم يكمل تعليمه الجامعي في مصر، أخذ الأوراق الثابت فيها أنه حاصل على الثانوية العامة، وذهب بنفسه بصحبة واحد من خدام القصر، وقدم الأوراق في الجامعة وكان شرط القبول متوفرا وهو إجادته للغة، وكانت دراسته في العلوم السياسية، وتسعد كلوديا وهي تركب جواره في السيارة الفارهة وتوصله للجامعة، وكانت توصي عليه المدرسين الذين لاحظوا فيه نبوغا وثبورا وهدفا جوهريا يختبئ في حدقته المتنمرة، فأمدوه بالمراجع السياسية المهمة والتي تحوي بين طياتها كثيرا مما تعلمه من موسى الرومي، وذات ليلة حين كان جالسا يتفحص الصفحات ويلخصها، نادته كلوديا وطلبت منه الحضور لغرفة النوم، ووجدها تدخن وتحتسي خمرا وبدر القلق على وجهها الشاحب، وقبل أن يفتح فمه، جعلت تحكي أنها على درجة كبيرة من الثراء وتملك من الأراضي والعقارات الكثير ولها أصدقاء وصديقات رفيعو المستوى ويشتغلون بالسياسة، وتستطيع أن تحقق له جميع طموحاته لكنه لا يتكلم عن حياته.

- أنا أحبك يا (سليمان)، لا تخشاني، لا أشعرك تثق بي أبدا.

- لا شيء في حياتي غيرك دعيني أسعدك قدر ما أمكنني.

- ما السر الذي تخفيه؟ أرجوك تكلم.

- لا شيء سوى أنني أبحث عن ثقب إبرة في هذا العالم أستطيع من خلاله مساعدة أناس في وطني.

- اؤمرني تجد ما تريد.

- أنا محظوظ بك.

- أود أن أكشف لك سرا يؤرقني.

وجعلت تحدثه عن كونها منذ جاءت للحياة وتشعر بالضيق وحتى لما تزوجت زاد حنقها على الدنيا فكان زوجها يخونها مع نساء كثيرات ومن عائلات لا ينتمون لطبقة النبلاء، وبعد موته ظلت تدعو ربها أن يرزقها بمن يؤ انس وحدة فراشها ما تبقى لها من العمر حتى عثرت عليه، ثم خفضت صوتها وكالتي تلقي بسرٍ عظيمٍ خبرته أن جون ليس ابنها.

- جون ليس ابنك؟

- نعم.

- كيف؟

وتحدثت عن كون جون ابن أبيه لكن من امرأة تنتمي لطبقة العامة، فاضطرت لقبول تسجيله باسمها بشرط ألا يرث عنها شيئا، وبهذا استشف أنها تود خدمته بكل ما تملك، فاحتضنها ولما شعرت بحب صادق في صدره، همست:

- (سليمان)، أنا مغرمة بك حد الجنون، أرجوك أن لا تتخلى عني.

- هل تعلمين شيئا؟

- ماذا؟

- منذ سنين بعيدة وقعت في غرامك دون أن أراك وكنت لا أدري.

- كيف؟

تأمل وجهها وتبسم يتذكر بديعة.

(٣٨)

موسى!

تغوص عيناه في البلاط الشطرنجي، كمرآةٍ عملاقة تعكس أحذية برتقالية وحمراء وخضراء وزرقاء وجلدية وقماشية وبلاستيكية ومنطفئة ولامعة؛ وكلها تتسابق للحاق بالمترو، وكواهل تحمل حقائب كبيرة وصغيرة وحلزونية ومكعبة ومتوازية، وقمصانا ملتصقة بالأجسام، لا يعبأ مرتدوها ببطونهم المنبلجة من أسفلها ولا بعظامهم الطالة، وبناطيل ممزقة الركبة والأرداف وأحزمة عريضة يتباهى أصحابها بإبزيمها الصدأ، ويفوح خليط رو ائح؛ وغلافها حمضي وباطنها عطن، وفيه؛ عيون حيرانة، وحناجر مخنوقة، ورؤوس حزينة، وأفئدة هواء، وبطون جائعة، وضحكات سريعة وآهات تتخبط في الأنفاس.

على جدار بعيد صورة الرئيس يكسوها العفر ومخطوط أسفلها: "سر نحن معك"، وجوارها صور التائهين مكتوب فوقها: مفقود.

ولما شعر أن أمين الشرطة سيرفع قدمه لأعلى؛ لف يديه حولها وضغط بقوة:

- أعدني للسجن أتوسل إليك.

ويعلو بكاؤه، ويشعر الأمين بيديه كأنهما مغناطيس لحمي التصق بقدمه كلما دفعه، فقبّل حذاءه وقبض بكامل قوته على ساقه، ويتجمع الناس وتصطدم أطراف الأحذية بجبينه، فيتشبث أكثر بالأمين ويصرخ:

- أرجوك لا تتركني.

ويشعر الأمين بالورطة فيزعق على أقرانه، يأخذونه لحجرة أمن المترو، ووراء المكتب يجلس ضابط في الثلاثين ورداؤه أبيض، وفوق رأسه قبعة مسطحة وكحلية دكناء، على طرف القبعة علم الدولة، وكذلك وراء المكتب، لكن أعلى الحائط، لون الحائط بيج، وعليه ترتاح صورة الرئيس، وعلى جانبي المكتب المعدني دولابان مفتوحان لأن القفل مكسور، وداخل الدولاب كنز جبار من بطاقات شخصية

ودوسيهات مشبعة بالأتربة، وفي زاوية الحجرة عش العنكبوت يتدلى خيطه ويلمس أنف موسى الذي يقطر مخاطا، وفي تقزز وملل يسأله الضابط:

- هل كنت تدخن وتدعي الجنون حتى لا تدفع الغرامة؟

همس أمين الشرطة في أذنيه: "يريد العودة للسجن"، تجحظ عينا الضابط ثم يتمالك ذاته وفي ثقة يسأل:

- من أنت؟

- موسى بهاء الرومي.

- ماذا تريد؟

- أرجوكم ارحموني، أين أنت يا (سليمان)؟

ويُطلب منه إثبات شخصيته، لكن جيوبه خالية إلا من علبة السجائر وبضع جنيهات.

- من أين أتيت؟

- من السجن.

وتتناثر الكلمات والضحكات المحشرجة الساخرة والتي تنم عن كونهم يتعاملون مع مدعي جنون، لكن الضابط يتهامس مع قرينه:ة"لو كان مدعي جنون فما الداعي لذلك، إنه لا يطلب مالا أو ما شابه، وطلبه جنوني فلم لا يكون مجنونا بالفعل"

وحين سمعه موسى يتحدث عن مستشفى المجانين، تكلم بصوت باكٍ:

- أرجوك خذني إليها.

- معك واسطة؟

- نعم؟

- مستشفى المجانين حاليا بالواسطة.

ويعطي إشارة للأمين فيسحبه خارج المترو، وتخبطه رائحة الطعام، فيتذكر أنه جائع، فيمسك بيد الأمين ويقول:

- تعال معي.

- أين؟

- أنت جائع، أنا أعرف الأعين الجائعة.

ويشفق عليه أمين الشرطة، ويسأله بتعقل:

- ماذا تريد؟

- أعود لوطني أو السجن، مع أن كلاهما واحد، لكن السجن فيه من يصدقني.

ثم يرفع رأسه لأعلى ويهمس دامعا:

- أتركتني يا (سليمان)؟

- أين السجن؟

- لا أعرف. لكن المأمور اسمه أحمد عبد العدل، قل لي.

- تفضل.

- هل تحوم الهيلوكبتر هنا؟

- أقول لك شيئا آخر.

- تفضل.

- صف لي بلدك.

- المندرة.

- أي مندرة؟

- إنها بجانب النهر.

- أي نهر؟

- هل بيع النهر أو تبدل؟ نهر النيل يا صديقي.

- أعطني أمارة أخرى.

- وهل بعد النيل أمارة، ولكنها في الناحية الأخرى من صحراء إكنار.

وكاد الأمين أن يطرحه أرضا وهو يصرخ فيه:

- لماذا لم تقل هذا؟

- لم؟

- سأدلك على موقف إكنار فهي كالنار على العلم.
- لم؟
- إنها قبلة عالمية الآن، الآن صدقت أنك كنت مسجونا، تعال.

ويشير لتاكسي ويطلب منه الذهاب لموقف سيارات إكنار، ويثرثر موسى عن كونه ليس من هناك، لكن السائق تحرك بسيارته، وفي الموقف سأل بخشوع ورعب عن سيارة تذهب للمندرة ولم يجد، وحالفه الحظ حين رأى وفدا سياحيا يستقل سيارة خاصة لإكنار، فاقترب منهم وتحدث بالعربية فلم يعره أحد اهتماما، ولما تكلم بالإنجليزية وكان يقول:

- أريد الذهاب للمندرة وهي في طريق إكنار لكن من الناحية العكسية، أعرف أنكم طيبون وستأخذونني معكم.

سمحوا له بالركوب، وطوال الطريق كان يثرثر عن ثقافته العميقة ومعرفته بكل ديانات الناس في العالم، لكن معبد إكنار مغلق منذ زمن، ولا بد أنهم ذاهبون لإلقاء نظرة عليه ثم العودة سريعا، ويخرج له أحدهم كتالوج الواحة ويشرح له أنها أصبحت مدينة دينية عالمية، ثم يسأله:

- هل أنت مصري؟
- نعم.
- إذن كيف لا تعرف ماذا حدث في إكنار؟
- كنت في أجمل رقعة على سطح الأرض والآن سوف أنتقل للجحيم.

وقرر ألا يتكلم تارة أخرى، ووضع رأسه بين ركبتيه يتصور ماذا حدث في سني سجنه، وظل على حاله حتى نزل في مدخل المندرة الجنوبي، وكان الوقت قرب الفجر، والهواء شديد السخونة، وحين اقترب من شارع النطرون ورغم تبدل أشياء كثيرة، أحس بتاريخ حياته القديمة يناجيه، ويمر بمحاذاة دكان مانو فيراه استيقظ لتوه ويفتح بابه، وقبل الوصول لبيته بمسافة طويلة كان برنس ينبح ويتقافز، فأعاد له شريط الذاكرة كل شيء كأنه لم يبرح المدينة قط، وبكى يحتضن

الكلب، وقعد به أمام البيت، ونادى على أخواته البنات، فطلت ثلاثتهن من النافذة وتبسمن كاللائي يقلن:

- إن الفرج قريب.

(٣٩)

منذ سنين لم تذهب بديعة ناحية ملعب عبد الأمين الشيوعي، ومع تشوقها لزيارة هذه المنطقة كان الوهن يمنعها، ولما حبست (بدير العدوي) في بيتها القديم، كان الحظ بجانبها، فالبيت المجاور لبيتها مباشرة لعائلة الرومي، وهم في حالة إعياء غريبة أفقدتهم الكثير من الإدراك، وكذلك فإنه على ناصية الحارة والبيوت المقابلة له هدمت منذ زمن وبني محلها عمائر عالية أغلبها عيادات طبية ومكاتب محامين، ولأن الجميع في انشغال دائم والصخب لا ينقطع ليلا ونهارا فإن (بدير) مهما صرخ لن يلتفت له أحد، كما أن صراخه واهن لحدٍ بعيد، ومع ذلك أرادت أن تؤمن الأمر أكثر فأرسلت كاميليا لمزرعة الدواجن لتشتري عددا كبيرا من الطيور، وتجلبها حية وتضعها في البيت لتكون سببا وجيها للذهاب إليه، ونفذت كاميليا الأمر، وحين دخلت علي بدير، تحدث معها عن الرحمة والتسامح و أنه لا ينبغي عليهم تعذيبه ولا حبسه، ويعترف بخطئه ويرجوها المغفرة.

- فُضح عيالك يا بدير.

- كيف؟

- كل الناس في المندرة عرفوا سرك.

- كيف؟

- أنت مريض بالإيدز.

- هه.

- وزوجتك، وربما عيالك أيضا.

وحين خرجت من البيت شهقت وهي ترى موسى جالسا مع الكلب.

- موسى؟

- من أنتِ يا امرأة؟ وما الذي جعلك تدخلين بيت خالتي بديعة.

- موسى ألا تعرفني أنا كاميليا زوجة نصر الله.

ويلمحها مانو من بعيد فيناديها ولا تعره اهتماما، فيأتيها متضايقا، وفي عنجهية يلقي عليها كلمات آمرة بتلبية نداءه فورا، لكن موسى تدخل واشتبك معه، فدفعه مانو وأسقطه أرضا وتجمع البعض يفضون الاشتباك، فهرول موسى لبيت معيشة بديعة وناداها وخبرها بما حدث، وتشهق المرأة حين تراه وودت لو احتضنته لكنها سعت لناصية الحارة فوجدت مانو يحذر كاميليا من تجاهله تارة أخرى لكنه اهتز حين سمعها:

- ألم تنكرها قديما يا مانو؟ ماذا تريد من زوجة ابني؟

- لم أنكرها كنت قد نسيتها فقط.

- ماذا تريد منها؟

كان هدف مانو استخدام كاميليا في التجسس على زنجو بإكنار، ومع شعوره بالحرج مشى مطأطئ الرأس، فهو ما يزال يعتقد أن بديعة ذات سطوة كبيرة، لكنه عاد مسرعا يتحداها بالسؤال عن (سليمان):

- أين ذلك الشاب الذي جلبتيه قديما يا بديعة؟

وفي شجاعة متناهية تصدت له وتكلمت كالتي تهدده: - لا أعرف.

- هل أنت و اثقة أنك لا تعرفين أين (سليمان) عبد المنتقم يا امرأة؟

- الذي و اثقة منه هو إنني ربيت (سليمان) يا مانو.

- إذن أين هو؟

- أنت الذي يعرف ولست أنا.

- على راحتك يا بديعة.

- طبعا.

(٤٠)

ألف متر مربع؛ ارتفع فوقها قصر ماكسيم، وتلتف حوله ألف أخرى تحوي كثيرا من أشجار الورد والفاكهة، وتكعيبة عنب قديمة، وحمام سباحة، وثلاث حجرات واسعة للخدم وإسطبل شاغر، وكل هذا محاصر بسياج حديدي شب على دائرة حجرية عُلقت فيها كاميرات مراقبة دقيقة، وبوابته حديدية عملاقة بها جهاز صوت تتصل بجميع حجرات القصر، ويفتح الطابق الأول على ممر حلزوني ينتهي بفتحتين ملتويتين، وأما اليمنى فتتجه لبَهو واسع به صالون ذهبي فخم، وفي الناحية الأخرى من الممر أنتريه صغير، وخلفه سفرة كبيرة على مقربة منها حجرة الطبخ، وفي اليسار من الأنتريه باب شديد المتانة يفتح على حجرة مكتب، والطابق الثاني دائرة، تتوزع فيها خمس حجرات واسعة وكلها للنوم، وأمامها ممر دائري واسع مُحلًّى بسور خشبي قصير، وتعلق على الجدار بعض لوحات ثمينة، أما البدروم فهو لتحزين الخمور، وبه وثلاجة واسعة للطعام، واللون الأبيض هو الغالب في داخل وخارج القصر، وفي حجرة المكتب كان الخادم العجوز يلقم جون ماكسيم طعام الإفطار، وبينما يبتلع كان يفكر في الخلاص من ذنوبه، وهو الذي اعتقد أنه بعد فقدان بصره وتعذبيه في بدروم زنجو قد تطهر من آثامه، وبعد أن عرف أنه أحد أسباب تهديد حياة أبرياء وتعذيب آخرين مرضًا، قرر معاونة (سليمان) بشكل كبير، وقد ارتأى أن منحه الجنسية غير كافٍ، ومن أجل هذا ألحقه بالجامعة لدراسة العلوم السياسية حتى إذا ما تخرج وحصل على الجنسية، وبتدخل المال وسطوة كلوديا يصبح موظفا في الخارجية الفرنسية، ثم يؤازره فيعتلي مناصب عليا تمكنه من تقديم أفضل حل للمصابين بالأمراض في وطنه والانتقام من زنجو وأشباهه، وكان على الدوام يتصل بالجامعة ويسعد بنبوغه، ويجنح خياله حين يتصوره رئيسا لفرنسا ويستخدم جيشها في القضاء

على مسببي العذاب في الأرض، وينال هو غفران الرب ويدخل الجنة الأبدية كما اعتقد، وكتب عقدا بمقتضاه يكون (سليمان) عبد المنتقم شريكه في مصنعي أفريقيا الوسطى، وكان إقدامه على هذا لمعرفته بقيمة المال والسلاح في العالم، وقد انكشف له سر كثيرًا ما أتعبه في السنين القديمة، فلما كان يريد الحصول على عضوية المحفل الماسوني، كان اعتقاده أن الإنسانية المتسامحة التي يتشدق بها الماسونيون هي السبب الأوحد في منح العضوية، لكنه أدرك خطأه، فبعد بحثه الكثيف في الآونة الأخيرة، عرف أن أعضاء كثر في هذا المحفل على درجة مذهلة من الثراء، وفيهم سياسيون كبار وتجار أسلحة ورجال دين لهم شأنهم الرفيع في العالم، وقد عرف أيضا أن عائلة فريمان من أهم الأذرع القوية في هذا التنظيم الماسوني، ويعرفون غالبية أعضائه وأنشطتهم، وفي كثير من الأحيان يتحكمون فيهم ويدمرونهم إن أرادوا، فصار لديه يقين أنهم الذين اقتحموا ضريح مسعود الحبشي وقتلوا أقرانه القدامى انتقاما لجوزيف فريمان، وهم الذين حقنوا بهاء الرومي، فأراد تأمين (سليمان) على المستوى العلمي والمالي وبشراكته في مصنعي الأسلحة يستند على أرض قوية، فربما كان ذلك سندًا في الحصول الماسونية، ولما حضر بين يديه، تجاذب معه أطراف حديث عن السفر لأفريقيا الوسطى، ثم عرض عليه عقد الشراكة وأصر على توقيعه، لكن (سليمان) أخذ العقد ووضعه في جيبه.

- سأوقعه في إفريقيا الوسطى.

- ما زلت تشك بي؟

- لا.

- اسمعني جيدا، قلت لك إنني أعرف الذي حقن والد أستاذك موسى، وفي عقيدتي إنهم جنود آل فريمان الذي يعيشون في أمريكا، وعائلة فريمان ذراع قوي في الماسونية، وبالضرورة يعتبرون سببا أصيلا في تسليمي لزنجو، أعلم أنك قد تبهر مما تسمعه، أو ترى الجنون في كلماتي، لكنها الحقيقة الجلية التي لا يريد أحد أن

يراها وإن رآها لا يصدقها، لأن أصحابها يسلطون جيوشا لتسفيه جوهر الأشياء، وعلى هذا لا بد أن تكون واحدا منهم.

- ولماذا تريد أن تضمني لهذا المحفل؟

- لتكون قويا.

- أنت تريد الانتقام من الماسونيين، هذا ما أراه يا ماكسيم، من فضلك لا تغضب مني.

- الأمر واحد يا صديقي.

- ولماذا تستخدمني أنا؟

- أنا و أنت في مركب واحد، أعتقد أنك تفهمني جيدا يا (سليمان).

- ما أعرفه عن شروط الماسونية أن جميعها ينطبق عليّ إلا شرطا وحيدا، وهو تاريخي الاجتماعي، فأنا لست بالشخص الذي يلتفتون إليه، فهم يتحرون عن كل الذين يتقدمون بطلب عضوية المحفل، وأعتقد أن عدم انضمامك قديما كان سببه أخلاقيا.

- هذا هراء، لا تكن ساذجا، ولا تصدق ما تقرأه أبدا عنهم، إن المجد الأعلى فقط هو سبيل انضمامك لهم، بعدها ستعرف سر حقن عائلة أستاذك وتجلب الترياق لأنهم كما صنعوا الداء صنعوا الدواء، و أتحداك ستجد علاجا لأختك من الإيدز، ثق بي، فبعد العجب الذي عشته أصبحت أصدق المكذوب وأكذب المصدوق، وعقد الشراكة الذي أقدمه لك الآن بمقتضاه تستطيع الإشراف على مصنعي أسلحتي، لكن سيكون هذا سرا، حتى تكمل دراستك وتحصل على الجنسية، وتتوظف في الخارجية الفرنسية، ثم مع الوقت تعتلي منصبا كبيرا وتفعل ما يحلو لك بعدها، شرط أن تأتيني بزنجو.

وبينما يتحدثان كانت كلوديا سمعت ما قيل و أبدت اعتراضها على هذا، وتحدثت عن كونها تود السفر والطواف حول العالم والتمتع بحياتها وزوجها ولا علاقة لها بهذه الحرب، فأمسك (سليمان) يدها، فتنهدت:

- أخاف يا (سليمان).

حدثها أن الطواف حول العالم ستكون نقطة انطلاقه من إفريقيا الوسطى، ويلحقه ماكسيم في الكلام وجعل يشرح عن امتلائها بالغابات الساحرة، والناس فيها شغلهم الدؤوب خدمة الفرنسيين، ولمحت كلوديا في وجه (سليمان) شبه مو افقة فاستسلمت، ثم تمشيا في حديقة القصر وفي دائرة شجرية جلسا على مقعد خشبي، يمرر يده على شعرها، فتنام على صدره وتغمض عينيها وتتنهد وتسأل:

- هل تحبني؟

- طبعا.

ثم ينظر في الأفق ويتبسم من طريقته في استخدام الزمن، وكانت واحدة من أسلحته التي لا نظير لها، إنه يود حين يوجه ضربته أن تكون نهائية لا تردد فيها ولا فشل، وطبع قبلة خفيفة على جبينها، ثم استأذنها بلباقة، وأجرى اتصالا ببديعة فصرخت فيه حين عرفت أنه سافر فرنسا وسيطوف حول العالم.

- متى ستعود يا بني؟

- سأعود.

ولا تدري كيف أطلقت ضحكة طويلة سعد بها كثيرا، كالذي يري وجه وطنه الخالد، ثم عبّرت عن ضيقها الشديد من مانو وخوفها من لؤمه فربما عرف بشأن بدير العدوي، فطلب منها استخدام أبيه وأخيه فتقدم لهما مالا بغرض التصدي لمانو في حال أحست منه مكرا أو خدش كرامتها، و أبدى إعجابه من فكرة تواجد طيور في البيت، ورجاها أن تجعل من كاميليا سكين انتقام بارد منه ولا تقتله أبدا، ثم أعطاها عنوان أخته نور كي تزورها إن أرادت، وقبل أن ينهي مكالمته معها وصاها على عائلة الرومي.

- لقد خرج موسى من السجن.

- أبلغيه أنني في فرنسا وعليه كتمان هذا الأمر.

بعد المكالمة طلبت من كاميليا ألا تخشى مانو أبدا، وحين ترى موسى تبلغه أن يجيء كي يأخذ طعاما، وحين حضر أقعدته أمام الباب وقدمت له دجاجة مشوية وخبزا، ثم همست في أذنه:

- (سليمان) في فرنسا.

حمل الدجاجة المشوية و انطلق يصرخ:

- اقترب شعاع النور، وضعتُ فيه الكلمة وإن الحق يرويها.

(٤١)

وكما توقعت.

يجثم كابوس على صدر كاميليا، أمواج البحر كجبال حمراء، وسيقان سوداء تخترق السماء تضرب سفوحها، فتتحول لريح حارة، تنسل نحو البر في هدوء ماكر، وكانت أمها عارية، ثائرة الشعر، تهش طيرا صغيرا وأسود، وكلما ابتعد عاد ونقرها في وجهها حتى أسقطها أرضا، ثم وقف على رأسها ينتف شعرها بمنقاره الصلب، كأنه يحصر كل الدقائق التي عاشتها، ولما انتهى فقع عينيها فسحبتها الريح نحو البحر، فهبت من نومها:

- أمي.

وتبكي بغزارة، فأحضر زوجها كوب ماء وهدأ من روعها، ثم نادى أمه، وصعدت تواسيها، وقصت عليها الكابوس، فاستشعرت أن فريال في خطر، وتتوسلها كاميليا الذهاب لإكنار، فطلبت منها الانتظار حتى الصباح، فلعل خبرا يأتيها، وتترجاها كاميليا في تنفيذ ما تريده، وتهز رأسها وتتمتم بكلمات تطلب سترا، وقد خشيت أن تصيب فريال المنية دون أن تراها ابنتها، فتصاب بمس هستيري يخلق فيها تبجحا فتفسد حياة ولدها وحفيدها، ولما اقتربت الساعة من الخامسة صباحا، حدثت ابنها عن خروج للمزرعة وستصحب معها زوجته، ودخلت بيتها القديم وقذفت في وجه بدير العدوي برغيف وتركت له زجاجة ماء، وسارتا في برودة شديدة. ترتدي كاميليا عباءة سوداء صوفية فخمة، وتلف حول عنقها دثارا دخانيا خشنا، أما بديعة فتلبس جلبابًا كحليًّا ثقيلا وطرحة برتقالية صوفية، وتدثر يديها بقفازٍ سميكٍ، وحين تسللت البرودة لعظامها أدركت أنها صرفت سنين كثيرة، ولم يعد جسدها كسابق عهده، وتطلعت تنظر جانبي شارع النطرون الذي تغير كليا، وكانت كومة شباب ساهرين على المصاطب الرخامية الجديدة، ويمسك أحدهم بشيء معدني صغير في يده، ويتحدث فيه، وطلبت من كاميليا الانتظار لتعرف هذا الشيء

فقد رأته مرات في أيدي الناس، فاقتربت من الشاب وسألته:
- ما هذا يا بني؟
- موبايل.
- ماذا يعني؟
- تليفون.
- تليفون حقيقي.
- اذهبي بعيدًا.
- حاضريا بني.
أخفت حزنها و ابتعدت، ولما رأت أن اليافطات لا حصر، تساءلت:
- أين البيوت يا كاميليا؟
- أسرعي يا حماتي.
وشدت على خطوتها لتقلل من قلق كاميليا، وتتذكرها قديما حين رأتها لأول مرة، وتتعجب من الزمن وما يخفيه في جوفه، فقد بلغ حفيدها الرابعة عشرة وما تزال أمه تعاني من تاريخها القديم، ولا تعرف أن واحة إكناروديانة ساكنيها لم يعد سرا، ولأن ما فعلته قديما حين زوجت ابنها من كاميليا لم يكن بالكارثة كما اعتقدت، وكذلك فريال لو كانت تعرف أن ظنها خاطئ ما قطعت زيارة ابنتها قط، والمرأتان لا تعلمان أن كثيرا من سكان المندرة عارفون الآن بإكنار وما يحدث فيها، لكنهم لا يعرفون أن كاميليا من هناك، وحتى الذين يعلمون لا يعنيهم الأمر في شيء، وحين وصلتا موقف السيارات اكتشفت بديعة أن السائقين لم يبالوا بتواجدها فتبسمت رغما عنها، وتذكرت جمالها الساحر في غابر الزمن، وتعجبت من كون الرجال تجاهلوها لهذا الحد، وكانت الأخرى متوترة ومتسرعة وودت لو أجرت سيارة خاصة، لكنها فوجئت بحماتها تطلب من سائق الميكروباص أن يتحرك فورا وستعطيه ما يريد، وكان هدفها من ذلك الوصول مبكرا ورؤية فريال والاطلاع على أحوالها ثم العودة بأسرع ما يمكن، وتشرق الشمس عليهما وهما في الطريق الذي

اتسع وأصبح مُهما بسبب شهرة إكنار العالمية، وتناثرت على جانبيه الكافيتريات والاستراحات، وكلما تذكرت كاميليا الكابوس ضغطت على يد حماتها فتربّت على كتفها، ويجيء بخاطرها كلمات (سليمان) عن أمها، فتستجدي الوصول سريعا، ويمر الوقت صعبا، وتطلب من السائق السرعة، وتصرخ فيه حين توقف لتناول طعام فتهدئها بديعة، وظلت على توترها حتى وصلت، وسعت تنادي أمها، فخرجت من حجرتها تحمل صندوقا خشبيا، ومرت بجانبها وكأنها لم تراها، فمشت وراءها حتى بلغت الإسفلت:

- أمي سامحيني، كنت خائفة من أبي.

ولا تبالي بها فريال ولما رأتها بديعة تقعد على الإسفلت وترص بضاعتها، عرفت أنها لفظت حبها لابنتها للأبد.

- كلميني يا أمي، أنت بخير؟

- سأكون بخير حين تنفذين أمري.

وتسقط كاميليا على يدها تقبلها وترتعش:

- أمرك مطاع يا أمي.

- لو دخلت المعبد واستغفرت الرب غفرت أنا لك.

وهنا يجيء صوت بديعة:

- هيا يا كاميليا.

وتنزعها بالقوة وتذهب، فيستشاط غضب فريال وتصرخ، ولما كان زنجو يترجل عن سيارته وأعجبته المشادة النسائية:

- ماذا يحدث؟

وتجن فريال وتطلب منه التدخل فهاتان المرأتان غريبتان عن الواحة وجاءا ليشعلا الفندق أو يخطفا أطفال، ولما اقترب منهما كادتا يسقطان أرضا، وحين لاحظ فيهما خوفا كبيرا بدأ يصدق ما قالته فريال، لكن الحظ حالفهما فيأتي رنين

هاتفه الجوال وينشغل في الرد على ابنته، فاضطرتا للجري لكن فريال هرولت وراءهما تصرخ:

- كفرة ولصوص.

وحين استدارت لتعود، كانت سيارة مكدسة بزوار المعبد، آتية بسرعة شديدة، وإذ تقترب من صندوقها الخشبي وبضائعها، صرخت تنادي:

- لا تدهس بضائعي.

وبنفس سرعة السيارة جزع قلبها، فأسرعت تصنع من جسمها ساترًا تحمي بضائعها، وضربة واحدة من مقدمة السيارة كانت كافية لخطف روحها، وتجمع الزوار حول جثتها التي سحقت مع البضائع، وكانوا يتمتمون أنها وقفت أمام السيارة بقصد الانتحار، ويجيء رضا المغربي، يقعد جوار جثتها، فيبكي ويضحك.

(٤٢)

وعاش يكبت خوفا ويرقب تهديدا.

وسط حُرّاسه يقف زنجو في واحة إكنار، ويهيأ من خياله أنها بني فيها ترسانة أسلحة تحمي أمواله وفنادقه، وفي الجانب الخالي من شريط الإسفلت اشترى ألفي متر مربع، و أبرم مع إحدى شركات الهندسة الكبرى عقدًا يقضي ببناء قصر ضخم، ويعرض عليه مهندسو الشركة التصميمات كي يختار منها ما يعجبه، وبعد أن اختار التصميم الخارجي للقصر، تعجب المهندسون من طلبه الغريب وكأنهم قادمون على بناء قلعة حربية، فقد طلب أن يتم الحفر لأعماق بعيدة حتى يصلوا لصخور صلبة، ويتخذون من جوانبها جدرانًا للبدروم، وتندفع كلمات من فم أحد المهندسين:

- هذا ليس بدروما يا سيد زنجو.

- ماذا إذن؟

- هذا أخدود عميق.

- سمّه ما شئت، واسمع: ستظل الآلات تحفر حتى آمر أنا بإيقافها.

- هذا مكلّف وخطر.

- ليكن.

- وهل ستحفر قطعة الأرض كلها بهذه الطريقة؟

- ربعها فقط، أما الباقي فكما يستلزم بناء القصر.

- ولم تفعل ذلك؟

وفي تبجح خبره أنه سيحبس في تلك الحفرة العميقة كل من تسول له نفسه أن يهدده أو يتعرض لثروته الكبيرة، وكي ينسف هذا الجدل اتصل بكبير المهندسين وطلب منه أن يأمرهم بالإذعان له، أو يحضر بنفسه ويحل هذا الجدال الفارغ،

وأتى الرجل ونهرهم أمامه، وبدأ العمل، وبينما يشاهد الآلات تحفر، وتشتد سرعة نبضاته، فيحسها حرابًا موجهة، نحو الفعل الدموي المختزن في أحشائه منذ كان معدما في الباطنية، فيعض على نواجذه، فيتعظّم شخصه الدفين مستكبرا على الوجود، ويشهق كالشيطان الذي يستعيد أرواحا حبيسة بالآفاق المترامية، أرواح معذبة، تنفث فيه دفعات خوف أذلّها أزمنة طويلة، فيتأكد أنه لا منطقية لتواجده في الكون، ولا معقول وجيها لحياته، سوى أنه خُلق كي يفتك بجميع العثرات التي تقف حائلا أمام جموحه المادي، فتنتفخ أوداجه، ويستشعر عنقه تتمدد لأعلى، وكأنه لمس السماء، ونال منها قوة لا نهائية؛ وتتيقظ شعيراته الدموية لتنزع فتيل الشر الكامن بأعماقه، ويتقهقر جلد جبهته كأنه سيحطم وجه الصلب، ويغمض عينيه، ويتذوق الأفيون المر ثم يبتلعه، ثم يتسع قفصه الصدري لشهيق كبير، وبصوت كحد السكين البارد، يزفر الكلمات مثل القذائف البركانية:

- من يتجرأ ويتحداني فمصيره الذل والعذاب.

ويستفيق على صوت المهندس:

- يا سيد زنجو أسنان الآلات تحطمت وكاد أحدنا يموت.

ينظر للحفرة فيرى أنها أصبحت صخرية الجدر، وتبرز من قشرتها عروق رفيعة، صلدة وملساء، جليدية اللون، وتلتف حول بعضها، كأنها طفيليات تحجرت على قيد الحياة، مشبعة بلون بنفسجي أدكن، وتتخلله بقع بيضاء وبرتقالية وزرقاء، وتتناثر بالجوار منها أصداف وعظام حيوانية متفاوتة الأحجام، كما لو كانت شعبا مرجانية تشكلت منذ أزمنة سحيقة، فأمر أن يكون سقفها طبقات معدنية شديدة الصلابة، ثم يتموا البناء بحسب التصميم الذي قرره، ويمر الوقت عليهم يكدحون في تشييد القصر، ولوفرة المال تم بناؤه في شهور، ولما تسلمه، وقف ينظر له منتشيا، فأربعة أسوار عريضة وشاهقة الارتفاع، وبداخلها القصر، الخشبي اللون، ويعود تصميمه الخارجي للعصر المملوكي، ويتقدم بوابته درج قصير، ومصاطبه منحوتة من الجرانيت الأحمر، شبّ طابقه الأول فوق البدروم والحفرة

ذات السقف المعدني التي حفرت لتكون سجنا لأعدائه كما اعتقد، وكان يصيح شامتا:

- سيكون مانو هنا قريبًا، أنا لا أخدع أبدا.

وأما البدروم فقسمان، جراج رصاصي الجدر، وخمس حجرات واسعة وحديدية الأبواب، وهي لتخزين السلاح وشيء من بضائعه، وأما الطابق الثاني فمجزأ لحجرات كثيرة متصلة ببعض عبر ممرات حلزونية، وأبوابها الصغيرة مختبئة وراء أشهر اللوحات الزيتية المزيفة، وهي معدة بما يستلزم المعيشة لفترة من الزمن، وجميع مقتنياتها من صنف وحيد، فأرضية الحجرة مكسوة ببلاط السيراميك الأبيض، تعلوه سجادة نارية اللون، وفي أقصى ركنها الأيمن دورة مياه، وبابها الخشبي مدثر بسياج حديدي أسود، وأمامه فراش، مرتبته قطنية بيضاء، تكسوها ملاءة ذهبية، ويرتكن عليها بطانية ثمينة ومخدتان منفوشتان تلبسان غطاءً حريريا أخضر، وقبالة الفراش ثلاجة متوسطة الحجم، ودولاب معدني مصقول، يجاور باب الحجرة الزجاجي، ومرآة على جانبيها عدة أرفف، ويتراصُّ عليها كل ما يحتاجه الفرد للتطيب والتزين، وحين حضرت ابنته برلنتا، وهي التي تخطى عمرها الأربعين سنة، لاحظت على أبيها أمارات هستريا انتقامية، فسألته فيم يفكر ولم أنشأ هذا البناء العجيب؟ وأمرها بالصمت والاهتمام بفندق إكنار قدر ما استطاعت وصرخ مجنونا:

- أنا أتعرض لمؤامرة.

- أية مؤامرة؟

- لن يفلتوا مني.

وأمام تغيظه المخيف، عادت للفيلا القديمة بحي المعادي وقد انتوت تركه نهائيا، وأما هو فلم يضيع وقته، فأجرى اتصالات برجال أعمال كانت لهم طموحات في إكنار، وهم تجار سلاح وفق القانون، وانتقى منهم واحدا.

(٤٣)

سماء العصر الصيفية؛ رائقة الزُّرقة، والهواء منعش خال من العفر. يتقافز برنس في ملعب عبد الأمين الشيوعي، وعلى طرفه يتمدد موسى، وبجواره كيسه القماشي القديم، وبه بقايا عظام وكسرات خبز، فيجوب ببصره في الفضاء ويتبسم، ثم وقف فجأة ينقش في الهواء رسما وهميا، كالذي يصمم بوصلة مغناطيسية، وضرب الأرض بقدمه واستاء كثيرًا، لأن اتجاه قطبها لم يعجبه، فقد اكتشف أن سحبا آتية ستتجه نحو الشرق وليس الجنوب كما أراد.

- الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، هذا قول مأفون وحقيقي، ماذا تفعل في فرنسا يا (سليمان)؟

ويلمح طيارة فينادي:

- (سليمان)..(سليمان)..رد علي يا ولد.

يأتي برنس ويقف جواره وينبح كأنه يشاركه النداء، يضحك ويتحسس الكلب، ثم ينحني ويهمس في أذنه:

- هل تذكر (سليمان) يا برنس؟

ويمر الوقت عليه بانتظار رؤية الهيلوكبتر، وحين يصيبه الملل يتجول في الملعب، ثم يقف بمنتصفه يعظ الكلب الذي يمدد قدميه ويسمعه بإنصات، وحين يمشي به في طريق العودة، يسمع أناسا يتحدثون عنه ويتعجب لأنهم لا يكلمونه، وكان الحديث الصادر شبيها بكلامه القديم عن الهيلوكبتر، لكنه مغاير لما قاله قديما، فهم يقولون إنها ترمي المندرة بالوباء، وهو يقول إنها رمَته بالحجر، ولما صرخ فيهم:

- أغبياء.

ومع إصراره إنه يقول الحق استعاد أحدهم ما وُصف به قديما:

- دعك منه، إنه مخبول.

فيضطر للاشتباك مع القائل، وكان يتعرض لضرب مبرح، فيقعد أمام داره في انتظار من يرمي له بخبز أو طعام ترسله بديعة لعائلته، ولاحظ أن مانو يرقب كاميليا، فعلم أنه ينوي بها شرا؛ فوقف أمام دكانه يغيظه:

- ولد يا مانو، هل طردك زنجو من إكنار؟ لقد عرفت كل شيء يا أهطل.

ويتعارك معه، ويتغلب عليه مانو حتى عبأ وجهه الطيني بالخربشات الدموية، فيقعد حزينًا، ويثبت في أذهان الجدد بشارع النطرون أنه مختل، ولما كانت كاميليا عند ناصية الحارة رآها مانو، همس في أذنها:

- سأفضحك في المندرة، إنهم لا يعرفون أنك بهائية، وسأدمر حياة ابنك.

ألقت نظرة خاطفة على دكان زوجها وكان ابنها قنديل يقبع أمام بابه مع أقرانه المراهقين يضحكون ويعرضون هواتفهم المحمولة، وكادت أن تصرخ في مانو وهي تتخيل أنها أصبحت مجلب معايرة لولدها، ولما حكت لبديعة، مسكت عن غضبها بصعوبة ولبست الشجاعة ثوبا وذهبت لدار فهيم عبد المنتقم وكان يتجرع البيرة هو وولده إبراهيم.

- بديعة؟

وعرضت عليهما مبلغا من المال وطلبت منهما الحماية من مانو.

- وماذا يريد منكم؟

وعقد لسانها في فمها، وتفتش عن المسوّغ المقبول لطلبها، فمانو معروف في المندرة بعشقه للعمل، ولا يبدر منه معاكسات للنساء، فجلبت دموعا مزيفة وأخبرتهما أنه يريد شراء بيتها القديم عنوة، وفي شجاعة مبالغة، خبرها فهيم أنه سيتصدى له ويعلمه الأدب، ويمر زمن طويلٌ ومانو مستمر في تهديده لكاميليا حتى صرخت فيه:

- ماذا تريد مني؟

- هل كفرت بربك يا كاميليا؟

- لا.

- إذن فلم لا تذهبين لإكنار؟

- وماذا أفعل فيها ولمن؟

- تخدمين المعبد.

- ثم بعد؟

- تنقلين لي كل الأخبار عن زنجو.

- وهل هذا صعب عليك؟

- لا،ولكنك أكثر الناس أمانة يا كاميليا،لقد نسيتِ فضلي عليك، أنا من سميتك يا امرأة.

وتتركه وتعود باكية، وتستاء بديعة من فهيم وولده اللذين أخذا المال ولم ينفذا وعدهما، وتذهب إليهما فإذا بهما يطلبان مزيدا، وتعطيهما ما أرادا، وتعود بيتها حزينة، ولما ذهب فهيم و ابنه إليه بغرض منعه عن بديعة، على مضض أحضر لهما زجاجة خمر معتق وأعطاهما مبلغا كبيرا فانقلب فهيم وولده ضدها، وأصبحت كاميليا في قلق وتوتر، لشعورها بالسقوط بين سكين زنجو وخنجر مانو، وباتت ساهدة على الدوام، وتهامس: "ماذا لو اتحدا الاثنان ضدي؟"، وذات ليلة سمعت دقا عنيفا، فاعتقدت أن الطارق واحد منهما، لكن بديعة حين فتحت الباب وجدت (فهيم) وولده، وفي يد كل منهما مطواة ويأمراها بالمثول أمام مانو، وحين صفعت إبراهيم على وجهه، شدها فسقطت أرضا، وجرها في الحارة ليبلغ بها دكان مانو، ومع صراخها حاول ولدها نصر الله الدفاع عنها فشج فهيم وجهه بالمطواة، وتصرخ كاميليا بشدة وهي ترى ولدها يشتبك مع إبراهيم الذي ضربه بقدمه فكسر أنفه، ولم يتجرأ أحد على التدخل، فالاثنان معروفان بالبلطجة، ولما وصلا لناصية الحارة يجران بديعة، ورآها موسى، ولأول مرة يطلب من برنس الاتحاد معه في معركة، ويزمجر الكلب ويقفز في الهواء ويغرس أنيابه في وجه فهيم فسقطت المطواة من يده والتقفها موسى وطعنه في فخذه، وفي طرفة عين سعى إبراهيم يهرول مرعوبًا والكلب وراءه، وعادت بديعة لبيتها، بينما أخذ موسى نصر الله وولده

للمستشفى، وتربّت كاميليا على كتف بديعة، وتتأسف لها وتؤكد عليها أنها سترحل من المندرة إلى حيث لا يعلم أحد وتزجرها الأخرى: - لن تتركي ولدي أبدا.

وفي المستشفى كانت (الممرضة فاتن هنري) قد تولت وظيفة الإشراف على جميع الممرضات، وبينما كان الطبيب يخيط الجرحِ لنصر الله، كانت ترمق ولده بنظرة إعجاب، ويسألها موسى عن خطورة ما حدث لأنفه قنديل، فتسأله هي:

- أنت صديق (سليمان) عبد المنتقم؟

- لا.

- كنت أراه معك في زمن طفولته.

- (سليمان) مات يا سيدتي.

- كيف؟

- أنت لا تعرفين أنه كان يعيش بكلية وحيدة، وتسمم دمه فمات.

وبينما هم عائدون من المستشفى أبدى قنديل إعجابه بموسى، وبدوره وضع ذراعه على كتفه وهمس:

- لو كنت طفلا لاتخذتك تلميذًا.

- هل مات (سليمان) حقًا يا عم موسى؟

ويغير الحديث لنوع من الهذر حول نسيان ما حدث الليلة، فذلك العراك كان لسبب تافه. - لكن جدتي تأذت كثيرا.

- سيحق الحق قريبا.

وكان نصر الله حزينًا مكبوب الوجه، لأن فطرته السمحة تمنعه من المكر أو التفكير في الأخذ بالثأر، ويشعره موسى حيرانَ فيصر على شراء عصائر وحلوى، وما يزال نصر الله رافضًا حتى أجبره موسى على الضحك، ولما عادوا كانت الحارة في سُبات، فدخل معهم البيت، وانفردت به بديعة وحكت له كل شيء، فخبرها أنه منذ الآن سيكون خفيرا عليها وعلى ابنها وحفيدها وكاميليا، وسيعين برنس حارسًا على بيتها القديم حتى يعود (سليمان)، ويمر الزمن والكل متربص.

(٤٤)

في الأمم المتحدة.

تقدم الخارجية المصرية مذكرة احتجاج على قرار فرنسي يناهض سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، ولما كانت فرنسا عليمة بمدى تبعية الخارجية المصرية لأمريكا، وأن هذا الاحتجاج لا قيمة له سوى إرضائها، أعطت المخابرات الفرنسية الضوء الأخضر لصحف بلادها والدول الفرنكوفونية بفضح ما لا يعرفه الشعب المصري عما يفعل في الخفاء من القيادة العليا لدولتهم، فكتبت المقالات بشأن حصول البعض بشكل شخصي على ملايين الدولارات، كي تشارك بعض كتائب الجيش في حرب الخليج الأولى، وكانت التحقيقات الصحفية مُعزّزة بصور الشيكات، وأرقام الحسابات وشفرات التوقيعات وأسماء المؤسسات المصرفية الأمريكية، وتسهب الصحف في أن ذلك يُعرض أمن الدولة المصرية لخطر كبير، وكان التصور السياسي الفرنسي أن ذلك الفضح قد يؤدي إلى إحداث صراع داخلي لكنه كأن لم يكن، وكان جون ماكسيم من النخبة الفرنسية المهتمة بالشأن المصري، خصيصا بعد مأساته المريرة في مصر، وحين دخل (سليمان) عليه وهو يسمع التلفاز وجده مستاءً بشدة لهذا التصرف المصري، والذي جعله يتوتر ويصرخ في (سليمان) حين تحدث الإعلامي الفرنسي عن خطورة مناورات النجم الساطع التي يتدرب خلالها الجيش الأمريكي مع نظيره المصري على أرض مصر، ويقول الإعلامي:

- لا شك إن هذه المناورات تعد خيانة عظمى للشعب المصري، لأنها بالضرورة تدرب الجندي الأمريكي على خوض معارك في ظروف بيئية تجعله قادرا على الحرب بسهولة في منطقة الشرق الأوسط، وإلا فلماذا لا تقام هذه المناورات على الأرض الأمريكية؟

- هل سمعت يا (سليمان)؟

- نعم.
- سحقا لأمريكا.
- عندي لك خبر جيد.

أعلمه أنه اجتاز الامتحان في الجامعة بتفوق، وكانت المهلة المحددة على حصوله على الجنسية انتهت، وفي وقت قصير حصل عليها، وقبل السفر لأفريقيا الوسطى، تقدم بأوراقه للحصول على وظيفة في الخارجية الفرنسية، ومن مطار باريس طار الجميع إلى بانغي، وحين استقرت الطائرة في مطارها ليلا، كان الحر شديدًا بدرجة كبيرة، وفي الإضاءة الضعيفة بدا الفقر عنوانا لكل شيء، فكان المَدْرج قديما وبه شقوق خطرة، وبرج المراقبة مليئًا بحفر دالة على نشوب معارك، وآثار الرصاص تجاويفا تسكنها الحشرات، وكانت صالة الاستقبال لزجة تفوح بتزمر غاضب مكبوت، مسوغه الوحيد أن حربًا أهلية في طريقها لبانغي، ويقدم ماكسيم هاتفه الجوال لـ(سليمان):

- من الآن أنت القائد.

وكان سكرتير المصنعين ينتظرهما في صالة المطار، وحين رآهم كتم شهقته، وهو يرى ماكسيم يرتدي نظارة سوداء ويتحرك كما العميان، وبينما يحتضنه طلبت منه كلوديا عدم السؤال عم حدث، فأومأ إيجابًا وتظاهر بالأسى، وحمل الحقائب وتوجه للسيارة المكشوفة، وكان قد علم مسبقا بقدوم (سليمان) وأنه صار شريكا في جميع ممتلكات ماكسيم، وتمر السيارة في طريق ضيق قلما كان مسفلتا، وعلى جانبيه أشجار ضخمة الجذوع وشديدة الارتفاع، وتلتف الرطوبة حول الأعناق فيسيل العرق، ويتحول التنفس لحشرجة باحثة عن الأكسجين، وتهجم عليهم كتل ظلام تدفع برطب حار، وتنزعج كلوديا من الحشرات اللادغة، وُيسمع في الجوار زئير الأسود وزمجرة الضباع، فتحدث (سليمان) مع السكرتير.

- اسمك يَقِين؟
- نعم.

- لم أنت خائف؟

- لا شيء يا سيدي.

- علمت أنك سكرتير أمين.

واستشعر من إيماءاته بخوف شديد، فأرجأ هذا لكونه اعتقد أنه سيفصل من عمله بعد هذه الشراكة المفاجئة.

- لن يحدث ما تظنه يا يقين.

- سيحدث قريبا.

- ماذا؟

- الحرب الأهلية يا سيدي.

- هذا سبب خوفك؟

- نعم.

- من أين أنت؟

- أنا من إفريقيا الوسطى لكني جنست فرنسيّا منذ زمن بعيد.

- أتفهم سبب قلقك.

ولما هطلت أمطار ثقيلة، أمره ماكسيم بالتوقف، وفي ضوء كشاف السيارة الضعيف كان يبحث عن مكان آمن، ويسمع صوت أعيرة نارية وصراخ، وتبرق عينا كلوديا وتتشبث ب(سليمان)، ويحمل يقين مسدسه ويجاور السيارة استعدادًا للاشتباك، فيقترب (سليمان) منه ويطلب سلاحا، لكنه اكتشف أنه لا يجيد استخدام المسدسات، ومع ذلك أخذ السلاح ووقف في الناحية العكسية من يقين، ومع توقف هطول المطر، وفي ترقب ركب الاثنان وأُطفئت كشافات السيارة، وبات فيها الجميع حتى أشرقت الشمس وسحقت مطر الليلة الفائتة، وانطلقت نحو القرية التي حملت اسم ماكسيم بعد طرد أهلها منها قديما، وعلى حين غرة ينتحب جون ويستاء من نفسه ويسبها ويلعنها فقد تذكر أهل هذه القرية حين طردهم منها، ووقفت السيارة أمام الاستراحة وكان جميع العاملين في انتظارهم، فترجل

(سليمان) ثم أمسك بيد زوجته وأنزلها، وطلب ماكسيم من يقين أن يُطلع (سليمان) على المصنعين والمخازن وعقود البيع والشراء، والأهم من ذلك يعرض عليه المصريين الذين جاؤوا هنا منذ زمن بعيد، ثم انصرف للاستراحة، وطلب منهم أن يتركوه بعض الوقت يبكي بين يدي الرب، وفي حجرة المكتب الواسعة، قعد (سليمان) على كرسي أسفنجي يفحص الأوراق، فاستاء فجأة وقال بحزم:

- هل تبيعون الأسلحة لحزب الله اللبناني؟

- نعم يا سيدي كانت هذه هي الأوامر.

- لن يحدث ذلك بعد الآن.

- أمرك مطاع.

وشرح له يقين أن هذين المصنعين لا يصدران الأسلحة لدول وحكومات، إنما يذهب الإنتاج لجماعات متشرذمة داخل الأوطان، ثم انتقل به نحو المخازن فأبدى إعجابه بالكم الهائل من السلاح المخزن ثم سأل:

- ما هي آخر صفقاتنا المنتظرة.

- مصر.

- من في مصر؟

- بعض المتاجرين في السلاح.

- من هم؟

- سأجلب لسيادتك قائمة الأسماء.

- قل لي أولا، هل يعلم التجار أن الأسلحة التي يتسلمونها من إفريقيا الوسطى؟

- لا يا سيدي، لو علموا أمرا كهذا لن يشتروها أبدا، إنهم يعتقدون أنها تأتيهم من فرنسا.

- وهل يأتون إلى هنا؟

- تعقد الصفقات في باريس، وبموجب توكيل معي أتسلم المال ثم أودعه في البنك باسم السيد ماكسيم بعد أن أقتطع منه الرو اتب والمال اللازم لشراء المواد الخام.

- عظيم، هات كل أوراق الصفقات الجديدة، واجلب لي المصريين الذين يعملون هنا.
- تحت أمرك.
وقبل أن ينصرف نظر إليه بعمق كمن يخترق وجهه اللامع بعينيه وسأله بهدوء:
- لماذا تقوم أنت بعقد الصفقات؟
- السيد ماكسيم منذ أصبح مالك المصنعين وهو يطوف حول العالم كي... ثم صمت وأومأ أرضًا واستشف (سليمان) مقصده لكنه لمح نظرة ريبة في عينيه الصفرو اين:
- يقين؟ أنت تعتقدني شاذًا أرافق ماكسيم؟ أنا أطلب منك مراقبة ماكسيم في الزمن القادم، كل شيء يتغيريا هذا، لا تنسَ أن تجيء لي بالتوكيل الذي معك فأطلع عليه.
وفي الاستراحة جلس يتناول الطعام مع كلوديا، وكانت تناقشه في انشغاله ونسيانه لها، ويرسم على وجهه ابتسامة صادقة، ويطلب أن تنام لتنال شيئا من الراحة، وحين توقف العمل، حضر المصريون وكان أصغرهم في الخامسة والأربعين وأكبرهم في الخامسة والخمسين، وكان يعتقد أنهم سيفرحون حين يخبرهم أنهم سيعودون لبلادهم قريبًا، لكنه فوجئ بهم يتكلمون الفرنسية بطلاقة فبادلهم الحديث، وسألهم عن سبب تمسكهم بأفريقيا الوسطى، وتقدم أحدهم وتحدث بلباقة عن عائلاتهم التي تعيش في رغد وثراء منذ جاءوا هنا، فالراتب الذي يتقاضونه كبيرلو قورن بحياة المصريين.
- ألا تخشون الموت في الغربة؟
ويحدثون لغطًا وهم يتكلمون معا عن حياة المصريين في وطنهم، وكشفوا له أنهم حين تركوا مصر، كانت زوجاتهم تشكو قلة المال والعيال جوعي، وكاد يذهل حين عرف أن (يقين) ساعدهم فنال أغلبهم الجنسية الفرنسية، فالذي يمرض منهم يسافر فرنسا ويعالج على نحو جيد، ويتنقل في أوربا ويستمتع بوقته ما استطاع،

كذلك فإن وسائل الاتصالات الحديثة مكنتهم من رؤية عائلاتهم ومعرفة ما آلت إليه أوضاع البلاد.

- هذا يعني أنتم سعداء؟

- نحن نعيش يا سيدي، وهذا يكفي.

تركهم وعاد للمبيت، فوجد ماكسيم متيقظًا، وأخبره بما حدث وبما صدر من المصريين، فلم يبال، بل تحدث معه بشأن الاهتمام بوظيفته التي ستجيء قريبا وألا ينسى ما اتفقا عليه.

(٤٥)

ورغم أن زنجو لم يهتم بفندق إكنار من حيث معايير الجودة، إلا أنه مكتظ على الدوام ومصدر ربح عالٍ، فالبناء نصف دائرة بيضاء تحوي ألف غرفة، وفيه حمام سباحة، ومطعم يقدم كل الوجبات العالمية، ووسائل اتصال بكل أنواعها، وجواره مظلة عريضة للأتوبيسات والسيارات، وبعد فترة من بنائه حاول بعض رجال الأعمال خوض تجربة زنجو لكنه كان يتصدى لهم في الوقت الذي يبدو أمامهم صديقًا مخلصا، ثم انتقى منهم شابا في الخامسة والثلاثين واسمه (طاهر الحاوي)، كان له طموحٌ مادي كبيرا في إكنار، فاستدرجه لوجبة غداء فخمة وشرع يحادثه عن استغلال هذه المنطقة في استثمار أمواله، ونشأت بينها ثقة، ومن خلالها تجرأ في سؤاله عن التجارة في السلاح، وكان طاهر الحاوي واضحًا بدرجة كبيرة، فَكَي يكون تاجر السلاح ذا هيبة؛ لا بد وأن تكون صحيفة أحواله خالية من أي شبهة، وهذا ما ضايق زنجو كثيرا، فهو معروف بتجارة الحشيش كما أن له سابقة قديمة، ومع ذلك لم ييأس مع طاهر الحاوي، فصاحبه بشكل دائم وعرض عليه الإقامة في الفندق، ومساعدته لو أراد استغلال إكنار، وفي إحدى السهرات تحدث معه عن شراء أسلحة لحماية فنادقه، فأيقن طاهر أنه يريد التجارة في السلاح بشكل غير قانوني، ويبتلع جرعة الخمر ثم يشعل سيجارة ويرمي كلماته في لؤم:

- أستطيع توفير ما تشاء من السلاح.

ويتجرأ زنجو أكثر ويطلب منه شراء السلاح من مصدرِه، وأخبره أنه سيسافر قريبا إلى فرنسا، وسيتوسط له عند واحد من أهل الثقة في بيع الأسلحة وهو فرنسي أسود في الستين من العمر واسمه يقين، فابتهج زنجو وأمر بمزيد من الخمر والمقبلات، وفي خلال مهلة الانتظار أرسل عددا من الرجال يتحرون عن طاهر الحاوي، ويجلبون كل تفاصيل أعماله وأسفاره وصفقاته، فكانت التحريات تثبت

أنه يتاجر في الأسلحة طبقا للقانون المصري، ومع ذلك كان باللؤم الذي جعله يأمر بعض رجاله بقتل أولاده إذا سافر معه وتعرض لأذى، وما عليهم أن ينتظروا منه اتصالا فينفذون المتفق عليه، وأعطاهم شيكات لا تصرف إلا بعد اتصاله بالبنك، وكان أكثر دهاءً، فأمرهم أنه في حالة تأخره عن الموعد المحدد يتم القتل فورا، وبعد فترة من هذه السهرة اتصل به طاهر الحاوي من باريس، وطلب منه الاستعداد للسفر، وتجهيز مبلغ كبير لعقد أولى صفقاته، ووقف في منتصف الفندق يصيح كأنه انتصر على الموت، ولم ينم ليلته، بل أخذ يفكر في مانو وكيف سيرد له الصفعة، في الوقت نفسه كان مانو يفكر في سر انقلاب زنجو عليه بهذه الطريقة، وقصة أنه مسلم إرهابي فهو من اخترعها كي يضمن نسفه من الوجود في الوقت اللازم، ولا بد أن هناك سرا في هذا الانقلاب الذي كبده خسائر كبيرة، ولما أطاح الغل والخمر بعقل زنجو قرر اصطحاب حرسه والذهاب لشارع النطرون، وجلب مانو وإذلاله علانية، وفي منتصف الليل وقفت السيارات أمام بيت مانو، ويعلو صوت زنجو وهو يأمر حراسه بجره في عرض الشارع، وتصرخ زوجته وهي تراه ذليلا يتوسل الرحمة، وفي مكتبه بالملهى كشف له عن سر انقلابه.

- لست أنا من يُسرق يا مانو.

- لم أسرق منك شيئًا يا زنجو بيه، خبرني ماذا جرى؟

ويشرع في الحديث عن اختفاء جون ماكسيم صاحب مصانع الأسلحة:

- ألهذه الدرجة حسبتني عبيطا؟

- قل لي يا زنجو بيه متى اختفى ماكسيم هذا؟

وحين علم وقت اختفائه قفزت في ذهنه صورة (سليمان) عبد المنتقم، ورجع بالذاكرة لليوم الذي انقلب فيه زنجو عليه، فهو اليوم الوحيد الذي رأى فيه (سليمان) نائما في المعبد، ثم اختفى بعدها ولم يظهر إلى الآن، صرخ:

- عرفته.

- من؟

- الشاب الذي سرق ماكسيم.

- من؟

- (سليمان) عبد المنتقم.

وإذ يسمع زنجو الاسم واللقب، عاد ذاكرته تلقائيًّا لنور عبد المنتقم التي كلما أرسل في طلبها امتنعت عن المجيء ثم عرف أنها اختفت.

- وهل (سليمان) هذا على صلة قرابة من فتاة اسمها نور؟

- أخته.

(٤٦)

شجرة التليدي.

كان (سليمان) يستند بظهره على جذعها، وجواره كلوديا ترتدي قبعة بيضاء وتجلس على مقعد قماشي وأمامها منضدة صغيرة، وتقطع ثمار المانجو لشرائح وتضع عليها مكعبات الثلج، وكان يقين أمامه بانتظار الأمر.

- يقين: ركز جيدًا، عند وصولك لباريس تفعل الآتي، أولا تذهب للخارجية الفرنسية وتستعلم عن قبولي بوظيفة، ثم تتمم الصفقة، قل ثانيا ما اسم التاجر الجديد؟

- جارم زيدان.

وتلحظ كلوديا القلق يعلو وجه (سليمان)، وكلما سألته أجابها بلا شيء، ثم أخرج مسدسه وأكمل التدريب على استخدامه، ومع تصوره أن خطرا يحدث في المندرة، يستمر في إطلاق الرصاص مصوبا كل طلقاته نحو الحيوانات في الدغل القريب من المصنعين، وتخشى الاقتراب منه، فتلك أول مرة تراه متوترا لهذا الحد، وأسرعت لماكسيم فوجدته غارقا في تسجيل ذكرياته، ولما صرخت: اعتذر وخبرها أن (سليمان) مضطرب هذه الفترة.

- لم؟

وأقنعها أنه قلق بشأن وظيفته، فهو يخشى ألا يحصل عليها، فخلعت القبعة ورفعت حاجبيها تتفكر، وفي سرية أجرت اتصالات بكثير من معارفها وكان منهم نبيل بوقدير، وكان مطلبها التدخل في تعيين (سليمان) بالخارجية، وخبرته أن وكيل أعماله في الطريق لباريس لمعرفة قبوله من عدمه، وفي اليوم التالي أجرت اتصالا أخيرا بنبيل بوقدير فأخبرها أن المسألة صعبة، وعليه أن ينضم لحزب سياسي أولا، فحدثت (سليمان) عن ذلك وأن بإمكانها التوسط له ليصبح عضوا في حزب سياسي، ثم يلتحق بجامعة أخرى ويحصل على شهادة أعلى، وبعدها قد يتمكن من

تسلم وظيفة في الخارجية الفرنسية، وكانت صدمة لها حين هز رأسه واكتفى ببسمة واهنة، وكلما شكت لماكسيم بادلها كلمات مواساة، لكن صبرها نفذ وقررت العودة لباريس ولو بمفردها، وصرخت فيهما أنها لا تطيق الحياة السيئة في إفريقيا الوسطى، وأنها لم تتزوج لتتعذب، وفي الليل وبينما تعد حقائبها اعتذرت لـ(سليمان) وطلبت منه التمشية معها قبل السفر، وبينما يتمشيان ويحرسهما أحد عمال المصنعين، شرعت تغريه بكونها ستنقل نصف ثروتها باسمه، لكن عليه أن يتكلم ويبوح بما يحزنه، فتنفس بعمق وهمس:

- لا أريد المال يا حبيبتي.

- ماذا تريد؟

- أريد أن أجعلك أسعد امرأة في العالم.

- تعال معي إذن، معنا كل شيء.

- ينقص شيءٌ وحيد.

- ماذا؟

- الماسونية.

- هل تريد أن تكون ماسونيا؟

- نعم.

- المسألة سهلة للغاية.

- هناك شرط لا ينطبق عليّ.

- ما هو؟

- تاريخي غير معروف.

- المسألة تحتاج لطريق من اثنين، إما أن تكون شخصية ذات أخلاق رفيعة مؤثرة وذلك أفضل طريق وأسهل، وإما نستخدم المال...

- ومن أين لي بالمال؟

- وأزيد لك الأمر صعوبة، شراء التاريخ يحتاج مبالغ هائلة.

وتركها وعاد للمبيت، ويحس به ماكسيم وهو عالم بسر قلقه على أناسه في المندرة.

- بيننا اتفاق يا (سليمان) لا تقلق بهذه الطريقة المخيفة، اعتدت عليك صامدا يا صاحبي.

- أشعر بقبضة مقلقة، لا بد أن أعود مصر فورا.

وتضايق ماكسيم من تسرعه وكاد أن يحطم الكاسيت وصرخ يتهمه بالجنون وحذره:

- أكيد اكتشف أمرك في المندرة، فلا بد أن زنجو عرف أنك من هربتني، وسيدمرك بسهولة، وحتى إن كان بإمكاني فعل شيء لحمايتك و أنت في مصر، من يدري هل سيسعفنا الوقت؟ من فضلك لا تتسرع.

و اقترح عليه العودة لباريس والاستجمام بعض الوقت، فهو بحاجة للتدبر اللائم، ولا يتعجل بشأن الماسونية فالأمر خطير وقد يؤدي لنتائج سيئة.

- القلق يقتلني يا جون.

- عندي فكرة مناسبة.

وشرع يحدثه عن إرسال وفد سياحي للمندرة، ويتم تنقية هذا الوفد من مشردي فرنسا ومتسكعيها، ويُبعثون عن طريق شركة سياحية مصرية، وحين يصلون المندرة ينفذون ما يطلب منهم.

- أنت رائع يا ماكسيم لكن متى؟

- لا بد من العودة لباريس، وكنت أود أن إقول أن مصنع الأسلحة إذا بيع، بثمنه تنال الماسونية، لكني أرفض ذلك، ليس لأني لا أريدك أن تحقق حلمك، لكن ماسوني بدون تاريخ وشهرة وقوة ومال غزير، تكون قاب قوسين أو أدنى من الانحراف الإنساني.

- حقا أنت رائع يا ماكسيم، ومن هناك أيضا هل أتصل بنفسي وأطمئن؟

- ممنوع عليك أي اتصال حتى تصبح (سليمان) الماسوني السياسي الكبير، أنا فقط من يغامر أما أنت فلا.

وفي نفس الطائرة التي ركبها يقين كان الثلاثة معه، وفي القصر طلب ماكسيم منه توفير مجموعة من الفرنسيين الفقراء، لأنهم سيسافرون في مهمة ممتعة بمصر، فسوف يتنزهون فيها ويعرفون بعض التفاصيل البسيطة عن أشخاص بعينهم في مدينة اسمها المندرة، وحين يعودون سينالون أجرا كبيرا، ومن خلال أحد أصدقائه الموثقين استطاع يقين أن يجيء بوفد من شباب وشابات فقراء وعاطلين عن العمل، وبعضهم من أصل مغاربي، فأخذهم لمطعم فخم وكانوا سعداء حين علموا أن المبالغ التي سيتقاضونها كبيرة في مقابل زيارة مصر، وكان يقين حذرا فلم يطلب منهم جميعًا الاطلاع على ما يحدث في حارة جلال الدين، إنما اختار شابة منهم في الخامسة والعشرين واسمها (مارجريت)، وتحدث معها بوضوح تام بشأن معرفة ما يحدث في المندرة وبصفة خاصة حارة جلال الدين حيث امرأة اسمها بديعة رستم، وأعطاها أوصافها، وفي هذر سألته:

- هل تستخدمني لأكون جاسوسة؟

- إطلاقا، وصاني صديق مصري على أمه المسكينة و أنا لا أريد غير معرفة تفاصيل عادية.

- مثل ماذا؟

- هل ما تزال تعيش؟ وهل أصابها مكروه؟ مثل تلك المعلومات.

- ولماذا لا يقوم صديقك بهذا؟

- صديقي مريض ومحجوز في المستشفى منذ سنة ولن يخرج منها حاليا.

- ولماذا لا تقوم أنت بذلك؟

- أنا مشغول جدا هذه الفترة.

- لا بد أن سرا خطيرا في المسألة.

- في الحقيقة أنت على صواب، أنا أجري بحوثًا نفسية على شرائح بشرية، ووددت لو حصلت على نتائج لتحليل نفسي عن البشرية الفقيرة.

- هذا هراء وعبث وجنون.

- يا مودمازيل دعينا نعيش الجنون سويًّا؛ ثم إنك لا تفهمين، فمنذ زمن و أنا عاكف على دراساتي، وأستخدم شرائح بشرٍ متنوعي السلوك ومتبايني المستوى المادي، وفي هذه المرة سوف أستخدم شريحة فقيرة من البشر وأسجل ردود أفعالهم حين تنتقل حياتهم من الفقر المدقع للنعيم الغير مبرر، فربما جاءت ردود أفعال انتقامية.

- يا مسيو يقين أنا مو افقة في كل الحالات، تجري بحثًا، أكون جاسوسة؟ المهم أن أزور مصر.

أخرج لها مبلغا كبيرا وهو يقرر بوجهٍ تجاري:

- مارجريت؛ السرية مطلوبة، ربما كان لك معي زمن قادم مليء بالخير.

- و أنا أهيم بالخير والجنون مسيو يقين.

- و أنا من يفعل.

وكان أكثر حرصًا وشجاعة وهو يجتمع بهم جميعا ويحدثهم عن تسجيل ردود أفعالهم في مذكرات خاصة وتسليمها له، وهم أيضا كانوا بالمغامرة التي جعلتهم يخفون ريبتهم فيه وهزوا رأسهم وهتفوا بالمو افقة، وفي الوقت نفسه كان طاهر الحاوي يبلغ زنجو أن عليه الوصول لباريس خلال ساعات، ولما حاول تأجيل السفر حذره طاهر:

- أنت تاجر غير معروف و أنا توسطت لك وإن لم تحضر ستلغى الصفقة، فتجارة السلاح أهم بنودها المواعيد الصارمة.

وقبل سفره اجتمع بمانو، وكانا يفكران معا في كيفية الوصول لـ(سليمان) و(ماكسيم)، ويقول مانو:

- أعرف كيف أعثر على (سليمان).

(٤٧)

قنديل بن نصر الله.

ورث عن أبيه طيبة قلبه، وميله للانعزال، وخوفه من الحياة، ويبدو ذلك جليًّا حين يتعرض لضغوط نفسية، أو ضائقةٍ حياتية مؤقتة، أو عثرة عابرة مع أقرانه، فسرعان ما يتمزق نفسيا، ويتسلل الكدر لصدره، وتخنقه الحيرة ويبدو مترددًا لأقصى درجة، ولأن جدته بديعة تدرك ذلك، كانت حريصة على جلب المناخ الآمن كي يستمتع بحياته، فحين ولد لاحظت أن عينيه تهتزان في بؤبؤيهما وينبثق عنهما خوف عميق، فانتظرت شهورًا على أمل أن تستقر حدقتاه فتطمئن أنه لم يرث عن أبيه الخوف من الحياة، لكنه ظل كما هو فقررت حمايته، فعلى الدوام كانت تصاحبه، ولما صار مراهقًا تركته كي يصطدم بالحياة فيصير رجلا، وكانت تسعد حين تراه يساعد أباه في العمل ويفكر في تطوير الدكان، وكان مثل أبيه عاشقًا للطعام لكن أمه لم تكن طباخة ماهرة، فكان يستمتع بطعام جدته ويقبّل يدها ويقر أنها امرأة لا مثيل لها، واعتبرها سدًّا منيعا ضد مُكدرات الحياة، وحين رآها تُجَرُّ على الأرض وتضرب وتهان عكف على الصمت، وعزف عن تناول الطعام معها حتى لا ترى الحزن في وجهه، فأدركت أنه تعرض لهزة نفسية كبيرة، وتتعقد الأمور أكثر فقد امتنع أبوه عن الذهاب لدكانه خوفًا من إيذاء فهيم وولده، وتمر على البيت أيام بالغة الحزن، ومع ذلك لم تنقطع عن زيارة بيتها القديم والإبقاء على حياة بدير العدوي، وتنظر لدكان ولدها المغلق وتحبس دموعها بصعوبة، وفي الليل تشعر بأنفاس حفيدها و أناته المكبوتة فتلجأ للتدخين بشراهة، وتنظر للهاتف على أمل أن يأتي الفرج من خلاله، فربما اتصل (سليمان) و أبلغها بما يشرح صدرها، لكن الأيام تمر وتشعر المرأة التي تخطت السبعين سنة بشخصها العنيد يتلاشى وأن حنكتها وقدرتها على المقاومة ضعفت، وتتصور تشرُّد ولدها الطيب وحفيدها وهي على قيد الحياة، وحين تذكرت بناتها اللائي يستغللن طيبة ولدها ويأخذن منه

المال انفجرت باكية، وتفتش عن جرم ارتكبته حتى تنال هكذا عقابًا، فلم تجد غير تاريخ من العطاء والحفاظ على الشرف، فتكثر من التدخين، ومع اقتراب الفجر وبينما تسحق سيجارتها في المطفأة وتقاوم ألم رئتيها، سمعت وقع أقدام خفيض، وأعقبه صرير باب البيت، فعلِمت أنها كاميليا، ورغم ضعف قدميها خرجت وراءها، ومثل اللصة الهاربة كانت كاميليا تحمل حقيبة معبأة بملابس وتهرول في خفة نحو موقف السيارات، ولم تبال بنداءات حماتها الضعيفة، وكان قرارها الهرب حيث لا يعرفها أحد، فلمحها موسى السهران أمام بيته، فجعل يفتش في جيوبه عن عقب سيجارة، ثم لمح بديعة تسرع وراءها و أنفاسها تحشرج وعيناها تلمع من الحزن، فصحب كلبه وتتبعهما، وفي موقف السيارات قعدت كاميليا تبكي، فالهدف الذي تريده لا تعرفه، وقعدت بديعة جوارها:

- لم يا كاميليا؟

- أنا وباء علي حياتك وحياة زوجي و ابني، لا بد أن تتخلصوا مني.

وقبل أن تبادلها بديعة الحديث، كان موسى وكلبه أمامهما وقال لاهثا.

- اعطني سيجارة يا خالتي بديعة.

- أر أيت يا موسى ما أنا فيه؟

- هاتي السيجارة أولا.

أشعل السيجارة يتلذذ، ثم تربع أمامهما على الإسفلت، وكان بالذكاء الذي منعه من كشف ما يعرفه عن ديانة كاميليا، وعن علاقة مانو بزنجو، وعن الذلّ التي تعانيه المر أتان لخوفهما من هذين الرجلين، فألقى في وجهيهما نظرة عميقة ثم تكلم:

- أرأيتما عائلتي الحية الميتة؟ أرأيتما هكذا عذابًا؟، إن أخو اتي البنات عشن سني مرض ووحدة وجوع وألم، والمرض في ذاته لا يزيد عن خصائصه المرضية وتبعاته المهينة، وهو مخلوق مأمور بهذا، ما رأيتُهن قط حزينات لهذا، لكني أبكي عليهن لغير ذلك، لشعورهن بالعار، وليس العار الأخلاقي، إنما لسوءة المرض، أرأيتما هكذا ذلا؟، ما دخلتُ عليهن قط إلا ور أيت في وجوههن نسمة أمل، مرة وحيدة طلبت مني

أختي أن أقتلها حتى تلقى ربها وترتاح، لكني لست بقاتل، وإن فعلت أأقتل أختي؟ أعشتما هكذا وقتا؟، نظرتُ لأختي وكتمتُ دموعي وتبسمت في عينيها المنطفئة وخبرتها أن الحياة قادمة، وكنت حين أقعد معهن أستجدي منهن الكلمات، وكن صابرات لم يعترضن، ولم يسألن عمن فعل بهن هذا، أرأيتم هكذا إيمانًا؟، كنت أسمع خوار معداتهن في الوقت الذي تتبسم وجوههن، ور أيتهن يشاركن الكلب في طعامه الذي جمعته من القمامة، ولما نهرتهن قالت أصغرهن: "لا تخف يا موسى إنا لن نعدي الكلب" أرأيتما هكذا إنسانية؟، لم يتعذب أحد مثلي في العالم دون ذنب! أرأيتما هكذا صبرا؟، ما حياتي إلا دقيقة عشتها و انتهت، أنا مت يوم قلت الحقيقة، ولا أندم ولن أندم، أرأيتما هكذا شجاعة؟، وصفني الناس بالمختل والمعتوه والمعاق ذهنيا والمجذوب وصدّق الحكام على عقائد الناس وحبسوني وعذبوني وقَتَل المرض والهوان أمي، أرأيتما هكذا جحيما؟، ولكن ما جدوى الحياة إن تشبثت بها؟ لا شيء فيها، كل الحياة فارغة، فلا تصدقا الخدعة وتهينا نفسيكما، ثقا أن هناك نهاية، فكل شيء يهون حتى خداع البشر.

ولما رفع بصره كانت السماء تبدل ظلامها بزرقة يوم جديد، توقف عن الكلام ودار حول نفسه وطلب من الكلب أن يقدم عرضًا ضاحكا ولما فعل تبسمت بديعة، ولفت ذراعها حول عنق كاميليا، ولما قامتا، زعق فيهما وطلب منهما طعامًا ساخنا، وأشار نحو عربة الفول، وقفوا يتناولون الإفطار، وبينما يقرمشُ شرائح البصل، كان يقدم الخبز للكلب ويتحسس رأسه، وتتعجب كاميليا من طيبة قلبه، فينظر لها في عنجهية، ويطلب المزيد حتى أجبرها على الضحك بصوت عالٍ، ولما قررتا العودة صرخ فيهما وطلب منهما إعداد غداءٍ طيبٍ لأخواته و أبيه، فضحكت بديعة حتى أشرق وجهها، و أكد أنهما سيحمي بيتهم من فهيم وولده، وودت بديعة أن تخبره بما يؤرقها، لكنها فوجئت به يخبرها أنه سيهتم بنصر الله وولده قنديل، وسيعطيهما محاضرات في إزاحة الخوف من البشر، وعاد معهما حتى ناصية الحارة، وقعد مع

كلبه يحرسان البيت القديم، وحين جاءتا عصرًا، أدخلتاه بحجة إعطائه طعام الغداء لأخواته، ولما رأى (بدير)، قال:

- ما هذا؟ أهذا بدير العدوي؟ أم أنني مختل فعلا؟

خبرته أن (سليمان) هو من أمر بالتحفظ عليه لحين عودته، طلب منها أن يقوم هو بتقديم الأعلاف للطيور وحراسة بدير، وليقل الناس ما يقولون، فليس ثمة ما يقلق، وكان مانو بالمرصاد لبديعة، فحاول مرة أخرى مع فهيم وولده كي يتعرضا لها فتخضع له، لكنهما رفضا، وكانا يخشيان الكلب، ويفاجأ بها قادمة لدكانه بصحبة موسى، ويتجرأ ويسألها عن (سليمان)، فتصعقه بقولها:

- مات.

وفي الوقت الذي حط فيه زنجو بمطار باريس، كان الوفد الفرنسي الذي بعثه يقين في مطار القاهرة.

(٤٨)

الوفد الفرنسي.

خمسة عشر في عمر الشباب، أربعة ذكور وإحدى عشرة أنثى، استقرت الطائرة التي أقلتهم من باريس في مطار القاهرة مع شروق الشمس، ولأن حس المغامرة كان صاحبهم؛ استعدوا لاستقبال السعادة، وعلى سلم الطائرة؛ مسح نور الشمس وجوههم كالذي يسلم عليهم ويرحب، فانشرحت قلوبهم تفتش عن السعادة وهم يتبسمون، وكان يقين أمدهم بهاتف جوال حديث، وحجز لهم خمس عشرة غرفة في فندقي شيراتون القاهرة والمندرة، ومن قبل؛ طلب من شركة السياحة التي أرسلتهم أن تعين لهم مرشدًا، يستقبلهم ويصحبهم لعشرة أيام، علت الدهشة وجوههم وهم يُعامَلون في المطار باحترام غير مسبوق، وبينما يتناولون إفطارهم في الأتوبيس الفاخر، كانوا يبحثون عن نهر النيل حتى رأوا صفحته الواسعة، وعلى ضفتيه يتمشى الناس، لكنهم لاحظوا أن الناس مشغولون عنه، وفي الهاتف كانت مارجريت تطمئن يقين بوصولهم، فخبرها أن يستمتعوا بوقتهم، ولهم سبعة أيام في القاهرة وثلاثة في المندرة، كان برنامجهم القاهري يتوزع في زيارة الأهرام والمتاحف وقلعة صلاح الدين وخان الخليلي والحسين والبرج وسهرات فندقية، وفي هضبة الهرم ركبوا الخيل والتقطوا الصور وتمتعوا بهواء جاف لم يتنفسوه قط، وفي الحسين أكلوا الكباب ودخنوا الشيشة، لم تمر دقيقة دون ضحكات كأنهم في أرض الحب، يهرولون وراء بعض ويلعبون مع الأطفال، ويتعجبون أن أناسا يصرون على التقاط صور معهم، لم يشعروا بالوقت ينتهي، وكانوا في حزن وهم يتركون القاهرة ويتوجهون للمندرة، لكنهم أحسوا أنهم انتقلوا لجنةٍ غنّاء، على جانبي الطريق حقول لا حد لأفقها الأخضر، وسحب زرقاء وترعة واسعة تحاذي طول الطريق.

- هل هذا هو الريف المصري؟

- نعم.

- هذا أجمل ما رأينا.

وصلوا المندرة في الواحدة ظهرا، وحزنوا لما رأوا عربة الفول ترحل، فلم يأكلوا منه حتى الآن، طمأنهم المرشد أن ذلك سيكون في صباح الغد، وفي الفندق استقبلهم السكرتير، وكانوا مستاءين من عنجهية المرشد وهو يحدثه.

- لماذا تتعامل مع المصريين بهذا الغرور؟ أنت مصري مثلهم.

- هكذا أنا، وهكذا هم.

ناموا في غرفهم حتى المساء، وفي الملهى قضوا سهرةً راقصة، ومع شقشقة الصباح خرجوا مسرعين نحو عربة الفول. فلاحظوا كلبا يلهو مع صاحبه الفقير الأشعث، أما الكلب فهو برنس، وأما صاحبه فهو موسى، ومع تناثر ضحكاتهم وكلمات عن إعجابهم بالفول، لاحظوا أن الكلب وصاحبه ينظران للطعام ويتمنونه، فقدمت لهما مارجريت طبق فول ومخلل ورغيفين، وتأخذهم الشفقة والعجب وهم يرون موسى يأكل الفول والمخلل بلذة عميقة ويترك الرغيفين للكلب، ثم مسح فمه في قناعةٍ ورضًا، وذهب لمارجريت وشكرها بإيماءة، وسمعها تتحدث بالفرنسية عن طيبة قلبه، فرد عليها بلُغتها:

- أشكرك يا مودمازيل.

كم كانت سعادتها به، وطلبت منه أن يحدثها عن المندرة، فجعل يتكلم عن تاريخ مصر والمندرة، أشار بعيدا نحو المسلة المكسورة القريبة من حارة جلال الدين، تجمعوا حوله في دائرة يسمعون ويستمتعون، وحين انتهى قدموا له دولارا فلم يقبله وانصرف، تأملوه وهو يتلاشى في الأفق والكلب يتقافز جواره، فودّوا لو بقي معهم بدلا من المرشد المتعجرف، وفي غرفتها استخرجت مارجريت مذكرتها واطلعت على المكان المطلوب زيارته، ولما تذكرت قول موسى عن حارة جلال الدين والمسلة المكسورة ابتسمت وأيقنت أن الأمر بسيط، فالناس هنا لن يعبؤوا بما سيفعلون، لكنها قررت التزام الحذر حتى لا يشتبه فيها المرشد، وكلما تذكرت أموال

يقين، أصرت على إتمام مهمتها، واصطحبهم المرشد في جولة بحدائق المندرة النادرة، وبينما يحدثهم عن زيارة ضريح مسعود الحبشي قالت مارجريت:

- و أين الآثار الفرعونية؟

- مهملة ولا قيمة لها ولا جمال فيها.

- هذا بالنسبة إليك أما أنا فأحب مصر الفرعونية.

- لن تكوني سعيدة و أنت ترين الأطفال يبولون على هذه الآثار.

وفي اليوم الأخير لهم، ومع اقتراب الساعة من العاشرة صباحًا كانوا يتجولون في المندرة، وتتعمد مارجريت تركهم والتوغل في الحواري ويجتمع الناس حولها ويلتقطون الصور، وتفتش بعينها فيهم عن موسى الرومي ولا تجده، ويمر الوقت وبدا التوتر عليها فيقين في انتظار مكالمتها، وبدأت الشمس تغير لونها و انطلق النهار ينسحب، وتحدث المرشد عن العودة، وتستولي عليها الحيرة، وفي إصرار من المرشد علي العودة ابتسمت وهمست في أذنه:

- أين الأطفال الذين يبولون على الآثار؟ لم أرَ شيئًا من هذا.

- لا يهم.

- ستكون ذكرى خالدة، أرجوك.

وطبعت قبلة على خده، فاصطنع التفكر، وتظاهرت بأنها تطّلع على خريطة المندرة الأثرية وقالت:

- حارة جلال الدين.

وهنا ظهر جهل المرشد، وتحدث عن عدم وجود حارة بهذا الاسم، وترتفع أصوات الجميع يحدثونه عن وجودها، ولما كانوا في شارع النطرون، اضطر المرشد لسؤال الناس، ولأن كلماته مغلفة بالعنجهية كان الناس يشيحون له، وبينما يتوغلون في شارع النطرون لمحوا موسى مكوّمًا بجانب صندوق الزبالة وكلبه نائم جواره، فسعت إليه مارجريت وسألته عن الحارة فوقف في أدب وقرر اصطحابها، ولما رآه المرشد استاء بشدة واحتج على التفافهم حوله في فرح غامر، وزعق فيهم بالعودة

وإلا سيتركهم، وكان سبب غضبه الشديد ليس لوجود موسى إنما لأنهم لم يعطوه إكرامية حتى الآن، وبينما يتحدثون مع موسى علا صراخه فردت عليه مارجريت:

- عد أنت، معنا مرشدٌ عالمي.

وصحبهم موسى، وكان يرطن بالفرنسية وكل المارين في الشارع يفتخرون بقدرته على شرح التاريخ، وخرج التجار من دكاكينهم وطل الأطباء من عياداتهم، واكتظت الشرفات والنوافذ بالوجوه، والتف الأطفال والشباب والعجائز حولهم، ويقول طفل:

- أنا فخور بك يا موسى.

فحمله وقبّله في جبينه، ثم بدورها قبلته مارجريت، ومع تقافز الكلب صفق الناس لموسى، وفي نور الشمس الذهبي تحول شارع النطرون لعاصفة من الهتاف باسم موسى الرومي، وتنساب الدموع من عينيه وهو يرى وجوه أخواته البنات تطل من النافذة فرحانة، وتلك هي أسعد الدقائق التي عاشها على الإطلاق، ولما بكى بشدة؛ مد جميع الناس أيديهم نحوه يلمسون منه العفو وكأنهم يقولون: "آسفون يا موسى، كنا نعلم أنك صادق"، وتدب سعادة باكية في عيني مارجريت، فتصفق غير عارفة بتاريخه، لكنها أدركت أن هذا الرجل يحمل في رأسه علومًا لا حد لها، وبين ضلوعه قلب رحيم، فوقفوا عند ناصية الحارة وأخرجوا هواتفهم يلتقطون معه صورا ثنائية وجماعية، وجاءت بديعة لما سمعت هتاف الناس، فعرفتها مارجريت من أوصافها، فهمست في أذن موسى،: "هل تعرف هذه المرأة"، فهز رأسه إيجابا فحدثته عن وجهها الجميل كأنها مصر، فذكر بعض من تاريخ بديعة فقاطعته:

- ما اسمها؟

- بديعة رستم.

- كيف حالها وكيف تعيش؟

- بخير.

لكن مانو أفسد الحديث، فحين رأته بديعة يرقبها، قعدت على مصطبة بيتها القديم تتحداه، وأعماه الغضب ووقف قبالتها، يستفزها بالإشارة وكلمات مسيئة، فاربد وجهها وذهب فكرها لكونه يعرف بأمر بدير العدوي، فترك موسى الوفد الفرنسي واشتبك مع مانو حتى رحل، ومع المغيب عادوا للفندق، وفي دقائق كان الخبر يُصَب في أذن يقين، ومنه لـ(سليمان)، فطلب أوصاف الرجل الذي كان يكيل لبديعة ويضرب موسى، فعرف أنه مانو.

(٤٩)

فندق أوسكار شانزليزيه.

كان زنجو يظن أنه على موعد مع المجون والفسق في باريس، وكان موقنا أن الصخب في فنادقها وملاهيها يفوق الخيال، لكنه اصطدم بغير ما توقع، وفي حجرته بالفندق؛ كان طاهر الحاوي يؤكد عليه بوجود المال في بنك كريدي أجريكول، حيث يوجد حساب باسم مُصدّر السلاح، حتى إذا طلبه يتصل بالبنك ويحول المال فورا، وشدد عليه أن هذه العملية تتم بكلمة واحدة، ولا يتكلم إلا إن أذن له، ويطمئنه زنجو أنه وضع في فرع البنك بمصر مبلغ ثلاثة ملايين دولار كثمن لأولى صفقاته، وما ينقص تحويله بعد الاتفاق، وفي اليوم التالي لوصولهما وفي الحادية عشرة صباحًا، ترك الاثنان غرفتيهما وتوجها لمطعم الفندق، وكان لون الإضاءة العسلي يفرش الجدران، وتتناغم خلاله أسهم بيضاء ترسو دوائرها الهادئة على الأرضية، والسقف لوحة كبيرة تعكس الصراعات الثورية في التاريخ الفرنسي الحديث، وأما جدران البار فكانت لوحة لنسوة عاريات يحتضن بعضهن في رعب وأجسادهن مملوءة برتوش خضراء، وخلفهن يد معدنية ذات أظفار دموية، ووقف زنجو يتعجب من الهدوء، فلا طبول تدق ولا رقص ولا عري، وتنساب نغمات البيانو الرائقة، تطيب المسامع وتغسل الهموم، وغالب المتواجدين مشرقو الوجوه وبسطاء الملبس، أما طاقم العمل فرداؤهم وحيد، سترة بيضاء وبنطلون وحذاء أسودان، وجوههم بسّامة وعيونهم لماحة، وحركاتهم مدروسة، يجوبون قاعات الملهى كما النمل المنتظم، وتكفيهم إيماءة من الملتفين حول المناضد المدورة السماوية، وكان زنجو يعتقد أن مُصدّر السلاح سيكون في حراسة مشددة، وحوله نسوة عرايا، لكن (يقين) كان يجلس وحده بالقرب من طاولة البار، ويترقب دخول طاهر الحاوي والتاجر الجديد، وحين جلس زنجو أمامه أخفى رهبته وهو يراه

زنجيا، من شدة سواده بدا أزرق مكتومًا، ورأسه المربع أشمط وخشن الشعر، ووجهه عظمي صلب، وفتحتا أنفه تمددتا بعرض وجهه حتى كادتا يلمسان أذنيه الدقيقتين، وشفتاه ضخمتان، وأسنانه صفراء مفلّجة، وذقنه دائرية جافة، عريض الكتفين ولطيف العنق، ونحيف البطن وفارع الرجلين، يرتدي جلبابًا حريريًا فضفاضًا أبيض، وحذاءً قماشيًّا أزرق، وبعينيه الواسعتين صوب نظرة في وجه زنجو، ثم تكلم بالفرنسية وبصوت رفيع متناقض مع هيئته الوجيهة، فكان سؤاله عن جدية وجود المبلغ في بنك كريدي أجريكول، ويترجم طاهر ما قاله فيومئ الآخر إيجابًا، فاستخرج يقين ورقة صغيرة وفيها رقم حساب، وبلهجة آمرة طلب منه أن يتصل بالبنك ويحول المال.

- ما هذا؟

أجابه طاهر الحاوي أن يتصل بالبنك ويحول المبلغ على الرقم، وتنجرف كلمات من زنجو تنم عن اعتراضه.

- ألم أقل لك أن صفقات السلاح لا نقاش فيها؟

فيقوم مضطرًا، وينأى في زاوية القاعة ومن هاتفه يجري اتصالا بالبنك، وفي صمت تام كان يقين وطاهر الحاوي يريان عليه توترًا ولعثمة، وطلب منه البنك الحضور بنفسه، فذهب ثلاثتهم للبنك وتم تحويل المبلغ، وأمام البنك طمأنهما يقين أن الصفقة تمت، وما ينقص توقيع العقود ثم انصرف، وربّت طاهر على كتف زنجو وطمأنه، فحين يعودان مصر كل ما عليهم الانتظار حتى قدوم الأسلحة للميناء وسيعرف من رجاله أنها وصلت بأمان وأما العقود فهي الإثبات على أنهم بَراء من شبهة قانونية.

- لو كانت مؤامرة يا حاوي ستموتون جميعا فقد أمنت نفسي جيدا.

أجرى اتصالا برجاله وأخبرهم أن يستعدوا لما كلفهم لأنه يشك في مؤامرة، وهو لا يعلم أنه انتهى للأبد، فلما كان (سليمان) عبد المنتقم يجلس في قاعة الفندق لمراقبة إتمام الصفقة رآه وعرفه، وبعد انصراف يقين انصرف بدوره، وفي القصر

تندمج ضحكات ماكسيم بصرخاته بترانيم صلواته، فمن هول المفاجأة لم يصدق ما يسمعه من (سليمان)، وزيادة في التأكد أمر (يقين) بالحضور في نفس الليلة وطلب منه إجراء مكالمة مع طاهر الحاوي، ومعرفة كل التفاصيل عن التاجر الجديد، وغير مصدق لما يسمع فقد عرف الاسم الحقيقي لزنجو وهو (جارم زيدان) تاجر الحشيش المعروف في الباطنية، ومالك ملهى وفندق المندرة ومنشآت إكنار، ويترنم ماكسيم بصلاة شكر لربه، فقد حصحص الحق، لكنه سمع (طاهر) يتحدث مع يقين في شأن زنجو، فهو لن يتوانى في إيذاء عائلته لو شعر بتلاعب، فخبره يقين أنه ما من تلاعب، وأن كل شيء يسير حسب الصفقة المعقودة، وحين عرف (سليمان) بخوف طاهر على عائلته في حالة حجز زنجو، قرر أن يقبض على الاثنين، وطلب من يقين أن يجري بحثًا شاملًا عن كل ممتلكات زنجو، لا سيما أن ماكسيم أخبره أنه يمتلك فندقًا في بريشتينا عاصمة كوسوفو وضيعة على حدودها، ويتصل يقين ببعض تجار الأسلحة في مصر ويتحرى في دهاء عن زنجو، ثم يقدم له ملفا كاملا بمفردات ثروته:

- ماذا ستفعل بهذا التاجريا مسيو (سليمان)؟

فتح معه أحاديث عن الاضطهاد الإنساني، وذكره بمأساة دولة إفريقيا الوسطى، ثم خبره أنه أحد الذين لا يبالون بالإنسانية، فهو يستخدم أمواله لينشر الفوضى في بلاده، ويقول يقين الذي اقتنع أنه ثأرٌ شخصي:

- أنا أفهمك وتحت أمرك.

وأمره أن يغير من لهجته الحادة معه، ويعزمه على الغداء في القصر، على أن يكون أخذ العقود هناك، فامتثل للأمر، وفي القصر كان زنجو متربصًا ورفض تناول الطعام، واعتقد أنه داهية لا نظير لذكائه وحنكته، وكان يفكر في الانصراف، وبدأ يشتم ويحذر، ويحاول طاهر تهدئته، فنظر إليه يقين بجمود، ثم انصرف يصحب معه كلوديا التي اعتبرت نفسها تخوض مغامرة مخابراتية، وكانت تضحك كما المراهقات الجريئات، ثم برز (سليمان) يحمل سلاحًا ولم يتردد، وضغط الزناد

فانطلقت رصاصة واخترقت كتف زنجو، وكاد طاهر يغشى عليه وصرخ يطلب النجدة، ورصاصة أخيرة في رجله فسقط بجوار الآخر، ثم قيدهما بنفسه وسحبهما للبدروم، وكان زنجو يصرخ ويسأل عمن هو، فزجَّ بهما في حجرة ضيقة وزعق:

- أنا (سليمان) عبد المنتقم.

ويجيء صوت ماكسيم المرتعش من شدة الفرح:

- أتوسل إليك لا تخلع عينيه، فأنا من سيفعل.

وفتح (سليمان) حقيبة معبأة بأوراق وعقود، وأمر زنجو بالتوقيع عليها، وإذ يمتنع يصعقه بالكهرباء حتى امتثل، ثم أمره أن يتصل برجاله في مصر ويبلغهم وأن كل شيء آمن والصفقة تمت، وأنه سيعقد صفقات عديدة وسيتنقل في أوروبا لعدة أشهر، وعليهم ألا يقلقوا وليس لهم علاقة بعائلة طاهر الحاوي نهائيًا، فهو رجل يحترم أعماله وله علاقات عظيمة في مصر وخارجها، وحين سمع طاهر ذلك ارتاحت نفسه قليلا والتزم الصمت بحسب الأمر الموجه إليه، وكانت الأوراق التي وقعها زنجو عقودًا وشيكات تنازل بها عن جميع أملاكه وأرصدته البنكية لـ(سليمان)، ومنها ضيعته وفندقه الصغير في كوسوفو، ثم أخذ منه توقعًا على توكيل، بموجبه يقوم يقين بالإنابة عنه لو طلب في توثيق الأوراق وتسجيلها رسميًا، وتذهب كلوديا لنبيل بوقدير ليوثق هذا التوكيل وفق القانون الفرنسي، وقد فعل، وكان (سليمان) عبقريًا حين ساوم زنجو على حياته مقابل توثيق التوكيل بالسفارة المصرية في باريس، ويحتج ماكسيم على خروج زنجو من القصر، وأخبره (سليمان) ألا يقلق، وطلب من يقين توفير منظومة أمنية على درجة عالية من البراعة والخبرة، فرغم أن المسألة لن تستغرق دقائق إلا أن زنجو قد يصرخ في السفارة المصرية، وكان سهلًا على يقين أن يوفر عددًا من الأمنيين الأقوياء، حتى إذا حاول زنجو الهرب أو الاستغاثة سيطروا عليه بسهولة، وفي حشد كبير دخل يقين السفارة المصرية، بدا كمسؤول رفيع المستوى، فوقف الموظفون مبهوتين، واتصل أحدهم بالسفير، الذي استقبل يقين متبسمًا، وفي مكتبه علم ما يريد، وسأله عن وجود جارم

زيدان، فأخبره أنه في السيارة لأنه يعاني وعكة صحية، وأرسل موظفًا لأخذ توقيعه، وبهر الموظف من الحشد الأمني الذي يحاصر السيارة السوداء الفارهة والمغلقة النو افذ، وأُخذت أوراق التوكيل منه وفتح زجاج النافذة وأدخلت منه وأغلق على الفور، وكان (سليمان) قد أتى بزنجو، فوقع على الأوراق مذهولًا، لكن الموظف ارتاب في الأمر، فلما أخذ الأوراق طلب رؤية زنجو و إثبات شخصيته، فخرج إليه (سليمان) و ابتسم، وتحدث معه بالفرنسية:

- لماذا تريد أن تراه؟

- إنه القانون يا مسيو.

- القانون؟

ويضحك (سليمان) فيهتز الموظف خوفًا، وقدم إليه جواز سفر زنجو وطلب منه التطلع فيه جيدًا.

- أريد رؤيته شخصيًا وسؤاله عن التوقيع.

وأعطى (سليمان) الإشارة للحشد الأمني بالاستعداد التام، فأخرجت الأسلحة وسحبت الأجزاء، وفتح باب السيارة.

- هل رأيته؟

- نعم.

- هيا اسأله.

في تظاهر بالشجاعة سأله الموظف عن توقيعه على أوراق التوكيل، وإذ يرى فوهات الأسلحة مصوبة نحوه، أجاب:

- نعم، أنا جارم زيدان ووكلت (يقين) عبد الرشيد بتفويض كامل وله حق البيع والشراء نيابة عني.

وعاد (سليمان) لماكسيم ومعه زنجو، فوضعاه في بدروم القصر، وسافريقين لمصر ومعه الأوراق، وفي السفارة الفرنسية بالقاهرة، تحدث مع الموظفين عن المواطن الفرنسي (سليمان) عبد المنتقم، الذي عقد صفقة مع المصري جارم زيدان

واشترى كل ممتلكاته في مصر، وتتصل كلوديا بالسفير، وتطلب منه التدخل لإنهاء نقل الملكية لزوجها، وهو شاب فرنسي مصري وتنتظره وظيفة في الخارجية الفرنسية، وهي من أعطته المال ليشتري هذه الممتلكات ويديرها، ويقتنع السفير ويتصل ببعض المسؤولين المصريين لتسهيل مهمة يقين في نقل وتسجيل الملكية، وتمت معالجة طاهر الحاوي، وأطلق يعود، واشترط عليه عدم الحديث عن زنجو نهائيا وإلا كانت النتائج خطيرة، وبينما كان عائدًا، ضحك كثيرًا كما الذي عاش حلمًا عابرًا لن يتذكره أبدًا، ولما دخل (سليمان) على زنجو؛ انفجر غضبه، فداس رأسه، وأمره أن يكشف عن المكان الذي يخبئ فيه أصول الصور للنسوة اللائي كان ياقوت يصورهن، ومع الصعق بالكهرباء أبلغه أن كل شيء في حجرة ببدروم الملهى، ثم ضربه بالقدم في بطنه فانحنى بين ركبتي ماكسيم، فقبض على عنقه وبخنجر حاد رفيع السن خلع عينيه وطحنهما بين أسنانه وابتلعهما، ولما أتم يقين نقل الملكية وأصبحت العقود الموثقة بحوزته، اتصل السفير الفرنسي بالشرطة المصرية التي بدورها تحرت بسرعة شديدة عن (سليمان) عبدالمنتقم فاكتشفت أنه يحمل الجنسية المصرية وتثبت أوراق التحري أنه من أعرق العائلات في المندرة وأن أقاربه أثرياء ومعروفون بتاريخهم المشرف، ومن أجل هذا لم يقلق الضباط وهم ذاهبون مع يقين كي يستلم الملهى والفندق في المندرة، طالما أن مالكه الجديد مصري من عائلة قديرة ويحمل الجنسية الفرنسية، والذي أسعدهم وهم يفعلون ذلك أن لديهم أوامر عُليا بالتخلي عن زنجو نهائيا فقد فاحت رائحته العفنة وأصبح مصدر شبهة للدولة، والذي يدعم من موقف (سليمان) أيضا أن مانو لم يسعفه الوقت في إمداد أصدقائه في أمريكا بمعلومات دقيقة، فقد اعتقد أن (سليمان) وماكسيم في بيت بديعة القديم، وتسلم يقين الفندق والملهى ومنشآت إكنار، وكانت الأوامر إغلاقها لحين مجيء (سليمان)، ثم سافر يقين إلى كوسوفو وبموجب العقود والتوكيل الذي معه نُقلت ملكية الفندق والضيعة لـ(سليمان)، ولما اتصلت كلوديا بالسفارة وتأكدت أن كل الممتلكات آلت لزوجها، صب ماكسيم

البنزين على زنجو وألقى (سليمان) عليه الثقاب فاشتعل داخل حجرة البدروم التي ستغلق على رماده زمنًا غير معروف المقدار، وسافر ماكسيم لأفريقيا الوسطى بعد أن قطع وعدا أنه سيظل هناك حتى يلقى ربه، ثم شرع (سليمان) في تنفيذ وعده لكلوديا، واحتضنها وهمس في أذنها بالسفر والطواف حول العالم، وكانت أولى محطاته بريشتينا عاصمة كوسوفو، وفي الفندق الذي صار ملكه، كان بالمكر والحرص الشديدين، فلم يذكر أنه يحمل الجنسية المصرية ولم يتحدث العربية مطلقا، بل كان الجميع يتعاملون معه كفرنسي فقط، وخضع له المدير وكل العاملين وهو يتفقد الفندق، وكان لبقًا مع مديره البالغ من العمر سبعين سنة واسمه إسحاق ليفي:

- أين تذهب أرباح الفندق يا سيد إسحاق؟

قدم له رقم حساب، فبدله بغيره، وأمره بصرف مكافآت للعاملين في الفندق، ورفع أجورهم وإدخال تجديدات حتى يصبح فندقا خمس نجوم، ثم سافر لزيارة الضيعة على الحدود السويسرية الإيطالية، وهناك تعجب المقيمون لحضوره فهم لا يعرفون مالك هذه الأرض شخصيًّا، وما سمعوه قديما أنه سياسي عربي يجوب العالم، فأخبرهم أنها آلت له، وحذروه من الموت، لأن هذه المناطق كثيرا ما تعرض ساكنوها لإبادات عرقية، ومشى بعد أن ترك وعدا بالعودة، لإنشاء سور ضخم حول ملكه الكبير، وحين عاد للفندق كانت مشادة بين المدير وثمانية نزلاء، وعرف أنهم يقيمون في جناح كامل، ولا يريدون ترك الفندق لمدة طويلة، لكن المدير يصر على إخراجهم لإدخال التجديدات، فألقى عليهم نظرة هادئة متفحصة، وكانوا خليطا من جنسيات متعددة، تقودهم امرأة في الثلاثين وتتحدث العربية، وفي أناقة بليغة تكلم بالفرنسية، وطلب من المدير أن يعرف سبب تمسكهم بالإقامة، فتتحدث المرأة بالعربية عن مسؤوليات، وصفقات، وعمل لا ينقطع، وأنهم يحتفظون بمستندات مهمة يصعب نقلها في الوقت الراهن، وكان لزامًا على إدارة الفندق أن تبلغهم مقدمًا، فقدم لها ابتسامة تجارية وطلب من المدير أن يتركهم

على حريتهم، ويخلي بقية الفندق، وقرر البقاء للنزهة في بريشتينا، وخلا الفندق إلا من العمال والموظفين وهؤلاء النزلاء، وكانت كلوديا سعيدة وهي تتدثر بصموده وذكائه، ويجوب بها بريشتينا، ويتمتعان برؤية برج الساعة العثماني، ويزور معها المساجد العتيقة، والنهر المغطّى، وفي الليل يسهران معا في مطعم الفندق، ويقوم جميع العمال بخدمتهما، وفي مرة سأل عن النزلاء المتواجدين ولماذا لا يتناولون الطعام في مطعم الفندق، وعرف أن فعلًا كهذا لا يقومون به إلا نادرا فهم على الدوام خارج الفندق وقلّة منهم التي تبيت فيه، فعقد حاجبيه متعجبا، وسهر يفكر في أمر المرأة التي كانت تتحدث بعنف وتوتر، فأمر إسحاق ليفي بمراقبتهم عن كثب، وأكد عليه أن يدخل هذا الجناح ويغرس كاميرات دقيقة، ويرتبك إسحاق وهو يبلغه أن مفاتيح الجناح معهم فقط، فضرب المنضدة بيديه وزعق:" كيف؟"، ثم تراجع غضبه بسرعة، وربت على كتف إسحاق وتأسف له، وكان سبب اعتذاره، أنه لمح مكرًا ودهاء في عيني إسحاق فأيقن بتواطؤ في هذا الغموض، وبدأ يراقب الجناح بنفسه، وفي عمق الليل أحس بحركة مريبة، فاسترق السمع، وكانت مفاجأة مدوية حين سمع المرأة العربية تتحدث بصوت عالٍ عن تأخر وصول الأعضاء البشرية من مصر، فانتظر أياما حتى تأكد أن الجناح خلا منهم، وفي غياب إسحاق وفي عمق الليل، وباستخدام أدوات بسيطة استطاع فتح أحد أبواب الجناح، وكان يجابه القلق، وهو يفتش عن أسرار هؤلاء النزلاء، ولم يجد آثارًا تدل على ما سمعه، فكل شيء مرتب ونظيف، ففتش الدواليب حتى عثر على ملفات قديمة، وكانت تحوي أوراقا مكتوبة بعدة لغات، وبينما يقرأ توقف فجأة أمام ورقة قديمة باهتة ومكتوبة بالعربية، وكانت مملوءة بأسماء الذين تسرق أعضاءهم وتباع في بريشتينا، وكان اسمه من ضمن القائمة التي مرت عليها سنين طويلة، وتتوالي الضربات المفزعة، حين قرأ أسماء الأطباء المصريين الذين قُتلوا جراء عصيانهم المفاجئ، ومن بينهم كان الجراح صفوت عبد العال الذي سرق كليته قديما، ثم تنتقل عيناه لقائمة بأسماء الممرضات المساعدات ومن بينهم كانت

المرضة فاتن هنري، وفي طرفة عين انتقلت ذاكرته حين كانت أمه دلال عبد القاهر ديلم تنام جواره في مستشفى المندرة، وتذكر أن هذه المرضة كانت على الدوام تطمئن عليه، فعلم أنها كانت مشاركة في سرقة كليته، لكن الذي أربكه أن اسمها الكامل فاتن هنري مهدي مانو، فجعل يعقد مقارنة بين ملامحها ومانو التاجر البخيل، فأدرك أنها قريبته، ولما كان اسم إسحاق ليفي بين أسماء المستلمين جاء قراره السريع بترك كل شيء كما هو، وفي الوقت نفسه أبلغ إسحاق ليفي المسؤولين عن تصدير الأعضاء إليه بإيقاف عملهم مؤقتًا، لحين سفر المالك الجديد من الفندق!

(٥٠)

مانو.

بعد رؤيته لوفد الفرنسيين عند ناصية الحارة، ولعلمه القديم أن موسى و(سليمان) رفيقان حميمان، ولأن بديعة كانت هناك في نفس التوقيت، اعتقد أن (سليمان) سرق ماكسيم وخبأه في بيتها القديم ثم ساوم أهله على رده مقابل أموال غزيرة، وقد جاؤوا من فرنسا للتأكد من وجوده، فتبسم معتقدًا في انتصار كبير، ولما فشل تهديده لبديعة، وكي يزداد يقينا؛ قرر اقتحام البيت، لكن موسى يحرسه، فحاول شراءه بخبز طازج وجبن، فكان يأخذ الطعام ثم يشتبك معه، وحين حاول التسلل في غيابه ودخول البيت هجم عليه الكلب وعضه في ذراعه، فقرر الذهاب للشرطة والتبليغ عن (سليمان) واتهام بديعة بالتستر عليه في بيتها القديم، وكان قد أعد التهمة التي سيلفقها له وهي سرقة بضائعه التي تنقل للملهى، فتخضع له وتقر بمكان (سليمان) ويعرف سر ماكسيم، ويبلغ زنجو وتعود علاقتهما كما كانت، أو ربما عرف أسرارًا كارثية، وحين دخل قسم الشرطة وجده خاليا إلا من عساكر خدمة، فعرف أن الضباط جميعا في مدخل المندرة الجنوبي.

- هل حدث شيء للضريح؟

- الضباط يسلّمون الملهى والفندق لمالكهما الجديد.

- ماذا؟

- هذا ما عرفناه.

اغتم صدره وازرقّ وجهه وتكرمش جلده، وذهب مذعورا نحو المدخل الجنوبي، وكانت حادثة لم تشهد لها المندرة مثيلًا، فلما اتصل السفير الفرنسي بالشرطة أرسلت مدير أمن المحافظة، فملأت سيارات الأمن المدخل، واحتشد زحامٌ كبير يشاهدون نزلاء الفندق وهم يخرجون في هلع وضيق، واعتقد عمال وموظفو الفندق والملهى أن العدد الكبير من البوليس حضر لوجود إرهابي مختبئ هناك،

وكان موظف السفارة الفرنسية يترجم أوامرَ يقين بإخلاء المكانين وتفتيش كل الخارجين خصيصًا العمال والموظفين، وأصدر أمرا شديد اللهجة بعدم حملهم أي شيء، ويخرجون بملابسهم فقط، ومن كان له غرض أو ممتلك فإنه سيعوضه ماليا، ويخترق مانو الحشد ويصل للحلقة الأمنية التي تحمي (يقين)، فوقف مذهولا ويتصبب عرقا، وحين سأل العمال عن زنجو أجابوه أنه يعقد صفقات كبيرة في فرنسا ولم يعد منذ فترة، فاعتقد أنه باع الملهى والفندق في صفقته المزعومة فعاد مكظوما، لا ملجأ له غير أصدقائه و أقاربه في الولايات المتحدة الأمريكية، وأجرى اتصالا بهم وأخبرهم بما يحدث، فطلبوا منه ترك الأمر مؤقتا ويساعد ابنة عمه فاتن هنري، فقد ارتبكت استراتيجيهم جراء بيع زنجو لفندقه الآخر في بريشتينا، والمالك الجديد شاب ثري، وسيعمل بالخارجية الفرنسية، وهم يعتقدون أن الحكومة المصرية هي من أجبرت زنجو على ذلك إرضاءً لحكومة فرنسا، و انتقل الهاتف لآخر فشرع يحدثه عن خبرتهم العميقة في الدماغ السياسي المصري، فالتوجهات الخارجية للسياسة المصرية شبيهة بالممرات الحلزونية المتداخلة، ويريدون إرضاء جميع القوى السياسية والدول العظمى في العالم، ولما كانت السياسة الفرنسية الحالية تناهض قرينتها المصرية ولعلم المصريين بقوة فرنسا، ما كان منهم إلا التضحية بزنجو، ثم انتقل الهاتف لثالث وأخير، حدثه عن مدير فندق بريشتينا إسحاق ليفي، الذي طلب منهم توقف إرسال أعضاء البشر من مصر في الوقت الراهن، وعليه أن يبلغ ابنة عمه فاتن هنري بالتوقف مؤقتا وانتظار الباحث الاستراتيجي الجديد الذي سيكون بمصر قريبًا، وأن عليها الاستعداد بقائمة الأطباء الذين وقع الاختيار عليهم، ويفضل أيضا أن تكون جاهزة بقائمة أطفال، فاتصل بها عبر الهاتف الأرضي وطلب منها أخذ إجازة طويلة من المستشفى، لأنهما سيعكفان معا، وكان تفكيره ينصب في أطفال إكنار، وسعدت فاتن كثيرا بآرائه وعكفا على دراستها الأولية.

(٥١)

قرر (سليمان) تكثيف مر اقبته لعصابة سرقة الأعضاء البشرية، وكلما و اتته فرصة، دخل الجناح فيجده خاليًا مما اعتقده، فلا حقائب تحوي أعضاء بشر، ولا أدوات تثبت ذلك، ولا دماء تلطخ الجدران، وكان يسترق السمع حتى تراءى إليه أنهم لن يخوضوا في عملهم إلا بعد رحيله، وكثيرا ما تحدثوا عن فرحتهم بخلاء الفندق، وطلبت منه كلوديا ترك كوسوفو والسفر لأي دولة أخري، لكنه عاد بها لباريس، وبعد أيام من وصولهما اتصل بالخارجية الفرنسية فأخبروه أنه قيد التحري، وكان سيعود للمندرة فلم يعد هناك ما يخافه، لكن ما عرفه في بريشتينا عن الممرضة فاتن هنري وسرقة أعضاء البشر وعلاقتها بمانو وضعه في حيرة شديدة، وأصبح قلقا بشأن الناس في المندرة وتصور الأطفال يقتلون وتسرق أعضاؤهم، فجاء قراره الأول بالانضمام لحزب سياسي في باريس، وذهب بنفسه و انضم لحزب يسمى إلى الأمام، ثم قدم أور اقه للحاق بدراسة جامعية أفضل من سابقتها، و أنشأ علاقات مع بعض أعضاء الحزب، و اكتشف أن فيهم ماسونيين، فتحدث مع أحدهم عن كيفية الانضمام لهم، وهو يعرف أن الأمر شائك بسبب ما قد يجيء في نتائج التحري عنه، وكان صريحًا في كلامه عن كونه فرنسيًا مصريًا، وهنا جاءت المفاجأة، فلما أكد أنه ما يزال يحمل الجنسية المصرية، وسئل عن كونه مشتبهًا به في بلاده أو هاربًا من العدالة أو تشوبه أخلاق غير حميدة، وكان ينفي فاقترح عليه أن ينضم للمحفل من بلاده بدلا من الانتظار في فرنسا، فلم يتوان في معرفة نشاط المحفل المصري، وعرف أنه استعاد مجده في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، وأن أعضاء هذا المحفل المصري شخصيات معروفة ولها تاريخ مشهود وكان منهم سياسيون يشار إليهم بالشرف والعظمة، لكن الذي حيره أن المقر المصري للماسونيين غير معروف، وأن كان أعضائه يجتمعون في أندية بعينها ويقررون

خطط التنمية البشرية والسمو الإنساني وحب الخير وتعليم المصريين العطاء والتضحية في سبيل الرقي الأخلاقي، وكاد ينسى أن سلطان جنسيته الفرنسية يزيل أمامه كل العقبات، التي منها معرفة موقع هذا المقر، و أثناء تجاذب أطراف حديث مع قرينه في الحزب السياسي مده بمعلومات عن أماكن المقرات الماسونية في العالم، فهم يتعاملون كإخوة ر اقين ولا بد لهم من التواصل من أجل العثور على الحلقة المفقودة في التطور البشري، ولما كان هدفه الظاهري والآني الحصول على عضوية هذا المحفل، للعثور على علاج لعائلة الرومي وجلب أخته لتلقي أفضل العلاجات للإيدز، طلب من قرينه في الحزب الفرنسي أن يتوسط لدى أعضاء المقر الماسوني المصري، فهمس في أذنه: "عندما تكون هناك ويسألونك قل لهم: إنني من طرف مسيو شيفر شارون"، فقرر العودة للحصول على عضوية المحفل في بلاده، فكل الشروط تنطبق عليه، خصيصًا أنه من آل عبد المنتقم، وقبل سفره لمصر؛ وعلى اعتبار كونه فرنسيا؛ اتصل بفندق سميراميس وحجز جناحا كاملا، وتحط قدماه في مطار القاهرة مواطنًا فرنسيًا ومصريا، يملك فندقين، وملهى، وقصرين، وأموالا هائلة، وتاريخا عائليا مجيدا، وكانت معه زوجته كلوديا، ومن جناحه اتصل بشركات أمن وتوظيف، وطلب تجهيز هيئة كاملة، لإدارة فندق إكنار ومثلها لملهى وفندق المندرة، ثم قضى عدة أيام يصحب زوجته لزيارة بعض ملامح القاهرة، وخبرها أنه قريبا سيكون ماسونيًا، و اتصل بإدارة فندق سميراميس وحدثهم عن شراء سيارة حديثة الطراز، ولما اشتراها، وفي الساعة السابعة مساءً، وكان الشتاء المصري يبعثر دفعات من نسيمه المبهر، وكملكة جمال ركبت كلوديا جواره، وجعل يسير بالسيارة في القاهرة المزدحمة، ثم توقف بالقرب من حي شعبي، وشرح لزوجته كيف أن هذه الأحياء العتيقة عانت تاريخا مريرا في حقبة الاحتلال الفرنسي لمصر، فألحت عليه بالنزول والتمشية فيه، وجعلا يتجولان في الحواري المتقاطعة والأزقة الضيقة والزو ايا المخنوقة، ويشاهدان تخبط أكتاف الر ائح والغادي، و انبعاث دخان الشيشة والسجائر من أجواف المقاهي المكتظة بمشجعي النادي الإسباني،

وكان مقهى وحيد خاليًا من التلفاز لكن جوفه يبعث طرقعات دومينو، ويتشاحن شاب مع رجل طاعن في السن فقد اختلفا سياسيا، وانتقلا لمنتصف الحي حيث بناء عتيق على الطراز الفاطمي، تعلق على جداره صورة الممثل المشهور، وبجوارها علم الدولة، وأسفل الجدار عربة كارو ينام عليها عربجي وعائلته، ويتنفسون من بخر روث الحيوان الممدد أمام العربة، ثم أشار نحو الجهة الغربية للحي حيث يبرز طرف صخرة أزلية، وقال:

- هناك.

عادا للسيارة وانطلقا، ومرت جوار الصخرة، فرأوا أسفلها مقلب زبالة الحي، وتتعجب كلوديا من السيارات؛ إذ يلقي راكبوها بقايا أطعمة فيأكلها أطفال وحيوانات شريدة، وفجأة ارتفع الإسفلت كأنه يعتلي هضبة، ثم يتسع ويلمع، وكل الأعمدة على الجانبين مضاءة، ومع انحرافه شمالا أصبح خطا إسفلتيا ضيقا، تتراص على جانبيه فيلات، وكافيهات، وصالات بيلياردو، وبارات، وكازينوهات صغيرة، وحين انحنى يمينا، تحول لممر شجري يبعث أنفاسا صافية، فسارت فيه السيارة ببطء شديد، وترى كلوديا مصابيح صغيرة ملونة ثبتت على أفرع الأشجار، وشجيرات الورد تملأ المسافات الشاغرة بين الأشجار الكبرى، فبدا الممر مصفوفة نادرة الجمال، ووقفت السيارة وترجل الاثنان، وكان المارون أمامهما يتهامسون في رقة متناهية، ويشيرون نحو الأشجار بفخر كأنهم يقولون: هذا من صنع أيدينا، ومشيا نحو نهاية الممر، فوصلا لمنشأة في طابقين، بسيطة وغير معرّفة، فلا يافطة ولا لون مميزا، مربعة وحجرية الجدر، ونوافذها المحدودة مغلقة، بوابتها حديدية سوداء، ولا عامل أمامها ولا حارس، فيها كاميرات ظاهرة وأخرى مدفونة، وأمامها درج عريض مرتفع كأنه يحملها إلى الفضاء، لا جلبة ولا لغط، وكل شيء وديع وآمن، فقلّة يدخلون ويخرجون، نسوة مزينات ورجال وديعون، وجميعهم بسمت وحيد، ووجوه واثقة من العطاء، وتواضع مصطنع، وعيون لا تهتز، وملابس راقية،

وعطور نادرة، وخاتم في الإصبع محدد النقش، فعرفت كلوديا أنها أمام المقر الماسوني، فهمست بأذنه:

- أنت شيطان.

صعدا السلم، وكلما اقتحمته الرهبة أزاحها وهو يتذكر بكاء موسى و أنين أخته، و انتهى السلم فإذا بممر مستقيم، جداراه أبيضان وتنبثق من اللمبات إضاءة ذهبية ناعمة، تريح البصر وتخلع قلق الصدور، وعلى جانبي الممر ينتظم صفا أبواب، بندقية ولامعة وموصدة، وكل الآتين من نهاية الممر يحملون فرجارا صغيرا وزاوية، ووصلا لنهاية الممر ودق (سليمان) الباب، ففُتح دون صرير، فإذا بحجرة مستطيلة بسيطة المقتنيات، لكن الحائط المقابل ناري اللون، وعليه لوحة النجمة الماسونية المعروفة بنجمة المهندس الأعظم للكون، وبمنتصف الحجرة منضدة طويلة وبنية، وكان القاعدون حولها أربعة رجال وامرأة عجوزا، وكان يظن أن الرعب سيجيء في التو، فيُعصَّب العينين، ويُلقن يمين حفظ السر، ويمسك بين يديه بكتاب العهد الجديد، ثم يسحب لغرفة مظلمة معبأة بالجماجم وأدوات هندسية مصنوعة من خشب، ولم يحدث شيء من هذا، وسمع صوت أصفر.

- تفضلا.

قالتها العجوز وأشارت لكلوديا بالجلوس، لكنها خرجت تنتظره، ثم وبوجه جامد قالت العجوز.

- يا بني، هل تؤمن بإله؟

أومأ إيجابا:

- هل لك رب واحد؟

- نعم.

- لم جئتنا؟

وبرع في عرض تاريخ عائلته المشرف وشهادته العلمية الفرنسية، وكان ينتظر سؤالهم عن واسطته التي أرسلته، لكنهم أسهبوا في سؤاله عن المحفل المصري،

وكان ذكيًا وكاد يتبسم وهو ينقل لهم شكواه من فكر المفسدين في الأرض، فعلى الإنسان مهما كان موطنه أن يحب أخاه، ويبذل ما بوسعه لاستحضار الرقي البشري، ويعملوا معًا حتى ترحب الأرض بالجميع، واسترسل في سرده عن تاريخ الشخصيات التي حولت الماسونية مسار حياتهم، وجعلت منهم أبطالًا في الفلسفة والقانون، وأن مبتغاه الأسمى أن يعتنق الحرية الأبدية ويخلق من نفسه رسولا في خدمة البشر، ثم دمعت عيناه وهو يذكر عدد البشر الذين أصابتهم الأمراض المعضلة بسبب همهجية الإنسان.

- هل لك صديق مصري من البنائين الأحرار؟

- للأسف لم يسعفني الحظ ولكن أنا مواطن فرنسي أحيا في ظل الحرية الفرنسية وهناك لا يخجل الإنسان من كونه ماسونيًا من عدمه، ومؤكد أنتم تعلمون أن البنائين الأحرار في مصر حذرون في صداقاتهم فمن أنا حتى يتخذني أحدهم خليلا؟

- تفضل و انتظر منا اتصالا.

وفي فندق سميراميس اتصل ببديعة، فكادت تزغرد وهي تسمعه فقد مر زمن طويل على غيابه، وطلب منها أن تأتي بموسى، وحين سمع صوته الصلب قال باكيًا:

- لم تكن حياتي كذبة يا (سليمان).

وطلب منه أن يشرح حالة عائلته حتى يستطيع نقلها للأطباء في باريس، ثم طلب من كلوديا أن تتصل بمعارفها وتحجز لأخته ولعائلة الرومي في أفضل مستشفى، وقبل وصوله للمندرة أجرى عدة اتصالات بشركات الأمن الخاص والتوظيف وأمرهم بإرسال المتفق عليه، وفي موكب سيارات فخمة دخل المندرة مواطنًا فرنسيا، وكان موسى في استقباله برفقة برنس، ولما استقرت زوجته بالفندق، ذهب بنفسه لبديعة رستم، فانشرح صدرها واستعادت كثيرًا من رونقها القديم، وطلبت من كاميليا أن تزغرد، فمنذ الآن لن تقلق على ولدها وحفيدها، فأخذها وكاميليا لبدروم الملهي وفتح كل أبواب الحجرات المغلقة، وعثروا على الكاميرات والصور والأفلام وأحرقوها، وبينما تلتهم النار أسرارًا كانت سببا في حياة مريرة، وكانت عينا

بديعة تلمع من الفرحة وهي تنظر لـ(سليمان)، وفي الوقت نفسه جاءه اتصال من قادة المحفل الماسوني بالقبول، وأنه منذ الآن ضمن أعضاء المحفل العالمي، فتبسم ضاحكا وهو يتصور أن آل فريمان أو غيرهم يهتمون بعلاج أخوات موسى وأخته نور، وسقط رأسا لبيت بديعة القديم ودخل على بدير العدوي:

- الآن حان دورك.

وغرس سن الحقنة وامتص من دمائه حتى ملأها، ثم صب عليه البنزين ووقف يشاهده حتى تحول لرماد، ثم توجه لمستشفى المندرة، فاستقبله المدير بترحاب شديد، فقدم له شيكا بمبلغ كبير من المال، وطلب أن يستخدمه في بناء جناح يضم كل الأجهزة الطبية الحديثة ويحمل اسم موسى الرومي، ثم انطلق لملعب عبد الأمين الشيوعي، وأخرج هاتفه و اتصل بأحد رجاله وأمره أن ينقب عن امرأة تعمل ممرضة واسمها فاتن هنري، وحين يعثر عليها يحضرها ومعها التاجر المعروف باسم مانو، ويحاصر الحراس المندرة كلها، ويعثرون عليهما في بيت مانو بشارع النطرون وكانا قد فصلا نفسيهما عن العالم الخارجي منذ فترة وأعدا قائمة بأسماء الأطباء الجدد الذين سيقومون بسرقة الأعضاء البشرية، وقائمة بأسماء أطفال، وأخذ الرجال القائمتين وكمموهما ثم قيدوهما، وفي الكوخ الأسمنتي القديم المجاور لملعب عبد الأمين الشيوعي كان (سليمان) ينتظر، وألقى الرجال مانو وفاتن تحت قدميه، وأعطوه القائمتين، فنظر إليهما يتوسلانه بأعينهما فتذكر المجرمين الذين كمموه قديمًا، فعض أنيابه وهو ينظر في القائمتين، ثم تنهد يزفر سُخطًا.

- كنتما ذاهبين لإكنار، إذن هيا.

وغرس حقنة دماء بدير المعبأة بفيروس الإيدز في وريديهما ثم أخذهما للقصر الجديد بإكنار ووضعهما في السجن المعدني، وهمس منتقما:

- من الأكيد أنني سأحتاج دمائكما الملوثة دائما.

- بم حقنتنا؟

- بالموت البطيء.

ثم عكف بموسى يعرض عليه خطته، وكانت تقديم عرضٍ للحكومة بشراء الأرض المقابلة لفندقه وملهاه بالمندرة، واستطاع بنفوذه وأمواله الغزيرة شراء الناحية المقابلة كلها وبما فيها ضريح مسعود، ولما كان الناس في المندرة يقدمون شكاوى مستمرة ويعبرون عن استيائهم من احتفالات الضريح، ولما كانت الحكومة تفتش عن مخارج لأزمتها الاقتصادية و افقت على عرض (سليمان) ببناء منشأة سياحية في هذه المنطقة على أن تقدم اعتذارا في حالة هدم الضريح، وحول (سليمان) المبالغ الضخمة لوزارة المالية، وعلى مبعدة من أوناش الهدم كان (موسى) و(سليمان) يضحكان وأحجار الضريح تذوب كما الجليد، ومنها ينتقي موسى ويعبئ الشكارة، وكلما رأى برنس حجرًا مناسبًا وقف بجواره ينبح كالذي يناديه، ولما انتهيا، أطلعه (سليمان) على الفرجار والزاوية، وخبره أنه تفاجأ بسهولة الماسونية وليونة قادتها، فقال:

- لا تكن غبيا.

- موسى؟

- هذا سمت جديد، ثم غربلة ونشأة أخرى فيما بعد.

- فهمتك.

- ثم ماذا؟

- ما تزالُ في مرتبة الأعمى الصغير.

- ثم ماذا؟

- وللوصول لأعلى رتبة، لا بد أن أختلق قبحا أضل سبيلا.

- هل تدري شيئًا يا (سليمان)؟

- ماذا؟

- لن يعلنوا الحرب عليك الآن.

- لأني (سليمان) الفرنسي.

- والماسوني، فلو حاربوك، سيغلِبون أنفسهم.

- ستقع الحرب، و أنا الر ابح حتى لو قتلوني.

- قضي الأمر.

وحين يتبسم ضاحكًا؛ يقترب منه ويهمس والدموع تملأ عينيه:

- ترى؟ هل سأعيش لأعلّم بطلًا جديدًا؟

ويجر وراءه شكارة الأحجار وير افقه برنس، ويتصل (سليمان) بشركات الطيران ويحجز لأخته طائرة خاصة وكذلك لعائلة الرومي، ويجيئه خبر باشتعال حرب عرقية في كوسوفو وأن فندقه هناك قد يدمر في أي وقت، فترك زوجته في ضيافة بديعة وسافر مع أخته وعائلة الرومي لباريس، وقضى فيها بضعة أيام حتى أمّنهم ووفر لهم المال والحراسة الجيدة، لحين البدء في استخدام سلطاته القوية في الإتيان بأفضل علاج في العالم، وفي الوقت نفسه كان يمارس دوره السياسي في الحزب، ولما أذيعت أنباء عن هدوء الوضع نسبيا في كوسوفو، سافر بريشتينا فأحسها توشك من انفلات أمني، ودخل الفندق متخفيا فلاحظ اختفاء جميع العاملين به، وحين سمع همسًا في جناح وسطاء الأعضاء البشرية، اقتحمه وكان فيه إسحاق ليفي والمرأة العربية فغربل جسديهما بمسدسه، وأخذ كل الملفات الورقية والمخزنة على أجهزة الكمبيوتر، حتى يستخدمها سرا في كشف بؤر سرقة الأعضاء البشرية، وإذلال المخططين لهذا الجرم البشع، وفضح تنظيماتهم الغامضة، والمخفية في هيئات تدعي تقديم خدمات مجتمعية لترتقي بالإنسانية، خصيصًا أنه اطلع على أسماء معروفة في العالم بعطائها الإنساني، ومن بريشتينا عاد لباريس ومنها للإسكندرية حيث جدته ثريا هانم، وحين دخل عليها تبسمت ثم قالت:

- صدقت نبوءتي.

فركع على ركبتيه وقبل قدميها، فسالت دموعها، ثم ضحكت وفردت ذراعيها فاحتضنها فقالت:

- أنا من سميتك وكنت موقنة أنك ندّ لما سميتك به.

وفي المندرة وبمنتصف ملعب عبد الأمين الشيوعي كان يحاول إقناع موسى بالسفر معه لفرنسا، لكنه رفض:

- ستجدني دائما في رأسك.

- موسى؟

- لن أترك بلادي، قل لي يا ولد أين خبأت مجلدي الفخم؟

- سآخذه معي إلى باريس.

- طيب، ذكرني بشيء منه.

- في النفس الآدمية حيوان متيم بالعبودية الذاتية.

ثم حلّ عليهم الصمت، وفيه انسابت دموع (سليمان) فقد تذكر أمه التي أهينت زمنًا طويلًا، وتنهد يقاوم هذه اللحظات المريرة، و ابتلع ريقه يجابه صورتها التي حاصرت الأفق، ويمد موسى يده ويربّت على كتفه فيهمس:

- لولاك يا موسى لقتلت نفسي.

- إن العكس هو الصحيح، عرفت أنك القانون يوم صدقتني، وبك كنت أعيش. ويتحسسان فروة برنس الذي فارق الحياة، ثم رفعا بصريهما للسماء الزرقاء الصافية، وبقيا على حالهما حتى قربت الشمس من الرحيل، فاحتضنه (سليمان) وهو ينتحب كالذي أحس به يفارق الحياة، وقدم له بردية مطبقة ومكتوبة بالحبر الأحمر، وهمس بمرارة:-

- سأرحل يا موسى.

- لا تبك يا ولد.

مسح دموعه ونسى حزنه ووقف شامخًا، ومشى بخطوات ثابتة، وعند طرف الملعب ألقى آخر نظرة عليه، و انطلقت سيارته، وكان موسى قد علم أن برنس فارق الحياة، فابتلع ريقه بصعوبة، وتمدد جواره وقبل أن يغمض عينه للأبد، فتح البردية وفي ضوء المغيب جاء فيها:

"لا توجد مأساة في الحياة، نحن من نخترع تلك الفوضى، والمستضعف أحقر مخلوق في الأرض، والمتباكي أضل سبيلًا، لست مظلومًا بقدر ما أنا (سليمان) وكفى، وعيناي وقلبي وضميري يشاهدون الأنفس الدنيئة كحيوانات متيّمة بالعبودية، و أنا حين أقول عبودية؛ لا أشترط عبادة رب، و إنما أقصد دناءة وسحرًا أسود مبينا، وقد ينصهر الفرد في نفسه ويتشبث بنرجسية ابتدعها، واختلق قبحا فأضله ضلالا بعيدا، رأيتُ بشرًا يجاهدون لأجل شطحاتٍ دونية، اعتقدوها جواهر لن ينطفئ نورها، ولن يذوب معدنها حتى لو سقطت في قلب الشمس، وظنوا أن بريقها هو زخرفُ الدنيا وفاتح أبواب الفضل، ومن ثم غلّفتهم متعة هائلة الوصف والتعدد، يُلقون فيها بآثام قديمة حُفرت في أعماقهم الغائرة، ودمرت ضمائرهم وسحقت إنسانيتهم وبعثرتهم هائمين، تتوعدهم المشارقُ والمغارب؛ وإذ يفشلون في البحث عن حقيقتهم الأولى؛ يؤمنون أن القدر القادم أفناه الشيطان، وكلما حاولت فطرتهم الأولى أن تستعيدَهم، ذبحوها بسكين الافتعال، لكنها لا تموت، إنما تتشتّت فيهم، تهينهم وتعذبهم وتضيق عليهم الخناق، حتى يعجزوا عن التراجع فيموتون وهم على قيدِ الحياة، من أجل هذا؛ لا يهم أبدا ما سيكتبه التاريخ عني، فكلما ثبتتُ خطاي في الوحل الظاهري كلما مجدني البشر، وإن بدا رد فعلي لا يخلف مذبحة عظمى، فذلك لأن ضميري سنّ قانونًا بمقتضاه: لن يفوز أحد غيري، فقصتي مع الحياة أدنى مخططاتها تنتهي بإبادة جماعية، تسير ببطء، وفي خط لا ضد له".

مايو ٢٠١٧

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017